

# نظرات في

تاريخ الخلفاء الراشدين

رضوان الله عليهم

تأليف

أ.م. / حلمي عبد المنعم صابر

عميد كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة (سابقاً)

جامعة الأزهر



## تقديم

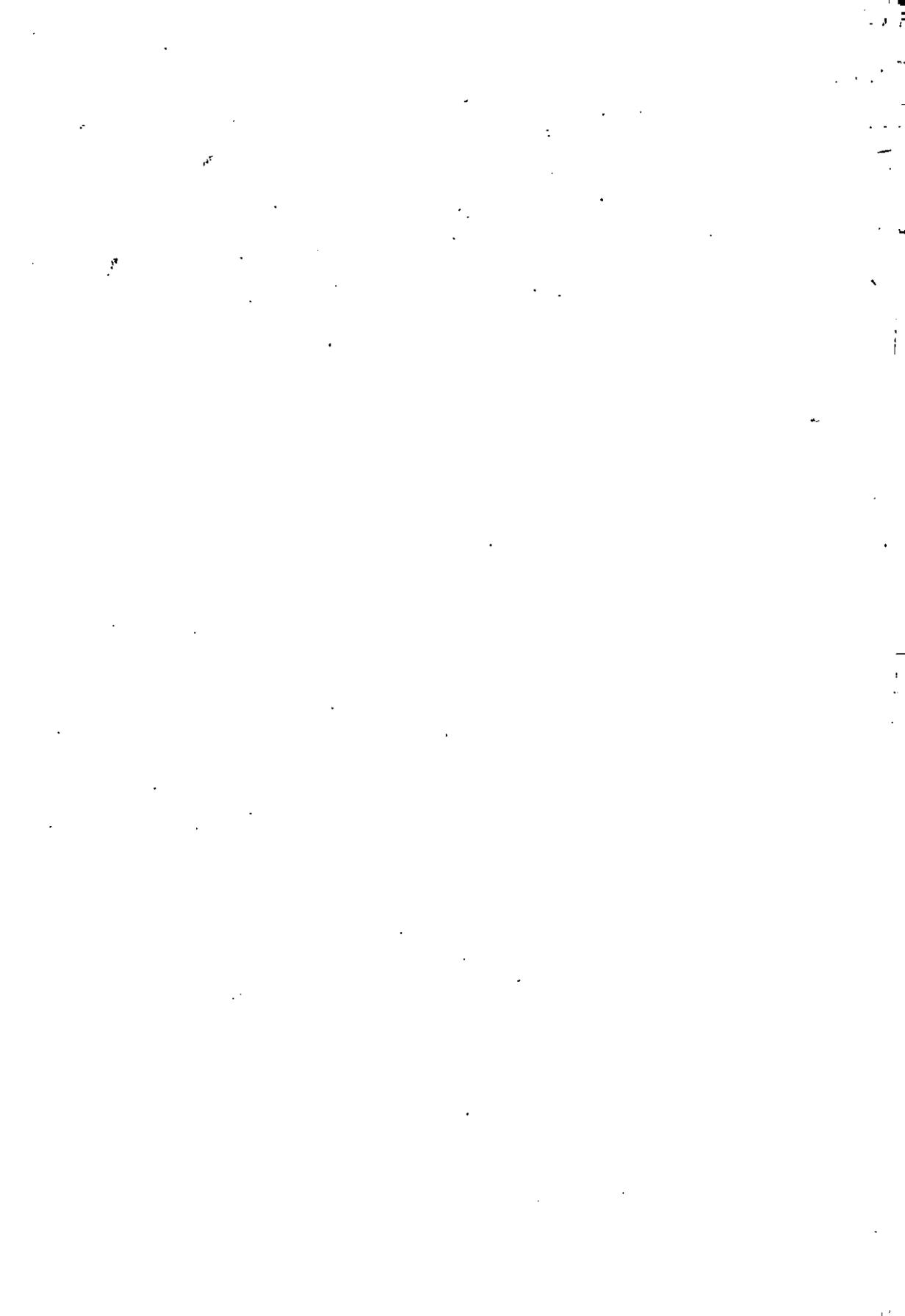
الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله الرحمن الرحيم، وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله الصادق الأمين، اللهم صل وسلم وبارك عليه في الأولين وفي الآخرين، وفي كل وقت وحين، وفي الملأ الأعلى إلى يوم الدين، وارض اللهم عن آله وصحبه أجمعين.

وبعد ...

فإن فترة "الخلافة الراشدة" من أنصع الفترات في تاريخ المسلمين - بعد وفاة النبي ﷺ - فهي التطبيق الشامل والكامل لتعاليم الإسلام، كما فهمه هذا الجيل الفذ من النبي عليه الصلاة والسلام.

ولم تكن رسالة الإسلام قاصرة على التطبيق العملي في حياة النبي المعصوم والمؤيد بالوحي و فقط، ولكنها طبقت في دنيا الناس على يد ثلة من البشر، أحسنوا الفقه لهذا الدين، وأخلصوا النية والعمل لجعله غرضاً طرياً ما داموا على قيد الحياة، إنهم الجيل الفذ، الذي لم تشهد الأرض مثله، إنهم جيل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، أولئك الذين نابوا عن النبي ﷺ في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، وقاموا مقامه في تحقيق العدل، ونشر الخير، وإحياء الإسلام قولاً وعملاً، وهذا يدل على أن تطبيق الإسلام ليس قاصراً على عصر النبي المؤيد المعصوم، ولكنه طبق على أيدي ثلة من البشر، هم أصحابه الراشدون رضوان الله عليهم، وفي الإمكان أن يطبق في عصرنا هذا لو خلصت النوايا وصدقت العزائم.

وأمامنا تجارب بعض الدول التي تطبق الإسلام، وترعى حدوده، وتقيم فرائضه، وتسوس الناس وفقاً لتعاليمه وتوجيهاته، على قدر طاقتها في عصرنا الحالي وهي المملكة



---

العربية السعودية وهي خير شاهد على عدم صعوبة إقامة الدولة الإسلامية في العصر الحاضر.

ومن هنا تأتي أهمية الدراسة لهذه الفترة من التاريخ الإسلامي، وهي فترة الخلافة الراشدة، حتى نستبين في ضوئها، ونتعرف من خلالها، على صورة المجتمع المسلم في هذه الحقبة، وصورة حكامه وولاة أموره، وكيف قاموا بالإسلام وطبقوه في عهدهم؟ وهل كانت الدولة في خدمة الدعوة؟ أم أن الدعوة هي التي كانت في خدمتها؟ وكيف كانت مسيرة الدعوة في عهدهم؟ وما الجهود التي بذلوها في إكمال ما بدأه النبي ﷺ من نشر هذا الدين بين العالمين وإظهاره على الدين كله، ما كان من ذلك بالدعوة والبيان، أو بالفتح للبلدان حتى عم نور الإسلام، وسادت الأمة الإسلامية على سائر الأمم؟

وعلى ذلك: فستكون دراستنا لهذه الفترة دراسة تحليلية، وليست دراسة وصفية، لا يشغلنا كثيراً جمع الأخبار وحشد الروايات التاريخية، بقدر ما يهمنا تحليلها، واستنباط الدروس المستفادة منها.

إني أحاول في هذه الدراسة أن أجعل من أحداث ووقائع الماضي، شواهد حية تحرك الحاضر، وتكون نبراساً عملياً أمام الباحثين - عن الطريق الحق - والجادين في إقامة المجتمع المسلم.

وسنحاول في هذه الدراسة أيضاً، تنقية تلك الفترة التاريخية مما شابها من خلط كثير، وتمحيص الروايات والأخبار التي شوهت بعض المواقف لهؤلاء الرواد العظام: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وأساءت لهذا الجيل الفذ من المهاجرين والأنصار.

وما أكثر الروايات التي جاءت في كتب التاريخ تحمل أخباراً عن هذا الجيل الفذ، تتناقض تماماً مع تلك الصورة المشرفة التي حدد القرآن إطارها، ورسمت السنة ملامحها

الفريدة، وجاء قوله عز وجل في شأنهم ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩].

وكما ورد في حديث النبي ﷺ حيث قال ﷺ «الله الله في أصحابي، الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضا بعدي (أي هدفا للطعن) فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»<sup>(١)</sup>، وقال ﷺ فيما أخرجه مسلم: «لا تسبوا أحدا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه»<sup>(٢)</sup>.

وقال ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»<sup>(٣)</sup> إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة، وهي تجعلنا نضع هذا الجليل في إطار يجب ألا يتجدش، وكل ما جاء مخالفا لهذه الصورة المشرقة لهؤلاء الصحابة رفضناه، مهما كان قائله ومهما كان مصدره من كتب التاريخ.

(١) رواد الترمذي في سننه كتاب المناقب باب فضل من بايع تحت الشجرة رقم ٥٨.

(٢) رواد مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة من رواية أبي سعيد.

(٣) أخرجه الدارقطني في الفضائل رواد البيهقي في المدخل وقال منته مشهور وأسانيد ضعيفة.

ونحن نعرف أن كتب التاريخ العام - وهي التي تعني بالتاريخ للأمم والدول بشكل عام قبل الإسلام وبعده، وكثيراً ما تبدأ من بدء الخليقة ويتبني كل مؤلف بعتره - فيها خلط كثير، وعلي سبيل المثال: فسنجد أن كتاب "تاريخ الأمم والرسل والملوك" لأبي جعفر بن جرير الطبري هو في نظر الكثير من الباحثين في مقدمة الكتب التاريخية ومن أنفسها وأوسعها، ومما لا شك فيه أن الطبري له باع كبير في العلم، فهو من المحدثين الكبار، ومن الفقهاء المجتهدين، ومن المفسرين الثقات، إلا أنه كان - كغيره من الآخرين - يسوق الروايات الكثيرة المتعارضة المتناقضة في الحادثة الواحدة، ولا يعلق عليها بشيء؛ لذلك كان كتابه مرتعاً خصباً لكثير من الذين شوهوا التاريخ الإسلامي، إذ كانوا يأخذون ساقط الروايات وواهبها، وفيها الطعن بالصحابة وغيرهم، ويحيلون على الطبري - لما له من مكانة علمية - تمويهاً منهم وخداعاً للقارئ البسيط<sup>(١)</sup>.

ولن نكون مبالغين إذا قلنا: إن جُلَّ المؤرخين الأقدمين - ومنهم الطبري - يسوقون في كتبهم الأحاديث والروايات الموضوعية والواهبية؛ صحيح أنهم يذكرون الأسانيد، لكنهم يسكتون عنها؛ ظناً منهم أنهم متى أبرزوا الإسناد فقد برئوا من العيب، وأسندوا أمره إلى إسناده، أو ظناً منهم أن مهمة المؤرخ هي جمع الروايات وحشدتها، وليست مهمته تمحيصها وتفنيدها، بل يتركون ذلك للنقاد والمحققين.

وهذا ما يجعلنا في تلك الدراسة التحليلية، نعتمد على المنهج النقدي لكل ما يتقابنا من أخبار.

فإذا جاء آخر عن طريق السند: فما أيسر الكشف عنه من خلال البحث عن أحوال الرواة ومعرفة صدقهم من كذبهم، وقد وضع علماء الجرح والتعديل الضوابط

(١) انظر ص ٨٠ وما بعدها من كتاب "مصادر السيرة النبوية وتقميها" / فاروق حمادة الطبعة الأولى سنة ١٩٨٠م دار الثقافة اندار البيضاء.

لذلك، وبحث علماء الحديث في سلامة الخبر متناً ورواية، وبينوا الشروط والتواعد المطلوبة في هذا الميدان.

وإذا جاء الخبر عن طريق المؤلف بلا سند عرضناه على أصول الإسلام فما كان موافقاً قبلناه، وما كان مخالفاً رفضناه، وما جاء مخالفاً للإطار الذي أوضحناه فيما سبق عن جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - رفضناه أيضاً، ونحينا جانباً كل الأخبار التي تحط من شأنهم، أو تنزل من قدرهم، ذلك القدر الذي رفته الله عز وجل، ورضي عنهم وذلك واضح كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ومرجع الخلط أو الخطأ في كتب التاريخ عامة، يرجع - من وجهة نظري - إلى ثلاثة أمور:

**الأول:** طول الفترة بين التدوين وبين الوقائع والأحداث، مما يتيح عنه في أغلب الأحيان عزل الأحداث عن الظروف والملابسات التي واكبتها، وسمح للخيال أن يصورها كيف يشاء، بالزيادة أو النقصان، أو يحملها وفق ما يعتقد ويهوى، وقد رأينا أن تدوين التاريخ الإسلامي لم يبدأ إلا في عصر العباسيين، وهذه الفترة الطويلة بين التدوين ووقوع الحوادث في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين، جعلت التدوين يشوبه بعض الخلط في تفسير الأحداث.

**الثاني:** إن الذين قاموا بالتدوين، كان أغلبهم من الموالي - وهم الذين دخلوا في الإسلام من غير العرب - وكان بعضهم يحمل في قلبه الحقد على المسلمين عامة، وعلى حكام الدولة الأموية بصفة خاصة؛ لأن الأمويين أبعدهم عن سياسة الدولة والمشاركة في شئونها حرصاً منهم على عرونة الدولة.

ولذلك بذلوا ما في وسعهم للنيل من الأمويين، وتشويه صورتهم، وتلطيخ سمعتهم، وقدموا لنا عهد الأمويين منذ بدايته على أنه عهد الظلم وسفك الدماء، والانحراف في المال العام وفي السلوك والأخلاق.

الثالث: ما قام به الشيعة من جهود جبارة في تزيف الحقيقة حول الخلافة، ووضعوا من النصوص ما يشتون به أحقية علي بن أبي طالب فيها، واتهموا الخلفاء بأنهم أخذوا ما ليس لهم، وسلبوا علياً حقه الذي نص عليه النبي في "غدير خم"، وهو إعلان ولايته من بعده على المسلمين، وقد تناثرت أقوالهم هذه، فضلاً عن قدحهم في الخلفاء الراشدين، وفي سائر الذين وقفوا في وجوههم، وقاوموا فكرهم على مر التاريخ.

أقول: لقد تناثرت هذه الترهلات في بطون كتب التاريخ، وأحدثت في أذهان الكثيرين خلطاً كبيراً، وتشويهاً لتلك الصورة الجميلة عن المسلمين الأوائل.

- وهذه الأسباب وغيرها، تجعلنا حذرين كل الحذر ونحن نقرأ تاريخنا المجيد، وتجعل في أعناقنا ديثاً كبيراً لتنقيته وتخليصه من تلك الشوائب والأخطاء.

ومن المفيد جداً - في هذا التقليم - أن نعرض قواعد النقد التاريخي كما بينها العلامة ابن خلدون في مقدمته.

### منهم النقد التاريخي عند ابن خلدون<sup>(١)</sup>

لقد عالج المسلمون كتابة التاريخ بمعناه العام أول الأمر عن طريق جمع الروايات دون نقد، مكثفين بأمانة النقل، وذكر السند دون تمحيص للمرويات في ذاتها، وكانت حججهم في ذلك: "من أسند فقد أحالك".

(١) انظر كتاب منهجية البحث العلمي وضاوابطه في الإسلام للمؤلف. طبعة رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة.

وظهر ذلك المنهج واضحاً عند المؤرخين القدامى أمثال: الواقدي محمد بن عمر (١٣٠ هـ) وابن إسحاق (١٥٠ هـ) والأسدي (٢٠٠ هـ) وابن الكلبي (٢٠٤ هـ) والطبري (٢٢٤ هـ) والمسعودي (٣٤٦ هـ) وغيرهم.

حتى جاء القرن الثامن الهجري، وظهر ابن خلدون بمنهجه النقدي للتاريخ، فأحدث بذلك ثورة فكرية لم يسبق إليها في كتابة التاريخ، فلم يكتف بمجرد النقل والرواية، بل اعتمد على النقد والتفسير والتعليل للأحداث، فتجاوز في التاريخ مرحلة الأسلوب الوصفي، الذي يقتصر على ذكر الأحداث ووصفها بمعزل عن كل اعتبار لطبيعة الظواهر الاجتماعية والعمرانية وما يتحكم فيها من قوانين.

أقول: لقد أقام ابن خلدون منهجه التاريخي على الموضوعية والتفسير الباطني للمرويات واستخدم قوانين النقد الداخلي، سابقاً في ذلك علماء المنهج الاستردادي في الغرب بعدة قرون.

ولنفسح له المجال ليبين عن منهجه بنفسه حيث يقول في أول مقدمته مبيئاً فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه: «اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم، وحتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرويه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مأخذ ومعارف متنوعة، وحسن نظر وثبّت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سمياً، ولم يعرضوها على أصرها؛ فاسوها بأشباهها، ولا سيروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات،

وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق، وتاهوا في بقاء الوهم والغلط، ولاسيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر<sup>(١)</sup>.

ثم يكشف ابن خلدون - عند حديثه في طبيعة العمران وما يعرض فيها - عن مزالق الخطر في الروايات التاريخية مبيناً الأسباب والعوائق التي تحول دون الموضوعية فيقول: (ولما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه:

فمنها: التشيعات للأراء والمذاهب، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمهيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نخلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء - على عين بصيرتها - عن الانتقاد والتمهيص، فتقع في قبول الكذب ونقله.

ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً: الثقة بالناقلين وتمهيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح.

ومنها: الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع، وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب.

ومنها: توهم الصدق وهو كثير، وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين.

ومنها: الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبس والتصنع، فينقلها المخبر كما رآها، وهي بالتصنع على غير الحق من نفسه.

ومنها: تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجارة والمراتب بالثناء والمدح، وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، فيستفيض الإخبار بما على غير حقيقة، فالنفوس مولعة

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩، ١٠، طبعة إحياء التراث العربي بيروت لبنان ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

نحب الثناء، والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها.

ومن الأسباب المقتضية له أيضاً - وهي سابقة على جميع ما تقدم - الجهل بطبائع الأحوال في العمران، فإن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته، وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومتضيقاً، أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب، وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض<sup>(١)</sup>.

وهكذا يركز ابن خلدون في منهجه التاريخي على النقد والتمحيص أكثر من الاعتماد على الرواية، صحيح هو لم يبلغ الرواية من الاعتبار، وإنما جعلها في المرتبة الثانية، حيث جعل تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها سابقاً على التمحيص بتعديل الرواة قائلًا: (ولا يرجع إلى الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع، وأما إذا كان مستحيلًا فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح، ولقد عدَّ أهل النظر في المطاعن في الخبر: استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل)<sup>(٢)</sup>.

وقد بين ابن خلدون أن التاريخ ليس من نوع العلوم الشرعية، إذ إن العلوم الشرعية هي من قبيل "الإنشاء"، فهي أوامر، ونواه، وعقائد، وطريقها في التحقيق يعتمد على نقل الرواة والتجريح عنهم، ولذا وضع علماء الحديث علم الجرح والتعديل، وعلم طبقات الرجال وتاريخ الرجال وغيرها من العلوم التي يبني عليها توثيق الشريعة.

أما علم التاريخ فهو من قبيل "الخبر"، والخبر: هو ما يصح فيه التصديق والتكذيب، ويدخل في ذلك مجموع الشهادات وكل أنواع الأخبار على اختلاف أقسامها، وعلى ذلك يرى ابن خلدون أن منهجية الحديث - المقامة على نقد السند عن طريق التعديل

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥، ٣٦.

(٢) المقدمة ص ٣٧.

والتجريح - غير مجدية بمفردها في حصر الحقيقة التاريخية! فما فائدة النظر - مثلاً - في السند عندما يكون الخبر المنقول خرافة سافرة مستحيلة الوقوع عقلاً؟

ولذلك أضاف ابن خلدون إلى التاريخ منهجية أخرى فوق منهجية الحديث، وجعل قوامها (قانون المطابقة) فهو يحتل في منهجيته حجر الزاوية، وقانون المطابقة هذا يستلزم النظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، وما يلحق هذا الاجتماع من الأحوال لذاته وبمقتضى طبيعه، وهكذا حكم ابن خلدون في تمييز الحق من الباطل أصول العادة، قواعد السياسة، وطبيعة العمران، أو ما يسميه أيضاً (بطبائع الكائنات، أو طبائع الموجودات، أو طبائع الأحوال في العمران)، ولا بد في كل ذلك من قياس الغائب منها بالشاهد (والاطلاع على اختلاف الأمم والبقاع والعصور في السير والأخلاق، والعوائد والنحل، والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الرفاق، أو بين ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف) (١)، وهكذا يرى ابن خلدون أنه لا بد للمؤرخ أن يجمع بين علمي الحاضر والماضي، وأن يكون عالماً بسنن التاريخ وطبائع الاجتماع، وقد جره التطبيق لقانون المطابقة إلى الكشف عن القوانين الاجتماعية، وذلك كي يجعل منها بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه (٢).

وينبغي التنبيه هنا إلى أمرين:

(١) الأول: إن فصل ابن خلدون لعمل التاريخ عن العلوم الشرعية التي قام منهجها على النقل ليس معناه التجريح في منهج علم الحديث والعلوم الشرعية، فإن ابن خلدون

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٨ (مرجع سابق).

(٢) ابن خلدون والفكر العربي المعاصر ندوة تونس ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م - مقال د. محمد الطالبي عن منهجية ابن

خلدون التاريخية وتأثيرها في المقدمة وكتاب العبر ص ٢٧ - ٤٠.

---

نفسه يعترف بأن منهجية الحديث التي أساسها التأكد من ثقة الرواة هي في ميدانها صالحة ومفيدة، ولا وسيلة غيرها في هذا المجال، كما إن ابن خلدون لم يبلغ من منهجه التاريخي دور النقل والرواية وإنما جعلها في المرتبة الثانية بعد عرض الأخبار على قرانين النقد التي قعدا لمنهجه مثل قانون المطابقة، وقياس الغائب على الشاهد .. إلخ.

الثاني: إن منهجية علماء الحديث لم تقتصر على النقد الخارجي ولم تحصر عملها في الكشف عن الرواة وصحة السند، وإنما تضمن منهج المحدثين أيضاً ما يسمى بالنقد الباطني أو الداخلي، وهو دراسة المتون وعرضها على السنن الإلهية في الكون والتاريخ واشتراطوا عدم مصادمتها لصحيح المعقول وصریح المنقول من القرآن والسنة... إلى ما بينه عنماء الحديث في عنايتهم بالمتن، وما قاموا به من وضع علامات الوضع في المتن والسند معاً.



## نظرات في تاريخ الخلفاء الراشدين

\* نتركز الأهداف العامة من دراسة هذا الكتاب في:

رابعاً: تنقية تلك الفترة التاريخية مما شابها من خلط كثير أساء لهذا الجيل الفذ من المهاجرين والأنصار.

خامساً: الرد على الافتراءات التي أثيرت حول أبطال تلك الفترة من الخلفاء الراشدين.

سادساً: عرض لنماذج حية لما ينبغي أن يكون عليه الحاكم ابتداء من أسلوب اختياره (الشورى) وأسلوب ممارسته للحكم عملياً ومراقفه من الخصوم.

أولاً: التعرف على حقيقة المجتمع المسلم في هذه الحقبة.

ثانياً: التعرف على حكامه وولاة أموره وجهدهم في خدمة هذا الدين وهذه الدعوة.

ثالثاً: جعل أحداث ووقائع الماضي شواهد حية تحرك الحاضر وتكون نبراساً أمام الجادين في إقامة الدولة الإسلامية.

## الرسم التوضيحي لمحتويات الكتاب

أبو بكر الصديق أول الخلفاء  
الراشدين

الوحدة  
الأولى

عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء  
الراشدين

الثانية

عثمان بن عفان ثالث الخلفاء  
الراشدين

الوحدة  
الثالثة

علي بن أبي طالب رابع الخلفاء  
الراشدين

الوحدة  
الرابعة

# أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين

## الوحدة الأولى

### الأهداف الخاصة

\* تتركز أهداف هذه الوحدة عزيزي الدارس فيما يلي:

أولاً: التعرف على معنى الخلافة والخليفة.

ثانياً: التعرف على شخصية الخليفة الأول لرسول الله (ﷺ).

ثالثاً: إبراز لصفات أبي بكر الصديق العظيمة.

رابعاً: التعرف على الأحداث التي وقعت أثناء مبايعته كخليفة للمسلمين بعد رسول الله (ﷺ).

خامساً: التعرف على إنجازات أبي بكر الصديق في الداخل.

أ- جمع القرآن الكريم.

ب- إقرار المساواة في توزيع الغنمة والفيء.

ج- استخلاف عمر بن الخطاب.

سادساً: التعرف على فتوحاته (ﷺ).

أ- فتوحاته في العراق.

ب- فتوحاته في الشام.

سابعاً: إبراز جهاده ضد المرتدين للحفاظ على الدين.

ثامناً: التعرف على دستور حكمه للمسلمين.

## الرسم التوضيحي للوحدة الأولى

### الوحدة الأولى

وفاته ووصيه	أهم أعماله: في الداخل:	فتوحاته في العراق والشام:	جوانب العظمة في شخصيته:	ترجمة أبي بكر ويعتبه بالخلافة	التمهيد:
-وصية أبي بكر قبل وفاته. -يوم الوفاة.	-فرض نفقة من بيت المال لولي الأمر. -المساواة في توزيع الشيء والغنيمة على المسلمين. -جمع القرآن الكريم.	-أمر هامة يجب التنبيه عليها.	-ثباته عند الاضطراب ورشده.	- اسمه ولقبه وصفاته.	- مشهور اخنيفة.
		-الفتوحات في العراق.	-رحمته ورقة قلبه.	- بيعة أبي بكر بالخلافة.	- مشهور الخلافة.
	-استخلاف عمر بن الخطاب.	-الفتوحات في الشام.	-حزمه الشديد في الحق وصرامته.		

## تمهيد

أولاً: معنى الخليفة والخلافة.  
ثانياً: أنواع الحكم.  
ثالثاً: ضرورة إقامة الخلافة الإسلامية.

### أولاً: معنى الخليفة والخلافة:

إن خير ما نرجع إليه - لتأصيل وتصحيح المفاهيم والمصطلحات السائدة في حياتنا- هو القرآن الكريم.

وإذا ما نظرنا في مدلولات لفظ "الخلافة" كما جاء في القرآن الكريم فسنجد أنهما جاءا من مادة الكلمة (خ ل ف).

يقال: خلف فلان فلاناً يخلفه: جاء بعده.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ﴾

[مريم: ٦٦].

\* والحلف: القرن بعد القرن، والمعنى: جاء قرن ضل وغوى بعد قرن كان مستمسكاً بالهدى.

ويقال: خلف فلان فلاناً: قام بالأمر بعده.

ومنه قوله تعالى ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

والمعنى أن موسى طلب من هارون أن يقوم بأمر القوم بعده، فيحرس لهم دينهم ويسوس لهم دنياهم وفقه ما جاء في الشرع.

٤ \* والخليفة: من يخلف غيره ويقوم مقامه، ويجمع على خلفاء وخلفاء.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾  
[البقرة: ٢٠]

فُسِّرَتْ بأنه ينوب عن الله تعالى في إجراء أحكامه، وتنفيذ إرادته في عمارة الكون وسياسته، بمعنى أن الله أعطاه المنهج ومنحه وسائل التمكين في الأرض حتى يقوم بالأمرين معاً حراسة الدين، وسياسة الدنيا وعمارها.

ومنه قوله تعالى أيضاً: ﴿يَا ذَرُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

أي نائباً عن الله تعالى في إجراء أحكامه، وتنفيذ إرادته في عمارة الكون وسياسته، وفق مبادئ العدل والشرع.

○ ويقال: استخلفهم الله في الأرض: جعلهم خلفاء متصرفين فيها بأمره، وأعطاهم المكنة على ذلك.

أو جعلهم خلفاء من الذين لم يكونوا على حالهم فهم مستخلفون، أي أنهم جاءوا بعد قوم فسدوا وضلوا، بينما هم جاءوا على صلاح وهدى، فكانوا خلفاء عن الذين ليسوا على حاشم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]<sup>(١)</sup>

\* وخلاصة ما نتوصل إليه في مفهوم الخليفة من خلال دلالات اللفظ في القرآن

الكريم هو:

(١) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم مادة خلف جـ ١ ص ٣٦٤ الطبعة الثانية ١٩٧٠م الهيئة العامة للتأليف والنشر.

- أن الخليفة: من ينوب عن غيره ويقوم بالأمر مقامه، وإذا كانت مهمة الأنبياء والرسل، هي حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أمور آخرتهم ودنياهم، فإن من يقوم بهذه المهمة بعد النبي ويخلفه فيها يسمى خليفة.

- وتكون الخلافة - كما عرفها ابن خلدون في مقدمته - هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة<sup>(١)</sup>.

فمن قام بهذه المهمة يعتبر نائباً عن صاحب الشريعة، وخليفة عنه في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، ويسمى (خليفة، أو إماماً، أو أميراً).

- أما تسميته "خليفة" فلكونه يخلف النبي في أمته ويسوسهم على شريعته ويقال عنه خليفة رسول الله - كما أطلق ذلك على أبي بكر، وخليفة بإطلاق، أو خليفة المسلمين.

- وأما تسميته "إماماً" فتشبيهاً بإمام الصلاة في وجوب اتباعه والافتدائه به.

ولهذا يقال الإمامة الكبرى - وقد أطلق هذا اللقب على علي بن أبي طالب - فكان يقال: الإمام علي.

ومن الثابت تاريخياً أن من بين الأمور التي رجحت كفة أبي بكر للخلافة، أن النبي ﷺ استخلفه في مرضه؛ ليصلي بالناس مكانه، فهتف عمر في السقيفة قائلاً: "رضيه الرسول لديننا أفلا نرضاه لديننا".

- وأما تسميته "أميراً"، فلكون هذا اللفظ معروفاً عند المسلمين بمعنى قائد وزعيم وكانوا يطلقونه على قائد الجيش، فيقولون "أمير الجيش".

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٩١ دار القلم بيروت الطبعة الخامسة ١٩٨٤م.

ومنه قوله ﷺ «لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمروا عليهم أحدهم»  
(رواه أحمد في المسند).

ومنه قول عمر بن الخطاب ﷺ : لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا  
إمارة إلا بطاعة.

وقد أطلق لفظ الأمير على عمر بن الخطاب بعد أن ثقل النداء يا خليفة خليفة  
رسول الله، فلما دعاه بعض الناس يا أمير المؤمنين استحسنة الناس واستصوبوه ودعوه به،  
وقالوا إنه أمير المؤمنين حقاً، فذهب لقباً في الناس للخليفة الذي ورث النبي ﷺ في حراسة  
الدين وسياسة الدنيا به، وتوارثه الخلفاء من بعد عمر، وأصبح سمة تميزهم عما سواهم.

— وعلى كل فلا مشاحة في الإطلاق، فما دام قد ناب عن النبي وقام بمهمته في  
حراسة الدين وسياسة الدنيا به فنسميه خليفة أو أميراً أو إماماً.

## ثانياً: أنواع الحكم:

قسم ابن خلدون الحكم إلى ثلاثة أنواع<sup>(١)</sup>:

\* النوع الأول: الحكم الإسلامي: وهو ما أشرنا إليه سابقاً في تعريفه للخلافة

وهو أن يقوم إنسان بحمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية  
والدنيوية الراجعة إليها، سواء سميناها خلافة، أو إمارة، أو إمامة.

\* النوع الثاني: الحكم الطبيعي: وهو أن يقوم إنسان بحمل الكافة بمقتضى القهر

والغلبة على مقتضى الغرض والشهوة.

وهذا النوع يقوم على الاستبداد والتسلط، ويحرص فيه الحاكم على تكميم الأفرأه،

حجب العقول، ويتحول المجتمع إلى أداة لتنفيذ مطامعه وشهواته، ولك أن نسميه نكماً

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ص ١٩٠.

طبيعياً كما سماه ابن خلدون، أو حكماً استبدادياً، أو حكماً دكتاتورياً، المهم أنه مهما اختلفت مسمياته، فلن تغير من طبيعته، إذ هو حكم الفرد بنفسه ولتفسيه دون اعتبار للآخرين في أي شيء وهو مذموم؛ لأنه جور وعدوان.

• النوع الثالث: الحكم السياسي: وهو حمل الكافة على النظر العقلي في مصالحهم الدنيوية، وجلب ما ينفع، ودفع ما يضر.

وهذا النوع من الحكم يقوم على رعاية شئون الدنيا فقط، وهو مذموم - كما بين ابن خلدون - لأنه نظر بغير نور الله، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور؛ ولأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من آخرتهم، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم، كما قال ﷺ فيما يرويه عن رب العزة والجلال «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: ضرورة إقامة الخلافة الإسلامية:

• ثمولية الإسلام:

ليس الإسلام أمراً اعتقادياً فقط، وليس علاقة للعبد بربه فقط، ولكنه دين انتظمت به أمور الدين والدنيا معاً، وأمور الدنيا هي جزء من أمور الدين التي شرعها الله عز وجل، فليس المسلم حراً في تنظيم حياته كيفما اتفق، فليس له أن يتزوج محرماً، وليس له أن يجمع تحت عصمته أكثر من أربع زوجات في وقت واحد، وليس له أن يأكل ميتة من غير ضرورة، وليس له أن يوزع الميراث على حسب ما يهوى، وليس له أن يبدد ماله كما يحلو له، وفي كلمة موجزة ليس المسلم حراً في تنظيم أمور دنياه كيفما اتفق، ولكنه متبند في ذلك بما شرعه الله من قوانين وأنظمة.

(١) صحيح مسلم كتاب البر باب تحريم الظلم من رواية أبي ذر الغفاري.

## \* ضرورة وجود هيئة تنفيذية:

وهذه الأنظمة التي شرعها الله تحتاج إلى هيئة تشرف على تنفيذها، وترعى تطبيقها في حياة الناس، وتضرب على أيدي العابثين بها، وقد كان النبي ﷺ أول من أدى هذه المهمة، مهنة تعريف المسلمين أمور دينهم وأمور دنياهم، ومهمة الإشراف على تنفيذ هذه التعاليم - ومن بعده قام الخلفاء الراشدون بأدائها وكان معهم من يساعدهم في تحمل هذا العبء - ومن الخليفة ومساعديه تكونت الحكومة الإسلامية، وتلخصت مهمة هذه الحكومة في أمرين:

١- حراسة الدين والعمل على تعليمه وتبليغه للعالمين.

٢- سياسة الدنيا به والعمل على تطبيق أحكامه في حياة الناس والزامهم بذلك.

وقد ذكر بعض الباحثين<sup>(١)</sup> أن المهمة الأولى تمثل الجانب النظري أو الثقافي في التفكير الإسلامي، وأن المهمة الثانية تمثل جانب التطبيق، أو جانب السلطان في التفكير الإسلامي، وهما لا يفترقان.

ومن هنا نرى اهتمام الإسلام بالحكم، وأنه في أصل تعاليمه يطلب من المسلمين إقامة دولة على أساسه، أو بمعنى آخر: فإن إقامة الحكومة التي ترعى أمور الدين والدنيا معاً أمر ضروري في الإسلام، وواجب شرعي افترضه الدين، وليس الأمر متروكاً على الخيار للناس، لهم أن يقيموا الخلافة الإسلامية أم لا، فإقامة الخلافة الإسلامية جزء من هذا الدين، وجانب السياسة والحكم جزء لا ينفصل عن هذا الدين، وليس كما يقول البعض: "لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة"، ومسألة ضرورة إقامة الخلافة الإسلامية حقيقة في هذا الدين لا مجال للشك فيها، وقد أجمعت عليها سائر الأمة، وجاءت بها النصوص الصريحة والأصيلة من القرآن والسنة.

(١) د. أحمد شلبي في السياسة والاقتصاد ص ٢٨ مكتبة تحفة مصر ١٩٧٤م.

## \* أقوال بعض الفقهاء حول ضرورة الخلافة:

- يقول الشيخ محمد رشيد رضا: "أجمع سلف الأمة وأهل السنة وجمهور الطوائف الأخرى، على أن نصب الإمام واجب على المسلمين شرعاً لا عقلاً فقط"<sup>(١)</sup>.
- ويقول العلامة ابن خلدون: "إن نصب الإمام واجب، قد عُرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين؛ لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وإلى تسليم النظر في أمورهم إليه، وكذا في كل عصر من بعد ذلك، ولم يترك الناس فوضى في عصر من العصور، واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام"<sup>(٢)</sup>.

## \* شواهد القرآن والسنة على ضرورة الخلافة:

وفي الحقيقة ما أكثر الشواهد والأدلة الموجبة لذلك، ونحن إذا تتبعنا دلالات النصوص من القرآن والسنة، وبخشنا عن مدى استلزامها لإقامة الدولة والحكومة الإسلامية، لوجدناها دالة على ذلك بكل تأكيد، ويتضح ذلك فيما يأتي:

(أولاً: يتضمن القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، أحكاماً لا يتصور تنفيذها دون وجود حكومة ودولة تأخذ بما وتعمل على تنفيذها، ومن ذلك:

- ١- أحكام الحدود كقتل القاتل، وقطع يد السارق، وغير ذلك مما يرتكبه مَنْ يخلون بأمن الدولة والمجتمع، وهذه العقوبات الزاجرة لا يمكن أن تترك للأفراد، وإلا صارت الأمور فوضى، بل لا بد في تطبيقها من وجود دولة تقضى في ذلك وتحكم وتنفذ.
- ٢- وكذلك الأحكام المالية، وما يتعلق بالمال تملكاً واستثماراً وتوزيعاً فلا يمكن أن تترك للأفراد، وإلا حصل التنافس والتقاتل، وشرح الناس بمقوق الآخرين في توزيع الميراث

(١) كتاب الخلافة ص ١٠.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٦١ دار القلم بيروت الطبعة الخامسة ١٩٨٤م.

وتوزيع الزكاة وغير ذلك، فلا بد إذن من سلطة تجبرهم على الالتزام بما وضعه الله من أنظمة في هذا الجانب تحفظ على الناس حقوقهم.

٣- كما يتضمن الإسلام الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله؛ لنشر دين الله وحمايته من الأعداء والدفاع عن الوطن والكيان، ولا بد لهذا النظام من حكومة تتولى شؤون الجهاد، فتتدر بالجهاد، وتتولى تقسيم الغنائم، وفداء الأسرى، وعقد المعاهدات، وغير ذلك مما يتعلق بالجهاد، وما يترتب عليه من أمور.

ثانيًا: جاءت نصوص كثيرة من القرآن والسنة تبين واجبات الحاكم نحو الرعية، وواجبات الرعية نحو الحاكم، من ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] وجمهور أهل التأويل على أنها في ولاة الأمر وهم الحكام.

٢- وقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. والآية ملزمة للرعية بما وجب عليها نحو الله ورسوله وأولي الأمر - وهم الحكام - من الطاعة لهم.

٣- وجاء عنه ﷺ فما رواه الإمام أحمد في مسنده «لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمروا عليهم أحدهم». وما رواه أبو داود في سننه «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم أحدهم»، وما أكثر النصوص التي جاءت عن النبي ﷺ تلزم الأمة بتتصيب الإمام عليها؛ لتجتمع الكلمة وتحصل المصلحة والمنفعة، وما أحسن ما قاله ابن تيمية - رحمه الله - في تعليقه على حديث التأمير في السفر إذ يقول: (إِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْجِبَ تَأْمِيرَ الْوَاحِدِ فِي الْاجْتِمَاعِ الْقَلِيلِ الْعَارِضِ فِي السَّفَرِ، تَنْبِيْهًُا بِذَلِكَ عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ

الاجتماع<sup>(١)</sup>؛ يعني ابن تيمية: أنه إذا لزم في القليل الطارئ، فمن باب أولى، يكون ألزم في الكثير الدائم.

وجاء عنه عليه السلام ما يلزم الأمة بواجبها من السمع والطاعة للإمام، فقال عليه السلام: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»<sup>(٢)</sup>.

وجاء عنه عليه السلام فيما يلزم الإمام بالعدل بين الرعية وحسن السياسة فيهم «الأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته»<sup>(٣)</sup>.

وقوله: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر»<sup>(٤)</sup>.

وقال عمر بن الخطاب "لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة".

ثالثاً: فعل النبي عليه السلام في حياته:

فقد قام عليه السلام بمهام الداعي ومهام الحاكم فكان بالإضافة إلى صفة النبوة والرسالة إمام المسلمين في عهده، وأميرهم ورئيس دولتهم، يولي الولاة، ويعين القضاة، ويعقد الألوية، ويرسل الجيوش، ويجمع الزكاة والغنائم ويقسمها في مصارفها، ويقيم الحدود، ويعقد العهود، ويرسل الرسل إلى الأمراء والملوك، ويستقبل الوفود، إلى غير ذلك من الأعمال المتعلقة بتنظيم الدولة، وكلها أعمال من صميم الحكم والسلطة، ولو كان الإسلام بمعزل عن الحكم لما فعل ذلك النبي عليه السلام.

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص ١٧٢.

(٢) أخرجه ابن ماجة في كتاب الجهاد باب طاعة الإمام حديث رقم ٢٨٦٠.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب فضيلة الأمير العادل.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الأحكام باب ما جاء في الإمام العادل حديث رقم ١٣٢٤.

#### رابعاً: فغل أصحابه من بعده:

فقد أسرع كبار الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ إلى اختيار خليفة عن النبي ﷺ في رعاية شؤون الأمة، وسياسة الدولة، ولا يجهل أحد أن الأمر قد أبرم في سقيفة بني ساعدة، وتم ترشيح أبي بكر ﷺ ومبايعته في السقيفة، ولم يكن قد تم دفن رسول الله ﷺ بعد؛ فإذا لم يكن هذا الأمر من الأهمية بمكان، لتباطئوا في إنفاذه، فكأنهم يسرعون في تنفيذه إلى درجة تقديمه على دفن جثمان النبي ﷺ دليل على ضرورته، وأنه جزء من الإسلام لا يقوم الإسلام إلا به.

#### \* الرد على محاولات فصل الدين عن الحكم:

ومن هنا، تكون المحاولات التي يقوم بها البعض من أجل فصل الدين عن الحكم، أو ادعاء أن الحكم ليس من الإسلام، أو أن الإسلام دين فقط، أو أن النظم السياسية للمجتمع الإسلامي يجب أن تستمد من فكر الناس وتجاربهم لا من التشريع الإسلامي، نقول: إن هذه الادعاءات وتلك المحاولات العابثة لإبعاد الدين عن الدولة ما هي إلا هراء، يقول بما كل من ليس عنده فقه بالإسلام وتعاليمه، أو يقول بما من يخدم أعداء الإسلام، ويروج لفكرهم، أو يقولها من يبرر التسلط والجور من الحكام على الرعية، أو يقولها من يريد التحرر من قيود الدين والشريعة، كما فعل كمال أتاتورك قديماً، حينما فصل تركيا عن الأمة الإسلامية، وطبق فيها سياسة العلمانية، وهي فصل الدين عن الدولة.

وعلى هذا يجب أن نفهم أن تلك المحاولات التي قام بها بعض المفكرين في الإسلام، أمثال الأستاذ علي عبد الرازق في كتابه: "الإسلام وأصول الحكم"، وأمثال غيره من تلامذة المبشرين والمستشرقين، ومقولاتهم بأن الإسلام دين فقط، وأنه لا شأن له بالتنظيمات السياسية وأمر الحكم، نقول: إن أقوالهم هذه ما هي إلا إغراق في الجهل والغباء، أو هي ضلع في المؤامرة التي يقوم بها أعداء الإسلام؛ لتحطيمه والحيلولة دون يقظة شعوبه الجادفة لإعادة بنائه.

ولها أقوال تفندنا تلك الكثرة من النصوص التي سقناها عن ضرورة إقامة الحكومة الإسلامية، فضلاً عن التطبيق الفعلي لها في حياة الرسول ﷺ و خلفائه الراشدين من بعده.

## ترجمة أبي بكر الصديق

أولاً: اسمه ولقبه وصفاته.  
ثانياً: بيعة أبي بكر بالخلافة:  
- كثرة الكلام والخلط. - بيعة أبي بكر بالإجماع.  
- معنى البيعة وواجبات الخليفة. - سياسة أبي بكر.

### أولاً اسمه ولقبه وصفاته:

\* اسمه:

هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن لؤى بن غالب بن فهر، التيمي، القرشي، يلتقي في نسبه مع رسول الله ﷺ في مرة، فاسمه عبد الله، وكنيته أبو بكر، ولقبه: الصديق، والعتيق؛ وأمه: أم الخير سلمى بنت صخر بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة.

\* لقبه:

#### ١- لقب بالصديق:

لتصديقه النبي في كل ما جاء به، وملازمته الصديق طول حياته، وأول ما اشتهر بهذا اللقب صبيحة الإسراء، فقد أخرج الحاكم في المستدرک عن عائشة رضي الله عنها قالت: "جاء المشركون إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، فقال: لقد صدق، إني لأصدقه بأبعد من ذلك، بخر السماء غدوة وروحة" فلذلك سمي الصديق.

١ - وقيل: كان يلقب به في الجاهلية لما عرف به من الصدق، ولكنه لم يشتهر به إلا في الإسلام.

وقيل: سماه به جبريل عليه السلام، وسماه به النبي ﷺ لما أخرجه الحاكم في المستدرک بإسناد جيد عن التزالي بن سيرة قال: قلنا لعلي: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن أبي بكر، قال: ذاك امرؤ سماه الله الصديق على لسان جبريل، وعلى لسان محمد ﷺ، كان خليفة رسول الله على الصلاة، رضي لدينا، فرضينا له لدينا<sup>(١)</sup>.

## ٢ - ولقب بالعتيق:

لكثر عتقه العبيد من الرق، فبشره النبي ﷺ بعتق رقبته من النار، أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة رضي الله عنها: أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فقال: يا أبا بكر، أنت عتيق الله من النار، فيومئذ سمي عتيقاً<sup>(٢)</sup>.

وقيل لقب بذلك: لعنافة وجهه - أي جماله -، وقيل لعنافة نسبه - أي طهارته -، وقد اجتمع له كل ذلك فاستحقه عن جدارة.

## \* صفاته الشخصية:

### \* ولادته:

بعد مولد النبي ﷺ بستين وأشهر، وكان منشؤه بمكة لا يخرج منها إلا لتجارة، وكان من رؤساء قريش في الجاهلية وأهل مشورتهم، وكان إليه أمر الديار والمغارم، وإذا حمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه، وأمضوا جماله من نخص معه، وإن احتملها غيره نحذروه.

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٠ الطبعة المحققة بقلم الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب باب ١٧ رقم ٣٦٧٩ تحقيق أحمد شاکر طبعة دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٨٧م وقال الترمذي عنه (هذا حديث غريب).

## \* وكان نسيباً قريشاً:

فقد كان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان ذا خلقٍ ومعروف، يألفه الناس لعلمه وحسن مجالسته. وكان حدثاً للنبي ﷺ، وصفيّاً له قبل البعثة، وكان نديماً له في الجاهلية، يسرُّ إليه بما يراه.

## \* كانت له فطرة نقية في الجاهلية:

أ- فلم يشرب خمرًا قط، لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وذلك أنه - مرّ وهو في الجاهلية - برجل سكران يضع يده في العذرة يدينها من فيه، فإذا وجد ريحها صدف عنها، فحرمها أبو بكر على نفسه.

ب- ولم يسجد لصنم قط، قال ﷺ في مجمع من أصحاب النبي: ما سجدت لصنم قط، وذلك أني لما تاهرت الحلم، أخذ أبو قحافة بيدي، فانطلق بي إلى مخدع فيه الأصنام، فقال لي: هذه آهتك الشُّم العوالي، وخلاقي وذهب، فدنوت من الصنم وقلت: إني جائع فأطعمني فلم يجبني، فقلت: إني عار فاكسني فلم يجبني، فألقيت عليه صخرة فخر لوجهه<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من شهرة أبي بكر في الجاهلية، إلا أنه لم يحظ بالمكانة السامية إلا بعد الإسلام، فقد كان لدخوله في الإسلام وسبقه فيه، الشرف العظيم، حيث رفع بذلك عن سواه، وأصبح الشخص الأول بعد رسول الله ﷺ.

## \* كان رضي الله عنه كريماً سخياً:

وقد أنفق جُلّ ماله في سبيل الله ورسوله، ما بين شراء للعبيد وعتقهم، وما بين الإنفاق على الجيوش وإعدادها، وما بين الإنفاق على الفقراء وأصحاب الحاجات، فضلاً

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٢.

عن بره برسول الله ﷺ فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ "ما نفعني مال قط، ما نفعني مال أبي بكر" فبكى أبو بكر، وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟

وقد كان تاجراً ذا مال وفير بلغ يوم أسلم أربعين ألف دينار، أنفقها كلها في سبيل الله، ولم يبق منها يوم الهجرة سوى خمسة آلاف.

### \* كان ﷺ أشجع الناس:

يثبت في المعارك كالجبال الرواسي، لا يجيد خطوة عن رسول الله يدافع عنه ويذود، وقد رأينا موقفه في غزوة بدر، حينما رضي أن يكون هو حارس رسول الله في العريش خلف الجيش، ورأيناه يوم أحد، يوم انصرف الناس كلهم عن رسول الله إلا أبا بكر، فقد كان أول من فاء إلى رسول الله يدافع عنه، هذا فضلاً عن مواقفه العظيمة في أول الإسلام وحمائه لرسول الله من أذى المشركين.

فقد أخرج البخاري عن عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن عمرو بن العاص، عن أشد ما صنع المشركون برسول الله، فقال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي وهو يصلي، فوضع رداءً في عنقه، فخنقه به خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه، وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟

### \* كان ﷺ أول الرجال إسلاماً:

فقد كان أبو بكر ﷺ أسرعهم تصديقاً بنبوة النبي ﷺ، لما كان يعلمه من خلق النبي ﷺ وصدقه وأمانته، ولما كان يسمعه من أهل الكتاب عن نبي اقرب ظهوره من أوسط العرب نسباً وحسباً، فلما عرض عليه النبي الإسلام قبله بلا تردد وبإيع النبي ﷺ على الفور. وأخرج أبو نعيم وابن عساکر عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كلمت في الإسلام أحداً إلا أبي عليّ وراجعتي الكلام، إلا ابن أبي قحافة، فإني لم أكلّمه في شيء إلا قبله واستقام عليه»<sup>(١)</sup>.

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٥.

وصحب أبو بكر رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم من حين أسلم إلى حين توفي صلى الله عليه وسلم، لم يفارقه سفراً ولا حضراً، إلا فيما أذن له صلى الله عليه وسلم في الخروج فيه من حج وغزو، وشهد معه المشاهد كلها، هاجر معه وترك عياله وأولاده ورغبة في الله ورسوله، وهو رفيقه في الغار، قال تعالى: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقام بنصرة الرسول في غير موضع وآزره طيلة دعوته، وحاد له بماله، فكان صلى الله عليه وسلم يقضي في مال أبي بكر كما يقضي في مال نفسه، وكان محل مشورته وموضع سره في الجاهلية والإسلام، وتوفي الرسول وهو عنه راض<sup>(١)</sup>.

### \* وكان أفقه الصحابة وأعلمهم بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقد أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إن الله تبارك وتعالى خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله تعالى، فبكى أبو بكر وقال: نفذيك بأبائنا وأمهاتنا، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خير، فكان رسول الله هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين باب إلا سد إلا باب أبي بكر -<sup>(٢)</sup> أي في مسجد النبي.

ولما كان صلح الحديبية لم يفهم بعض الصحابة وجه الحكمة فيه، وراجعوا النبي صلى الله عليه وسلم فيه، وكان منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال للنبي: يا رسول الله أأنت نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قال عمر: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى، قال عمر: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ فقال النبي: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرني، قال عمر: وأأنت كنت

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي، باب قول النبي سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر.

تحدث أننا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال النبي: أو أخبرتك أننا نأتيه هذا العام؟ قال عمر: لا، قال النبي: فإنك آتية ومطوف به.

فترك عمر النبي ﷺ وأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قال عمر: ألسنا على الحق وعنونا على الباطل؟ قال: بلى، قال فلم نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر لعمر: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصيه وهو ناصره فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على حق، قال عمر: أو ليس يحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: فأخبرك أنك تأتيه هذا العام؟ قال عمر: لا، قال: فإنه آتية ومطوف به، فكانت إجابة أبي بكر تشبه إجابة النبي، مما يدل على علمه وفقهه بكلام رسول الله وأفعاله الشريفة.

وكان أقرأ الصحابة لكتاب الله تعالى؛ لأنه ﷺ قدّمه إماماً للصلاة بالصحابة ﷺ، مع قوله: "يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرَأَهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ"، وأخرج الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره»<sup>(١)</sup>، وذكر السيوطي أنه كان يحفظ القرآن كله.

### \* كان أفضل الصحابة وخيرهم بالإجماع:

يقول السيوطي: أجمع أهل السنة على أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم سائر العشرة، ثم باقي أهل بدر، ثم باقي أهل أحد، ثم باقي البيعة - أي بيعة الرضوان تحت الشجرة في يوم الحديبية - ثم باقي الصحابة، هكذا حكى الإجماع عليه أبو منصور البغدادي<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب باب مناقب أبي بكر رقم ٣٦٧٣ وقال عنه هذا حديث غريب.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٤.

وقد ذكر السيوطي - رحمه الله - في تاريخه فضائل حجة لأبي بكر رضي الله عنه، وعقد لها فصلاً بين فيها مزيتها وفضيلته، فبين الآيات التي نزلت في مدحه أو تصديقه أو أمر من شأنه، وبين الأحاديث التي وردت في فضله وحده، وفي فضله مع عمر وغيره، وساق الكثير من أقوال الصحابة والسلف الصالح في فضله، وسرد جملة الأحاديث التي رواها الصديق عن رسول الله، فكانت مائة حديث واثنين وأربعين حديثاً.

وبين النووي في تهذيبه: سبب قلة روايته - مع قدم صحبته وملازمته للنبي - أنه تقدمت وفاته قبل انتشار الأحاديث واعتناء التابعين بسماعها وتحصيلها وحفظها، فوق أنه كان مشغولاً بحروب الردة والفتوحات في العراق والشام فترة خلافته. يقول السيوطي: وإلا فلو طالمت مدته لكثر ذلك عنه جداً، ولم يترك الناقلون عنه حديثاً إلا نقلوه، ولكن كان الذين في زمنه من الصحابة لا يحتاج أحد منهم أن ينقل عنه لأنه قد شاركه هو في روايته، فكانوا ينقلون عنه ما ليس عندهم<sup>(١)</sup>.

### \* أما عن صفته وخصيته رضي الله عنه:

فقد وصفته عائشة رضي الله عنها فقالت: كان أبيض، نحيفاً، أجنأً (أي في ظهره انحناء)، لا يستمسك إزاره يسترخي عن حقويه، معروق الوجه (أي لحم وجهه قليل)، غائر العينين، ناتئ الجبهة، عاري الأشاجع (أي أصول الأصابع)<sup>(٢)</sup>.

### \* أما عن أزواجه وأولاده:

فقد تزوج رضي الله عنه في الجاهلية امرأتين وهما: قتيلة بنت عبد العزى وأولادها عبد الله وأسماء، وتزوج أم رومان بنت عامر الكنانية وأنجبت له عبد الرحمن وعائشة التي شرفت وشرف أبوها بتزويجها من النبي صلى الله عليه وسلم، وتزوج في الإسلام امرأتين وهما: حبيبة بنت خارجة

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٢.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٢.

الأنصارية: أولهما أم كلثوم بعد وفاته، وتزوج أسماء بنت عميس، وولدت له محمداً في السنة العاشرة من الهجرة<sup>(١)</sup>.

وتغلى ذلك فمجموع نسائه أربع، ومجموع أولاده ستة.

## ثانياً: بيعة أبي بكر بالخلافة:

### \* كثرة الكلام والخلط:

لقد كثر الكلام حول بيعة أبي بكر الصديق بالخلافة، وجاءت روايات حول هذا الموضوع فيها خلط كبير، وفيها تشويه لبعض الصحابة الفضلاء، وتنوعت الآراء على حسب النزعات السياسية والأهواء الشخصية من الشيعة وغيرهم.

ومن المعلوم: أن النبي ﷺ قد قبض ولم يثبت عنه أنه أوصى لأحد من بعده بالخلافة. لا لأبي بكر، ولا لعلي ولا لأحد آخر، وإنما ترك المسلمين لإيمانهم، ولما رباهم عليه من الوحدة والأخوة وعدم الاختلاف، ولو كان النبي ترك نصاً بالخلافة لأحد، لسارع جميع الصحابة إلى بيعته.

ولما كان ما حديث من أمر السقيفة وتطلع الأنصار إليها، ولو كان النبي ﷺ قد أوصى بما لعلي لكان أبو برك أسرع الناس إلى بيعته.

ونحن نعرف المبادئ القرآنية التي تربي عليها هذا الجيل الفذ من الصحابة ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَالاً مُّبِيناً ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وما ورد بأن النبي ﷺ قد أراد أن يكتب لأصحابه كتاباً لا يصلوا بعده، أو أنه أراد أن يكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف الناس معه عليه، فإنه ﷺ مات ولم يفعل ذلك ولا يوجد في السنة نص صحيح صريح بأنه ﷺ أوصى بالخلافة من بعده لأحد.

(١) التريخ الإسلامى ص ٢٩ - ٤٧ محمود شاكر "مرجع سابق".

وما جاء من رواية الشيخين عن سعد بن أبي وقاص "أن رسول الله ﷺ خلف علي بن أبي طالب في غزوة تبوك، فقال يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان، فقال: «أما ترضى أن تكون مني بمرتلة هازون من موسى غير أنه لا نبي بعدي».

فهذه الرواية الصحيحة لا تحمل نصاً بالخلافة لعلي، وإنما غاية ما فيها هي الموالة في القربى وأنه متصل به، نازل منه مرتلة هارون من موسى، بل ذكر ابن حجر في فتح الباري: بأن من استدلل بالحديث على استحقاق علي للخلافة دون غيره من الصحابة؛ لأن هارون كان خليفة موسى، يُحجَب عنه: بأن هارون لم يكن خليفة موسى إلا في حياته لا بعد مرتته؛ لأنه مات قبل موسى باتفاق<sup>(١)</sup>.

وما جاء من رواية عرفت بحديث "غدیر خم" وفيها أن النبي ﷺ حينما وصل غدیر خم وهو عائد من حجة الوداع، جمع الناس في هذا المكان، ثم أخذ بيد علي فأقامه إلى جانبه، وقال أيها الناس اعلموا أن علياً مني بمرتلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وهو وليكم بعدي، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، ومن كنت وليه فعلي وليه وأمره، ثم رفع الرسول يديه حتى رأى بياض إبطيه وقال: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار.

نقول إن هذه الرواية، أو تلك الحادثة لا وجود لها في غير المصادر الشيعية، وهي من وضع الشيعة وتلفيقاتها، وقد أنكرها علماء السنة، ولو حصلت هذه الحادثة على هذا الوضع، لكانت حديث الناس جميعاً، حيث إن الجمع جمع حجج والعدد وفير، ولكن علي احتج بما على بيعة أبي بكر، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث<sup>(٢)</sup>.

وخلاصة الكلام في هذه المسألة: أن النبي ﷺ لم ينص بالخلافة لأحد من بعده، وإنما ترك الأمر شورى بين المسلمين، وما جاء غير ذلك من أخبار رروايات لا يلتفت إليها في ذلك<sup>(٣)</sup>.

(١) فتح الباري ج ١٤ ص ٢١٩ كتاب فضائل الصحابة باب مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) السياسة والاقتصاد د/ أحمد شلبي ص ٦٩ نقلًا عن دعائم الإسلام ١٣ ب.

(٣) السنة ومكانتها في التشريع د/ مصطفى السباعي ص ١٠١ طبعة المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م.

## \* بيعة أبي بكر كانت بالإجماع:

وقد تمت البيعة لأبي بكر بإجماع، وكانت عن رضا واختيار، ولم يختلف عليه المهاجرون ولا الأنصار، وأما ما كان من حديث السقيفة يوم وفاة الرسول ﷺ، فكان لحرص الأنصار على تولية من يذود عن المسلمين - خاصة - وأن المدينة بعد وفاة النبي ستصبح هدفاً للأعراب؛ فهناك قبائل أسلمت عن خوف من قوة النبي والمسلمين، وليس عن إيمان صحيح، بدليل أن بوادر الردة ظهرت في حياة الرسول ﷺ، ورأى الأنصار تولية سعد بن عبادة الخزرجي زعيم الخزرج، خليفة على المسلمين بعد رسول الله ﷺ.

وما أن علم أبو بكر وعمر بذلك، حتى توجهوا إلى السقيفة وقابلا أبا عبيدة في الطريق، فأخذهما معهما، ودارت المناقشات بين المهاجرين والأنصار، فمَنْ يستحق الخلافة منهما، حتى حسم أبو بكر المسألة بقوله: يا معشر الأنصار، فإنكم لا تذكرون منكم فضلاً إلا وأنتم له أهل، وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، وهم أوسط العرب داراً ونسباً، ولكن قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم؛ وأخذ بيدي عمر وأبي عبيدة، فقال عمر: والله ما كنت أتقدم عليك، فقال أبو بكر إن فيك قوة، قال عمر: إن قوتي لك مع فضلك.

ثم قال عمر: يا معشر الناس أيكم تطيب نفسه أن يخلف قدمين قدمهما رسول الله، رضيه رسول الله لديننا أفلا نرضاه لديننا، بسط يدك يا أبا بكر أبايعك، فبايعه عمر، وبايعه أبو عبيدة، ثم توافد الأنصار على بيعة أبي بكر، وتمت له بذلك البيعة الخاصة، من قبل هذا الجمع الذي تواجد في السقيفة، وهم الذين يمكن أن نطلق عليهم أهل الخُل والعقد آنذاك، ثم كانت البيعة العامة في المسجد بعد أن انتهت الصحابة من دفن النبي ﷺ.

وما يدل على أن الأنصار لم يسارعوا إلى السقيفة تكالباً على الرئاسة، وطلباً للدين، ما قاله الصحابي الجليل بشير بن سعد أبو النعمان في اجتماع السقيفة: "يا معشر

الأنصار، إنا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نتبغي به من الدنيا عرضاً، فإن الله وليُّ المنَّة علينا بذلك، ألا إن محمدًا ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى، وأتم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم" (١).

وبحصول البيعة العامة لأبي بكر في المسجد، يكون قد تم له الأمر، وأصبح له العهد على الرعية، ووجب أن يسمعوا له ويطيعوا، وأن يؤازروه ويناصروه على عدوه وعدوهم.

### \* معنى البيعة وواجبات الخليفة:

والبيعة هي الركن الأساسي للخلافة، وهي تعني:

أولاً: مجيء الحاكم إلى الحكم عن طريق الرضا والاختيار، وليس عن طريق القهر والإرث والإجبار.

وتعني ثانياً: أنما تمثل عقداً بين طرفين، طرف الخليفة وطرف الرعية، لا يجوز لأحدهما أن يخل بشروطه.

فعلى الخليفة العهد للأمة أن يسير بهم وفق ما سار بهم رسول الله، وأن يحكم فيهم بكتاب الله وسنة رسوله، وأن يجتهد قدر طاقته في حراسة الدين وفي سياسة الدنيا وفق تعاليم هذا الدين، وأن ينصح للمسلمين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وعلى الأمة أن تسمع للخليفة وتطيع، وأن توازره وتناصره في الحق لا في الباطل، فإن نكث الخليفة عهده، فلا سمع له ولا طاعة، ومن حق الأمة أن تطالبه بالرفاء بما أعطى على نفسه من عهد، فإن استقام ورجع فذاك، وإلا فللمسلمين أن ينتقضوا عهده، ويلتمسوا لهم خليفة غيره.

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٢١.

وإذا بغى بعض الرعية فنقض عهد الطاعة للإمام خارجاً عليه، فينصحه الخليفة، فإن فاء إلى أمر الله فذاك، وإن أبى وجب على الخليفة أن يقاتله حتى يرده إلى الطاعة، أو يُقتل لأنه فئة باغية، وعلى الأمة مناصرة الخليفة في تأديب من خرج عليه سواء أكان فرداً أم فئة، ما دام الإمام سائراً بالأمة سيراً صحيحاً، وموفياً لها بما عاهدتهم عليه.

ومما لا شك فيه، أن الخليفة الأول أبا بكر الصديق، قد وفى للأمة بعهدده، فسار بما وفق ما سار بما رسول الله من قبل، وقد وفّت له الأمة أيضاً بعهددها، فناصرته وآزرته في حربه ضد المرتدين ومانعي الزكاة، وجاهدت معه؛ لنشر الإسلام في العراق والشام، وأعطت له من نفسها السمع والطاعة في المنشط والمكروه وفي العسر واليسر.

### \* سياسة أبي بكر للأمة:

وقد أوضح أبو بكر سياسته التي يسوس بها الرعية، فقال بعد أن تمت له البيعة العامة في المسجد بعد بيعة السقيفة، يقول ابن هشام: "ثم تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه. إن شاء الله، لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله".

رحم الله أبا بكر رحمة واسعة ورضي عنه، وأجزل له المثوبة عن الإسلام

والمسلمين.

## أسئلة التقويم الذاتي

س ١: ضع علامة (✓) أو علامة (x) أمام العبارات الآتية:

(أ) لقب أبو بكر بالصديق لأن جريلا لقبه بذلك. (x)

(ب) لقب أبو بكر بالعتيق كما لقب بالصديق. (✓)

(ج) كانت لأبي بكر الصديق فطرة نقية فلم يشرب خمرًا ولم يسجد لصنم. (✓)

(د)

(د) كان أبو بكر أول من آمن بالرسول (ﷺ) على الإطلاق. (✓)

(هـ) كان أبو بكر الصديق أفضل الصحابة وخيرهم بالإجماع. (✓)

س ٢: يقول البعض إن النبي (ﷺ) أوصى لأبي بكر بالخلافة، ناقش هذه العبارة.

س ٣: اذكر من المواقف ما تؤكد به أن أبا بكر كان أشجع الناس.



جوانب العظمة في شخصية أبي بكر  
الصديق

أولاً: ثباته عند الاضطراب ورشده عند التحير.  
ثانياً: رحمته ورقة قلبه.  
ثالثاً: حزمه الشديد في الحق وصرامته عليه.

رؤية تحليلية من خلال الوقائع والأحداث:

لسنا نريد ونحن نتحدث عن جوانب العظمة في شخصية الخليفة الأول أبي بكر الصديق ﷺ أن نسرده صفاته، ونبين فضائله فقط، ولكننا نريد هنا أن نبين مدى استحقاقه لهذا المنصب الكبير وهو سياسة الأمة بعد رسول الله ﷺ.

ولن نبحث عن توفر الشروط التي وضعها الفقهاء للخليفة وهي:

الإسلام، والذكورة، والعدالة، والكفاية، وسلامة الحواس والأعضاء، والنسب القرشي، ومدى توفر هذه الشروط في شخصيته الكريمة ﷺ، فإنما فضلاً عن تحققها في شخصه، فهي متحققة في جيل الصحابة غالباً.

ولكننا نريد هنا أن نبرز ما تميزت به شخصية أبي بكر عن غيره من الصحابة، وكيف أنه فعلاً كان أكنفاً للموجودين بعد وفاة الرسول ﷺ، وأصلحهم لقيادة الأمة.

ولن يكون حديثنا عن بيان هذا الجانب من قبيل السرد والوصف، وإنما من خلال الوقائع والأحداث التي وقعت للأمة بعد وفاة رسول الله، أو حدثت في حياة أبي بكر نفسه، وتتجلى هذه الكفاءة فيما يأتي:

## أولاً: ثباته عند الاضطراب، ورشده عند التحير:

(أ) ثباته عند الاضطراب:

وخير ما يؤكد ثباته عند الشدة، ووقوفه صامداً كالطود الشامخ عند الاضطراب هو حادث وفاة النبي ﷺ، فقد كان لوفاة النبي وقع شديد على نفوس الصحابة جعلهم يضطربون هول المفاجأة وشدة الصدمة، وكيف يتحملون فراق النبي ﷺ وعدم رؤيته صباح مساء، وسماع القرآن من غير فمه الشريف، وهو يتلوه عليهم غصاً بطرباً؟

وماذا يفعلون بعده؟ لقد كان بالنسبة لهم السمع والبصر، والحياة والأمل، يشملهم برعايته وتوجيهاته، ويغمرهم بشفتته وعطفه ورحمته، إنها حقاً مأساة عظيمة الوقع على نفوس هذا الجيل الذي حظي بصحبة النبي وملازمته في سفره وحضره، وفي حربه وسلمه وفي كل شئونه وأحواله، ولم يكن تعلقهم بالرسول تعلق اتباع وتشريع، وإنما كان فوق ذلك تعلق محبة فاضت بها قلوبهم نحوه، وتعلقت به أرواحهم فكيف يحيون بدونه؟

ولذلك رأينا الصحابة قد اضطربوا اضطراباً شديداً، والبعض قال: كيف يموت رسول الله ولم يظهر بعد هذا الدين على أديان الفرس والروم؟ تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨].

ورأينا عمر نفسه، وهو من هو في شدته وصلابته، يضطرب ويشهر سيفه، ويتوعد من يردد خبر وفاة النبي، ويصفهم بالنفاق، فيقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفى، وأن رسول الله، والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال يزعمون أن رسول الله مات.

، ووسط هذا الهرج وهذا الاضطراب وصل أبو بكر فدخل على رسول الله ليحقق من الخبر أولاً، فلما استيقن من وفاة الرسول، خرج إلى الناس، فأعاد إليهم رشدهم وبصرهم بالحق الذي لا ريب فيه، ورغم أن أبا بكر كان أكثر الصحابة بلوى بوفاة رسول

الله، إلا أنه لم يضعف ولم يضطرب، بل ثبت بكلامه أصحاب رسول الله أمام هذه البلوى التي عمتهم جميعاً.

يروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، أن رسول الله مات، وأبو بكر بالسنح، قال إسماعيل: يعني بالعالية، فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم.

فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله فقبله فقال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً والله الذي نقسي بيده لا يذيقك الله الموتين أبداً، ثم خرج فقال: أيها الخالف! على رسلك فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

وقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، قال: "فنشج الناس ليكون" (١).

يقول العلامة ابن حجر في شرحه للحديث: "لا يذيقك الله الموتين" أي أن حياته ﷺ في القبر لا يعقبها موت، بل يستمر حياً والأنبياء أحياء في قبورهم، ولعل هذه هي الحكمة في تعريف الموتين حيث قال: لا يذيقك الله الموتين، أي المعروفتين المشهورتين لكل أحد غير الأنبياء، وأما وقوع الحلف من عمر على ما ذكره، فبناه على ظنه الذي أداه

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب قول النبي "لو كنت متخذاً خليلاً" وانظر فتح الباري

إليه اجتهاده، ثم يقول ابن حجر بعد ذلك - وهو محل الشاهد هنا - وفيه بيان رجحان علم أبي بكر على عمر فمن دونه، وكذلك رجحانه عليهم لثباته في مثل ذلك الأمر العظيم.

(ب) وأما رشد أبي بكر ودلالته للناس حينما يتحجرون:

فقد كان أرشد الناس، وأسرعهم بحجة لهم عند الملمات، فحينما يتحجّر الصحابة في بعض الأمور يجيء أبو بكر بالقول الفصل فيها، فيخرجهم من حيرتهم، ويصرهم بالطريق، ويقطع عليهم بلبلة الآراء والأفكار، وخير شاهد على ذلك، حينما تحجّر الصحابة في أمرين بعد وفاة النبي ﷺ.

الأمر الأول: كيف يغسلون رسول الله؟ هل يجردونه من ثيابه كما يجردون

الأموات، أم ماذا؟

والأمر الثاني: في أي مكان يدفن رسول الله؟ هل يدفن في البقيع مع أصحابه؟ أم

يدفن في حجر إسماعيل بمكة حيث مسقط رأسه ومع جده إسماعيل؟ أم يدفن في بيت المقدس حيث أبيه إبراهيم؟ أم يترك بلا دفن، وتأتي الملائكة لترفعه كما رفع عيسى بن مريم؟ أم ماذا؟

— أما عن الأمر الأول: فتقول عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: "لما أرادوا أن

يغسلوا النبي ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري أنجرد رسول الله من ثيابه كما نجرد موتانا أن نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى عليهم السنة - أي النعاس - حتى ما فيه رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم متكلم من ناحية البيت - لا يدري أحد من هو - أن غسلوا النبي وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه يصبون عليه الماء فوق القميص ويدلكونه والقميص دون أيديهم" (١).

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٧٤، ٣٧٥ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها وهو حديث صحيح.

وأما الأمر الثاني: فيقول عبد الله بن عباس رضي الله عنه: لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح - أي يشق الأرض للقبور - كحفر أهل مكة، وكان أبو طلحة زيد بن سئل هو الذي يحفر لأهل المدينة، وكان يلحد - فدعا العباس رجلين، فقال لأحدهما: اذهب إلى أبي عبيدة، وللآخر: اذهب إلى أبي طلحة، اللهم خير لرسولك قال: فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة فجاء به، ملحد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما فرغ من حياض رسول الله يوم الثلاثاء وضع على سريرة في بيته، كان المسلمون قد اختلفوا في دفنه، فقال قائل ندفنه في مسجده وقال قائل: يدفن مع أصحابه.

فقال أبو بكر: وهنا محل الشاهد - إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما قبض نبي إلا يدفن حيث قبض»<sup>(١)</sup>، فرفع فراش رسول الله الذي توفي عليه، فحفر له تحتها، ودخل الناس على رسول الله يصلون عليه أرسالاً - أي جماعة بعد جماعة - حتى إذا فرغ الرجال، أدخل النساء حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان، ثم أدخل العبيد، ولم يؤم الناس على رسول الله أحد، ثم دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم من وسط الليل، ليلة الأربعاء<sup>(٢)</sup>.

### ثانياً: رحمته ورقة قلبه رضي الله عنه:

فقد كان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً رقيق القلب، شديد الرحمة بالأمة، شفوفاً عطوفاً على العبيد والمساكين، وكان كثير البكاء من خشية الله تعالى - خاصة - عند قراءة القرآن، وتتجلى جوانب هذه الرحمة وتلك الرقة والشفقة في شخصية أبي بكر في الوقائع الآتية:

(أ) عتقه للعبيد:

فقد أخرج ابن جرير عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال أبو بكر: أي بني! أراك تعتق أناساً

(١) رواد الإمام مالك في الموطأ في كتاب الجنائز باب ما جاء في دفن الميت.

(٢) تاريخ الطبري ج ٢١٣ مرجع سابق.

ضعافاً، فلو أنك تعتر رجالاً جلدًا يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك! قال: أي أبت، أنا أزيد ما عند الله، قال: فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآيات نزلت فيه: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن عروة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، أعتق سبعة كلهم كان يعذب في الله، وفيه نزلت ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْأَتْقَى ﴾ إلى آخر السورة.

وأخرج الزرار عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ إلى آخر السورة في أبي بكر الصديق رضي الله عنه <sup>(١)</sup>.

وهكذا كان أبو بكر تأخذه الشفقة على المعذيين في الإسلام من العبيد، فلا يتعاسر لحظة عن أن ينقذهم من الرق، حتى ينعموا بعبادة ربه في جو من الحرية والسعادة، لا يبغني من وراء ذلك إلا وجه الله تعالى وقرب مولاه.

فقد اشترى عامر بن فهيرة من سيده الطفيل بن عبد الله بن الحارث وأعتقه، وكان عامر هذا أحد السابقين للإسلام، وقد عذب في سبيل الله، وشهد بدرًا وأحدًا وقتل يوم بئر معونة.

واشترى بلال بن رباح من مولاه أمية بن خلف الجحمي الذي أذاقه العذاب المر، وكان بلال صادق الإسلام، مؤذنًا لرسول الله، شهد بدرًا والمشاهد كلها ومات بدمشق عام ٢٠ هـ رضي الله عنه.

واشترى زبيرة وكانت أمة عمر بن الخطاب قبل أن يسلم، وكان يعذبها ويضربها، فذهب بصرها من شدة الضرب، فقالت قريش ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: والله ما هو كذلك، وما تدري اللات والعزى من يعدهما، وربي قادر على أن يرد عليّ بصري، فرد الله عليها بصرها تلك الليلة، فقالت قريش هذا من سحر محمد،

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٨، ٤٩.

فاشترها أبو بكر فأعتقها، وكانت فريش تقول: لو كان خيراً ما سبتنا إليه زنيرة، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ١١].

واشترى أمة في بني عبد شمس، وكانت تدعى أم عبيس وأعتقها، إلى غير هؤلاء من الإماء والعبيد<sup>(١)</sup>.

### (ب) رحمته يوم أسرى بدر:

لما أعتز الله المسلمين بالتر يوم بدر على المشركين وأسر المسلمون منهم نحو السبعين، استشار رسول الله ﷺ أصحابه في شأن هؤلاء الأسرى، ولم يكن قد نزل تشريع ينظم هذا الأمر بعد، فقال أبو بكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم الندية، فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً.

ورأى عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة قتل الأسرى. ونحن نعلم أن النبي ﷺ كان إذا خیر بين أمرين اختار أيسرهما، وأقربهما إلى الرحمة، فما كان منه ﷺ إلا أن مال إلى رأي أبي بكر وأخذ به، بعد أن شبّهه في رحمته بعيسى بن مريم حينما قال: ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾. وشبّهه كذلك بإبراهيم حينما قال: ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ كَافِرٌ بَدِيعٌ رَحِيمٌ ﴾.

وحكذا كان قلب أبي بكر ألين من اللين، كما قال ﷺ: «إن الله ليولين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة». وقد روى أحمد والترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلل

(١) التاريخ الإسلامي لشمس شاکر ج ٣ ص ٢٧.

والحرام معاذ بن جبل، وأرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»<sup>(١)</sup>.

وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن عمر وزاد عليه "وأفضاهم علي"، وأخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث شداد بن أوس وزاد فيه «وأبو ذر وأزهد أمي وأصدقنا، وأبو الدرداء أعبد أمي وأتقاهما، ومعاوية بن أبي سفيان أحلم أمي وأجودها»<sup>(٢)</sup>.

(ج) بكاؤه في الصلاة وخشيته ورقة قلبه ﷺ:

لقد كان أبو بكر رجلاً كثير البكاء من خشية الله تعالى، مما يدل على رقة قلبه، فإن العين التي تدمع من خشية الله هي أكبر دليل على صدق الإيمان وطيب القلب، إنه كان صاحب قلب يفيض بالرفقة والرحمة، وصاحب عين تنبهر بالدموع من الخوف والخشية.

فقد كان في أول الإسلام ابني مسجداً ببناء داره، وأخذ يعلن بصلاته وقراءته، فتنجم النساء والسيبان حول هذا الصوت الخاشع وتلك العين الدامعة، فيتعجبون ويتأثرون مما جعل المشركين يتخوفون على نسائهم وصبياهم أن يفتنهم أبو بكر بقراءته، فذهبوا إلى ابن الدغنة، وقالوا له: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً ببناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فأنه عن ذلك وإلا فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، فما كان من أبي بكر ﷺ إلا أن قال لابن الدغنة: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل، وتحمل الأذى في سبيل الله.

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب باب ٣٣ (مناقب معاذ بن جبل) رقم ٣٧٩٠ وقال عنه (هذا

حديث حسن صحيح).

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٧.

ولما ثقل رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، جاءه بلال يؤذنه بالسلاة، فقال ﷺ: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، فقالت عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف (سريع الحزن والبكاء)، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

وحينما غضب أبو بكر على مسطح بن أثانة، لما خاض فيه مع الخاضعين في حادثة الإفك، وتقول على ابنة عائشة، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه أبداً، كان مسطح قريباً لأبي بكر فبني ابن خالته، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر.

فلما نزل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيُغْفُوا وَلْيُغْفَوْا لَأَلَّا تُحِبُّوا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

فقال أبو بكر: "بلى والله إنني لأجيب أن يغفر الله لي" فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: "والله لا أنزعها منه أبداً"<sup>(١)</sup>.

وهكذا نرى رقة قلبه، التي كانت - كما وصفها النبي - ألين من اللبن، وسرعان ما أرجع النفقة على مسطح، وآثر عفو الله ورضوانه، وذهب غضبه وحنقه على من آذاه في عرضه.

### ثالثاً: حزمه الشديد في الحق وصرامته فيه:

رغم هذه الرقة التي امتلأ بها قلب أبي بكر، ورغم الرحمة التي فاضت بها جوانحه ورغم هذا اللين والخشية التي لازمته أبا بكر طول حياته، إلا أنه كان مثال الحزم والشدة فيما يراه موافقاً للحق، أو فيما يراه اتباعاً لرسول الله ﷺ، مهما كلفه ذلك من مشاق.

(١) تفسير ابن كثير ج ٣، سورة النور.

فكان ﷺ لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يضعف أو يلين أمام الانتصار له، حتى وإن عارضه أو راجعه الصحابة جميعاً في شأنه، وما أكثر الوقائع والأحداث التي أبرزت هذا الجانب الهام في شخصية أبي بكر - خاصة - بعد أن تقلد أمور المسلمين، وأصبح مسئولاً عن رعاية دينهم وديارهم، وأعطى العهد على أن يسير بالرعية كما سار بها رسول الله ﷺ لا يحدي ولا يميل، ولا يضعف ولا يلين، ويتبع ولا يتدع، وتتضح هذه السمة جيداً في شخصية أبي بكر في الأمور الآتية:

### (١) إرث فاطمة بنت النبي ﷺ رضي الله عنها:

جاءت فاطمة بعد وفاة أبيها ومعها العباس يطلبان من أبي بكر ميراثهما من رسول الله - وهو حينئذ أرض بفدك وسيمه في خيبر - ولكن أبا بكر ﷺ رفض أن يعطيها شيئاً اتباعاً لكلام رسول الله: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة». وفي الحقيقة: ما أشد قسوة هذا الموقف على أبي بكر ﷺ، فحينما تبجته بنت رسول الله ويحبته عم رسول الله، وهما مفعوجان بموت رسول الله، ويجد نفسه بين موقفين أحلاماً مر، فإما أن يعطيها ما طلبا ويطلب خاطرهما، فيكون بذلك مخالفاً لرسول الله ﷺ وهدية، وإما أن يردهما، ويكسر خاطرهما، فيكون بذلك قد آذى قرابة رسول الله ﷺ، وهي في الحقيقة أحب إلى نفسه من قرابته هو، فماذا يفعل أبو بكر؟

إن الموقف جدٌ عسير، ويمكن للعواطف أن تغلب، ولكننا تكون على حساب الدين والالتزام بالحق، والاتباع لرسول الله.

وسرعان ما حسم أبو بكر المسألة، ولم تأخذه في الحق لومة لائم، ولم يتأثر بوشائج اخية التي يفيض بها قلبه لآل بيت النبي وقرابته، ورفض أن يعطيها، وقال لهما: فوالله لقرابة رسول الله أحب إليّ أن أصل من قرابتي، وإني والله ما ألت في هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم غير الخير، ولكني سمعت رسول الله يقول: «لا نورث، ما تركناه فهو

صدقة، إنما يأكل آل محمد في هذا المال»، وإني لأمدح أمرًا رأيت رسول الله يصنعه إلا صنفته.

وإلى هنا ويكون الموقف قد انتهى، وتكون المسألة قد حسمت، ولكن وجدنا بعض الروايات تذكر أن فاطمة غضبت، وأخذت في نفسها من أبي بكر، لكونه منعها من ميراث أبيها، وهجرته فلم تكلمه في ذلك حتى ماتت فدفتها علي ليلاً، ولم يؤذن بها أبو بكر<sup>(١)</sup>.

والذي تطمئن إليه النفس في هذه المسألة هو: أن هجران فاطمة وعدم تكليمها لأبي بكر محمول في الرواية - كما ذكره الترمذي وغيره - على عدم تكليمها له في شأن الميراث بعد أن تبين لها الحق، وقيل إن غضبها كان نتيجة تأويلها المنع من الميراث بأنه منع الرقبة فقط وليس المنفعة، فحملت المنع في الحديث على التخصيص بالرقبة، وأبو بكر حملة على المنع المطلق للرقبة والمنفعة، وقد روى البيهقي عن الشعبي مرسلًا: "أن أبا بكر عاد فاطمة واسترضاهما فرضيت"<sup>(٢)</sup>.

#### (ب) إنفاذ جيش أسامة رضي الله عنه:

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبويع أبو بكر بالخلافة، كان أول شيء قصد إليه هو تنفيذ وصية رسول الله «أنفذوا جيش أسامة»، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ضرب قبل وفاته بعثًا على أهل المدينة ومن حولهم، وفيهم عمر بن الخطاب، وأمر عليهم أسامة بن زيد، فلم يجاوز آخرهم الخندق، حتى قبض رسول الله، فوقف أسامة بالناس، حتى يرى كيف تسيّر الأمور بعد وفاة النبي.

(١) انظر تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٠٨ طبعة دار المعارف بمصر، وراجع الحديث بتمامه في صحيح البخاري كتاب فرض الخمس وفي صحيح مسلم كتاب الجنادة باب قول النبي (لا نورث ما تركناه فهو صدقة).

(٢) وقد أورد الإمام ابن حجر عدة تأويلات لهذا الموقف راجعها في فتح الباري ج ٦ ص ٢٣٣ طبعة دار الريان القاهرة.

وما أن تم الأمر لأبي بكر، حتى أصدر أوامره، ل يتم بعث أسامة، ولما كانت رجوة الجيش بعيدة عن المدينة، فكان مقصوده بلاد قضاة وآبل على أطراف الجزيرة العربية من ناحية الشمال الغربي، وكان النبي يريد بهذا البعث أن يودب تلك القبائل الموالية للرومان، والتي بدأت تمدد الدولة الإسلامية، فضلاً عن رد اعتبار المسلمين هناك في مؤتة، ولعل الحكمة في اختيار النبي ﷺ لأسامة قائداً على الجيش، هو أن تأخذه الحمية الإسلامية لاستشهاد المسلمين عامة، وأبيه خاصة في غزوة مؤتة فيثأر لهم، من هؤلاء المناوئين للإسلام.

ولما كانت وجهة الجيش بعيدة - كما قلت - وارتدت بعض القبائل عن الإسلام بعد وفاة رسول الله، ونجم النفاق، وارتجت الجزيرة العربية بكثرة الخارجين على الدولة الإسلامية، وأصبحت المدينة يتهددها الخطر في أي وقت.

لما كان الأمر كذلك - كلم بعض الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب أبا بكر في أمر الجيش، وأشاروا عليه بعدم بعثه، واستبقائه في المدينة لحمايتها، ومع أنها كانت وجهة نظر معقولة، وهي رغبة الجميع إلا أن أبا بكر لم يقبلها، وأصر على إنفاذ الجيش، وكأنه ينظر بنور الله، ويرى الأمور بثاقب حكمته وخبرته، فلو لم يبعث هذا الجيش في ذلك الوقت لطمعت القبائل على الحدود ومعها أعداء الإسلام من الفرس والرومان في القضاء على الدولة الإسلامية - خاصة - بعد وفاة النبي ﷺ وظهور حركات التمرد داخل الجزيرة من المرتدين ومانعي الزكاة، فقد كان إنفاذ هذا الجيش حماية للدولة الإسلامية من أعدائها الخارجين آنذاك، وإشعارهم بأن بالمسلمين قوة، يهرب جانبها ويعمل لها ألف حساب حتى بعد وفاة نبيهم، فوق أنه رفع من معنويات المسلمين، وأضعف معنويات المشركين والمرتدين في الداخل.

وكان إصرار أبي بكر على إنفاذ الجيش رغم كل التحذيرات والمرجفات التي يمكن أن تلحق بالمدينة بعد خروج الجيش منها، كان إصرار أبي بكر على ذلك هو أكبر دليل

على حزمه الشديد، وتميزه عن سائر الصحابة بالقوة والثبات عند الشدة، ولنسمع ما رواه هشام بن عروة عن أبيه في هذا الصدد، قال: لما بويع أبو بكر ﷺ وجمع الأنصار في الأمر الذي اختلفوا فيه، قال: ليم بعث أسامة، وقد ارتدت العرب، إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة، ونجم للنفاق وأشرايت اليهود والنصارى، والمسلمون كانوا بمثابة الغنم في الليلة المطيرة الشتائية، لفقدهم وقلتهم، وكثرة عدوهم، فقال له الناس: إن هؤلاء جل المسلمين والعرب - على ما ترى - قد انتفضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين، فقال أبو بكر: "والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة، كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته"<sup>(١)</sup>.

#### (ج) استبقاء أسامة على إمرة الجيش:

من بين الأحداث التي تؤكد حزم أبي بكر وصلابته في الحق أيضاً، موضوع تأمير أسامة بن زيد على الجيش، فلما يس الناس من تراجع أبي بكر في إنفاذ الجيش أو عزوا إلى عمر ﷺ أن يكلم أبا بكر في عزل أسامة عن إمرة الجيش وتولية غيره ممن هو أقدم منه سناً، وما أن سمع أبو بكر تلك المقالة حتى استشاط غضباً، وكان جالساً، فوثب وقال: ثكلتك أمك وهدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمري أن أنزعه، والله ما كنت أغير شيئاً فعله رسول الله.

وأراد أبو بكر أن يلقن الجيش درساً عملياً في احترام القائد والانقياد له، مهما كانت سنه، وأن يبين لهم أن المسألة ليست بكبر السن أو صغره، وما كان رسول الله يوليه إلا عن بصيرة، وعلم بأنه كفاء لهذه القيادة حتى وإن كان من أصغرهم سناً، حتى وإن كان ابن ثمان عشرة سنة فقط.

وخرج أبو بكر إلى "الجرف"<sup>(٢)</sup> حيث تجمع الجيش، فأتاهم، فأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر، فقال له أسامة يا

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٢٥.

(٢) الجرف مكان في شمال المدينة على بعد ثلاثة أميال منها.

خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأترزن، فقال أبو بكر: والله لا أركب، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له، وترفع عنه سبعمائة خطيئة، ثم استأذنه في عمر لكي يبقى بجواره يستشيره ويعينه على أمور المسلمين فأذن له أسامة بذلك، ثم أوصى الجيش فقال: يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تحونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كلة، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواماً قد فحسوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصاب فاحققوهم بالسيف خفقا، اندفعوا باسم الله.

وهذه الوصايا العشر، تبين آداب الحرب في الإسلام، والتي تقوم على المثل العليا مع الإنسان والنبات والحيوان، فوق أنها تدل على مدى خيرة أبي بكر بأحوال الناس والقبائل التي يمرّون عليها في طريقهم، أو يلتقون بهم في قتالهم.

ثم أوصى أسامة فقال له: اصنع ما أمرك به نبي الله، ابدأ ببلاد قضاة ثم آبل، ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله ولا تعجلن لما خلقت عن عهده.

ومضى أسامة بالجيش بعد أن ودعه أبو بكر، وانتهى إلى ما أمره به النبي من بيت الخيول في قبائل قضاة والغارة على آبل<sup>(١)</sup>، فسلم وغنم، وكان فراغه في أربعين يوماً سوى مقامه ومنقلبه راجعاً<sup>(٢)</sup>.

(١) منطقة في جنوب بلاد الأردن.

(٢) تاريخ الطبري ص ٢٢٦ - ٢٢٧ المجلد الثالث.

## (د) قتال المرتدين ومانعي الزكاة:

\* بوادر الردة في عصر الرسول (ﷺ):

لقد حدث بعد وفاة النبي ﷺ اضطراب شديد بين أهل البادية من الأعراب وكان كثير منهم قد أسلم ولم يدسل الإيمان في قلبه، كما بين تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [التوبة: ٩٧، ٩٨].  
وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَيَّ النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَتُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة: ١٠١].  
ورغم علم النبي ﷺ بهذا الصنف الذي دخل في الإسلام تقيّة، إلا أنهم قد عصموا دماءهم وأموالهم؛ لأنهم كانوا يقولون لا إله إلا الله، وكانوا يقيمون شعائر الإسلام، ويؤدون ما فرض الله عليهم من الزكاة، ولكنهم - كشأن أهل النفاق دائماً - كانوا يتحينون الفرصة المناسبة للخروج من هذا الدين، بل والخروج على أهله، وكانت بوادر الردة قد ظهرت في أيام الرسول ﷺ:

إذ تنبأ الأسود العنسي في اليمن، ومسيلمة الكذاب في اليمامة وغيرهما إلا أنهم لم يجرؤوا على إعلان ذلك<sup>(١)</sup> ولو فعلوه لقاتلهم رسول الله ﷺ آنذاك كما فعل مع طليحة الأسدي الذي ارتد عن الإسلام وادعى النبوة في حياته ﷺ، فوجه إليه النبي ضرار بن الأزور، ولما ضربه نبا عنه السيف - ربما لما كان يليسه من أشياء واقية - فكان ذلك سبباً في شيوع أمره وكثرة أتباعه، وفي عهد أبي بكر تبعه وأرسل إليه خالد بن الوليد على رأس جيش ففر إلى الشام ثم أسلم، ووفد على عمر، وحسن إسلامه وبلاؤه في الفتوح، واستشهد في نهاوند.

\* الردة في عهد أبي بكر:

وبحوار هذا الصنف من المتبئين والمرتدين، كان صنف آخر عادوا إلى برائن الجاهلية من جديد، ولكنهم لجئوا إلى أسلوب المحاورة والمناورة، فأرسلوا وفودهم إلى أبي بكر يطلبون

(١) راجع في شأنهما صحيح مسلم كتاب الرؤيا حديث رقم ٢٤، ٢٥.

منه أن يعفيهم من الزكاة، متأولين ومتعللين بأنهم كانوا يدفعونها إلى من يصلى عليهم - يقصدون الرسول ﷺ كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وزأى أبو بكر أمام هذه المحن أن الجزيرة قد انتفضت عليه عن بكرة أبيها بعد وفاة النبي، اللهم إلا نتفاً يسيرة هنا وهناك بقيت على الحق، وإلا المدن الثلاثة مكة والمدينة والطائف، ورأى أن المسألة تحتاج إلى حزم، وألا تأخذه هوداة مع هؤلاء، مهما كلفه الأمر، ولن يسمح بحل عقدة من عقد الإسلام، أو يهدم ركن من أركانه، وأعلن رفضه لما عرضه هؤلاء، وأنه سيقاتلهم حتى يفيثوا إلى أمر الله، أو يحسم الله بينه وبينهم، وقال قوله المشهورة: "والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لجاهدتم عليه".

#### • اختلاف الصحابة حول قتال المرتدين:

وقد توقف بعض الصحابة في قتال هؤلاء، إذ كيف يستبيحون دماءهم وهم يقولون لا إله إلا الله، والتبس عليهم فهم الحديث الشريف: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»، وأخذوا يناقشون أبا بكر في هذا الأمر، وكان من بينهم أبو عبيدة بن الجراح، وسالم مولى أبي حذيفة، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وقال عمر لأبي بكر كيف تقاتلهم! وقد قال الرسول ما قال - يقصد الحديث السابق - فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال<sup>(١)</sup>.

ورأى الصحابة أن الأخذ باللين أفضل في مثل هذه الظروف الحالكة التي زلزلت فيها الأرض بالردة والنفاق.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان أيضاً باب الأمر بقتال الناس

حتى يقولوا لا إله إلا الله.

وقال عمر: يا خليفة رسول الله، تألف الناس وارتفق بهم، فأجابه أبو بكر: رجوت نصرتك وحتيتي بمخذلانك، أجبنا في الجاهلية وخوارج في الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحي، وتم الدين، أو ينقص وأناحي؟ ثم بين أبو بكر فقه الحديث الذي التبس على الصحابة فهمه، فقال: أليس قد قال رسول الله ﷺ إلا بحقها، ومن حقها الصلاة وإيتاء الزكاة، والله لو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي<sup>(١)</sup>.

والبعض يفسر هذه المحاورات التي تمت بين أبي بكر وبعض الصحابة، بأنها تنم عن الخوف والحذر الذي أصابهم، وأنهم ضعفوا وجبئوا عن مواجهة أهل الردة والماتنين للزكاة في طول الجزيرة وعرضها.

ولكن الأمر ليس كذلك، فما كان لمثل هؤلاء الأبطال الذين تربوا على حب الموت أكثر من حب الحياة، وما كان لمثل أبطال بدر والخندق وحنين وتبوك وغيرها، أن يتخاذلوا أو يجبنوا.

ولكن غاية ما في الأمر، أنها كانت مناقشة فقهية حول ما يشير به الحديث الشريف، وما أن أوضح أبو بكر دلالته، وأزال عنهم الشبهة التي علقت بأذهانهم في فهمه، حتى استمسكوا بحبل الله جميعاً، وآلوا على أنفسهم إلا أن يردوا هؤلاء إلى حظيرة الإسلام، مهما كلفهم ذلك من توضيحات.

وإنه لموقف جد عسير ظهرت فيه شخصية أبي بكر المتميزة عن سائر الصحابة بجزمها وفقهها عن رسول الله، وأنه لم يتهاون ولم يتخاذل لحظة واحدة عن مواجهة الخارجين على الحق حتى ولو قاتلهم وحده.

\* انتصارات جيوش أبي بكر الصديق:

وأمام هذه المحنة الشديدة - خاصة - بعد خروج جيش أسامة من المدينة، وعلم البعض بأن المدينة قد أصبحت خالية من الرجال، وأنها أصبحت مطعماً ولقمة سائغة لكل

(١) التاريخ الإسلامي للأستاذ محمود شاكر ج ٣ ص ٦٧، ٦٨.

من تسول له نفسه ضرب الإسلام والقضاء عليه، أمام هذه المخنة بدأ أبو بكر رضي الله عنه يخطط لمواجهتها في منتهى الحكمة والفظنة.

١ - وكان أول شيء في الخطة هو حماية المدينة حتى يعود الجيش وما أن رجع أبو بكر إلى المدينة بعد تشييع جيش أسامة، حتى بدأ يدبر أمره وأمر المسلمين، في حالة إغارة الأعراب عليهم، وأمر أن يظل الرجال مجتمعين في المسجد، ويكونوا على أهبة الاستعداد إن طرأ عليهم طارئ، وهكذا أصبح المسلمون في رباط دائم بالمسجد متوثبين لأية غارة، أو طارئ على غرة، وجعل على منافذ المدينة من جهة الأعراب رجالاً يجرسونها وينبشون المسلمين بأي خطر داهم عليهم من قبل الأعراب، وكان ما توقعه أبو بكر من طبع بعض القبائل في الغارة على المدينة، إذ أقبلت "غطفان" ومن تابعهم ذات ليلة يريدون أن يبيدوا المسلمين، ويأخذوهم على غرة بالليل، وما أن أحسن رقباء النوافذ بذلك فأخبروا أبا بكر، فخرج إليهم بجند المسلمين المرابطين في المسجد، والتقوا بالعدو، وهزموهم، وتابعوهم، يريدون أن يعمقوا فيهم، ولكن الأعراب كانوا قد جعلوا وراءهم ردة أي عدداً منهم فأخافوا إبل المسلمين بالأنحاء، وهي جزار السم، ربطوها بالحبال ودفعوها بأرجلهم في طريق الإبل، ففرت الإبل ورجعت بالمسلمين إلى المدينة.

على أن أبا بكر لم يلبث أن خرج إليهم في آخر تلك الليلة، فصباحهم في ديارهم وأخذهم على غرة، فولوا الأدبار وتركوا ديارهم، فحماها أبو بكر لخيال المسلمين وإبل الصدقة، وكان لهذا النصر على غطفان ومن تابعها، أثر كبير في رفع الروح المعنوية في المدينة، ولدى مسلمي القبائل الأخرى فتبتوا.

ثم كان نصر ثانٍ حيث وصل إلى المدينة أموال الصدقات من عدة جهات في هذه الأوقات العصيبة، فحاء صفوان بن صفوان بصدقات بني عمرو، وذلك في أول الليل من جهة النقب الذي عليه سعد بن أبي وقاص، وجاء الزبير بن بدر في وسط الليل بصدقات بني عوف من جهة النقب الذي عليه عبد الرحمن بن عوف، وجاء عتيدي بن

حاتم الطائي في آخر الليل بصدقات قومه من جهة النقب الذي عليه عبدالله ابن مسعود<sup>(١)</sup>.

ثم كان النصر الثالث وهو وصول جيش أسامة سالمًا غانمًا، فدعاهم أبو بكر إلى الراحة وقال لهم أرى بما ظهروكم، ثم بدأ يخطط للضربة القاضية على فلول أهل الردة ومانعي الزكاة.

### \* خطة أبي بكر في حرب الردة:

لقد تأثر أبو بكر، وأثار حفيظته جدًا ما أوقعته بعض القبائل المرتدة بمن بقي فيهم على الإسلام، فتبعوهم وقتلوهم، مما جعل أبو بكر يسرع في تأديب هؤلاء، وأقسم ليثأرن للمسلمين، وكَيْبَلَعْنَ في الثأر، وكان الجيش الذي عاد قد استرحم واستراح، وكان بالمدينة صدقات فاضت عن حاجة الناس، فجعلها زادًا لجيوش المسلمين، وخرج بالناس إلى "ذي القصة" ثم قسم الجند وعقد الألوية للقواد، فبلغت أحد عشر لواءً، وكلف كل قائد بطائفة من المرتدين.

١- "نخالد بن الوليد" بقتال طلحة ومن معه من بني أسد، فإذا فرغ منهم قصد إلى مالك بن نويرة ومن معه من بني تميم بالبطاح.

٢- وكلف "عكرمة بن أبي جهل" بقتال مسيلمة الكذاب الخنفي في اليمامة.

٣- وكلف "شرحبيل بن حسنة" فأرسله دعمًا وعاونًا لعكرمة بن أبي جهل على حرب مسيلمة، وأمره إن فرغ من ذلك أن يذهب إلى قضاة معينًا لعمر بن العاص.

٤- وكلف "المهاجر بن أبي أمية" بقتال الأسود العنسي ومن معه في اليمن، فإذا فرغ منهم مضى إلى المرتدين في حضرموت.

٥- وكلف "عمرو بن العاص" بقتال قضاة في الشمال.

(١) التاريخ الإسلامي ج ٣ ص ٧٠، ٧١.

- ٦- وكلف "خالد بن سعيد بن العاص" بقتال القبائل التي على مشارف الشام.
- ٧- وكلف "حذيفة بن محصن" بقتال أهل دبا - عمان قديماً.
- ٨- وكلف "عرفجة بن هرثة الأزدي" بقتال مُهرة، ثم يلتقي مع حذيفة.
- ٩- وكلف "طريف بن حاجز" وأمره بقتال بني سليم ومن معهم من هوازن.
- ١٠- وكلف "سويد بن مقرن"، وأمره بقتال القبائل المرتدة في إمارة اليمن.
- ١١- وكلف "العلاء بن الحضرمي" ووجهه لقتال المرتدين في بلاد البحرين<sup>(١)</sup>.

ومن رؤيتنا لهذا العدد من الجيوش وتلك القبائل والأماكن التي توجهوا إليها، نرى مدى الخطورة التي واجهها أبو بكر والمسلمون معه بعد وفاة رسول الله، وكيف أن الجزيرة قد قلبت لهم ظهر الجن، وأصبح هؤلاء خطراً جسيماً على الدولة الإسلامية في هذه الأوقات العصيبة.

وقد انطلقت هذه الجيوش باسم الله، كل إلى ما وجه إليه، بعد أن أوصاهم أبو بكر الصديق، بأن لا يبدؤوا بقتال حتى يدعواهم إلى الإسلام والدخول فيما خرجوا منه، فإن أجابوا قبل منهم، وأعطوهم ما لهم من الحق أيضاً، وإن أبو قاتلوهم بلا هوادة حتى يفتنوا إلى أمر الله ويعودوا إلى الإسلام..

وأمرهم إذا نزلوا بقبيلة أن ينتظروا وقت الصلاة، ثم يؤذّنوا، فإذا سمعوا أذان من بإزائهم ممن جاعوا لحرهم، لم يقاتلوهم حتى يتبينوا حقيقة إسلامهم، فيسألوهم، فإن أقرروا بالإسلام كاملاً فهم آمنون، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وإن جحدوا شيئاً من الإسلام كانوا قد أعطوه لرسول الله، قاتلهم المسلمون حتى يدعوا ويقبلوا الإسلام كاملاً غير منقوص<sup>(٢)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٤٩.

(٢) الشيخان لطف حسين ج ٤٩.

وتحركت الجيوش يقودها أبطال عظام من خيرة المهاجرين والأنصار بعد أن أوصاهم أبو بكر، وقد أبلوا بلاء حسناً في قتال المرتدين، واستشهد منهم عدد ليس بالقليل، ولا سيما في حرب مسيلمة باليمامة، فقد ثبت بنو حنيفة للمسلمين وقائدهم عكرمة بن أبي جهل وهزمهم؛ لأن عكرمة تعجل ولم ينتظر المدد، ثم رماهم أبو بكر بخالد بن الوليد فجال وصال هو وخيرة أصحاب رسول الله أمام بني حنيفة وثبتوا لهم، حتى أزالوهم عن مواقعهم، وقتلوا مسيلمة، وفتحوا عليهم حصونهم حتى أخضعوهم لسلطان الله وهم كارهون.

وقد استشهد في هذه المعارك عدد كبير من حملة القرآن، مما خشى معه البعض على ذهاب القرآن بذهاب الحفظة، فأشاروا على أبي بكر بجمع القرآن حتى شرح الله صدره لذلك، فعمد لهذه المهمة - كما سنين فيما بعد.

وهكذا تم لأبي بكر رضي الله عنه ما أراد، وثبت هو ومن معه من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان لانتفاضة الجزيرة، ودخل العرب جميعهم فيما خرجوا منه، وأدى المانعون الزكاة، واستجابوا لحكم الله كاملاً، وانهمز المرتدون وأتباعهم، فانهمز طلحة وأتباعه، وفر طلحة نفسه إلى الشام، ثم أسلم بعد ذلك، وأبلى بلاءً حسناً في فتح بلاد الفرس - كما سبق أن بينا، وانهمز مسيلمة ومن معه بعد خطوط ومعارك ضارية، فقتل مسيلمة وعاد قومه إلى الإسلام، وانهمز الأسود العنسي ومن معه، وقتل الأسود على يد رجل من الذين ثبتوا على الإسلام.

وهزمت "سجاح بنت الحارث التميمية" المتبثة، ومن وادعوها من بني تميم، ولما قتل مسيلمة عادت إلى الإسلام، ثم هاجرت إلى البصرة وتوفيت بها في خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٥ هـ.

وهكذا أظهر الله أبا بكر ومن معه على من ناوهم من المرتدين ومانعي الزكاة وانتهت هذه الحقبة العصيبة في أول عهد أبي بكر، على خير ما يجب الله ويرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعادت الجزيرة كلها إلى الإسلام مرة ثانية وقبلوه كاملاً غير منقوص.

وأظهرت هذه المحنة:

أنخص صفتين امتاز بهما أبو بكر عن غيره من الصحابة وهما: الاطمئنان إلى ما وعد الله من النصر في غير تردد ولا وهن، والثبات في حزم وعزم لما يلزم به من المكروه، حتى جاز لنا أن نصفه بأنه كان أكثر الصحابة حزمًا، وأصلبهم عودًا على الحق، مما جعله بلا ريب أكفأ الموجودين لقيادة الأمة الإسلامية في هذه الظروف العصيبة بعد وفاة الرسول ﷺ، وكان الله ادخره بعد رسول الله؛ ليتم الله به النصر ويظهر دين الإسلام على الدين كله ولو كره المشركون.

## أسئلة التقويم الذاتي

س١: كان أبو بكر الصديق رحيماً رقيق القلب، أكدت هذه الصفة جملة من المواقف، اذكر منها ما يؤكد ذلك.

س٢: ضع علامة (✓) أو علامة (x) أمام العبارات الآتية:

- ( ) (١) نزل القرآن الكريم مخالفاً لرأي أبي بكر في أسرى بدر.
- ( ) (٢) لم يُعطِ أبو بكر الصديق لفاطمة بنت النبي (ﷺ) إرثاً من أبيها.
- ( ) (٣) وافق أبو بكر عمر بن الخطاب عندما عارضه في قتال المرتدين.
- ( ) (٤) أنفذ أبو بكر جيش أسامة بقيادته إنفاذاً لوصية الرسول (ﷺ).
- ( ) (٥) أظهرت محنة المرتدين صفحتي الاطمئنان إلى وعد الله بالنصر والثبات في حزم وعزم عند أبي بكر الصديق.
- ( ) (٦) كان هناك خلاف دائر بين الصحابة حول قتال المرتدين.
- ( ) (٧) كان من خطة أبي بكر في قتال المرتدين أن يقاتل عمرو بن العاص قبائل قضاة في الشمال.



## جهاد الصديق في نشر الإسلام وفتوحاته في العراق والشام

أولاً: أمور هامة يجب توضيحها.

ثانياً: الفتوحات في العراق.

ثالثاً: الفتوحات في الشام.

لقد انتهت السنة الأولى من خلافة الصديق عليه السلام، وقد أنجز فيها أعظم إنجاز، حيث أعاد الجزيرة كلها إلى الإسلام، ووجد الكلمة، وجمع شمل الأمة بعد أن أصابها التفرق، وهذا العمل - بلا شك - هو الأساس الذي لا بد منه قبل أن تتحرك الجيوش هنا وهناك خارج الجزيرة، فلا بد من سلامة الجبهة الداخلية، قبل التحرك إلى الجبهة الخارجية.

### أولاً: أمور هامة يجب توضيحها:

وقبل أن نخوض في أمر الفتوحات على الجبهتين الشرقية والغربية، أو جبهتي الفرس والروم، لا بد من بيان عدة أمور نوجزها فيما يلي:

١- إن الغرض من هذه الفتوحات لم يكن بغية كسب أرض جديدة، أو الحصول على مغامر وفيرة، أو طلباً للزعامة والرياسة على الأمم، ولم يكن تعطشاً لإراقة الدماء، أو غير ذلك من أغراض القتال الدنيوية - كما حاول أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم أن يربطوها بالجهاد في الإسلام.

فليس الأمر كذلك، لم يكن من غرض لهذه الفتوحات سوى نشر الإسلام، وفتح الباب أمام الأمم والشعوب التي حُجِرَ عليها ملوكها وحكامها، فحجّبوا عنها حرية

الإعتقاد، وأطفئوا فيها نور العقل السليم، وطمسوا بجزوتهم صفاء الفطرة الصحيحة لديهم.

وليس أدل على ذلك من تلك الدساتير والنصائح التي كان النبي ﷺ يزود بها القتالين، وسار على دربه خلفاؤه الراشدون وحكام المسلمين، وهي في مجملها تضع دستور الحرب في الإسلام، وتجعلها تقوم على آداب ومعاملات إنسانية، يسلم فيها النبات والحيوان فضلاً عن الإنسان، وقد سقنا طرفاً منها عندما قدم أبو بكر نصائحه العشر لجيش أسامة.

وما كان يفعله قواد الجيوش من عرض الإسلام على الأعداء قبل أن يبدءوهم بقتال فإن قبلوه أصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وإن رفضوه فإما أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وإما القتال حتى يفصل الله بينهم وينسخ الطريق أمام أنوار الحق والهداية، حتى يعلم به ويقف على جوهره هؤلاء الخياري، والتائبون في غياهب الجهالة وسوء الإعتقاد.

٢- إن هذه الفتوحات التي بدأها أبو بكر واستكملها من جاء بعده من الخلفاء الراشدين، والحكام الأمويين والعباسيين، بل والعثمانيين، لم تكن بدعاً في حياة هؤلاء، وإنما كانت تميماً لما بدأه النبي ﷺ فقد جاء النبي الخاتم بدعوة عامة، أمر بإبلاغها إلى العالمين، وقام النبي بهذه المهمة فكاتب الملوك والأمراء شرقاً وغرباً يدعوهم إلى الإسلام، وقاد الجيوش وسيرها إلى أطراف الجزيرة بغية أن يفتح الطريق أمام هذه الأمم، حتى تتعرف على الإسلام.

وقد رأينا ما فعله النبي في حياته، حينما سير جيشاً إلى مؤتة في السنة الثامنة من الهجرة، حيث القبائل العربية الموالية للرومان، وقاد بنفسه جيش العسرة في غزوة تبوك حيث وصل إلى تبوك وأقام فيها بضع عشرة ليلة، وجهز بعث أسامة بن زيد وأوصاه أن يذهب إلى بلاد قضاة وآبل على أطراف الجزيرة العربية، حيث توجد بلاد الأردن اليوم،

وقد تم إنفاذه في عهد أبي بكر، وعلى ذلك فأمر الفتوحات والتوجه خارج الجزيرة لفتح البلاد أمام نور الإسلام، لم يكن شيئاً مبتكراً في خلافة أبي بكر وغيره، وإنما كان تمييزاً لما بدأه النبي، ومواصلة لمسيرته في نشر الدعوة على مستوى العالم كله.

٣- إن المتبع لمسيرة الفتوحات في بلاد الفرس والروم سيجد بطولات فذة قدمها القواد والجنود الفاتحون لهذه البلاد، فمع الفارق الكبير في العدد والعدة، كان النصر حليف المسلمين وهذا ما أدهش الفرس والرومان، كيف يصمد أربعون ألفاً من المسلمين لمائتين وأربعين ألفاً من الروم في معركة اليرموك، وكيف يصمد ثلاثون ألفاً من المسلمين أمام مائة وعشرين ألفاً من الفرس في معركة القادسية، إلى غير ذلك من المواقف والتراتيل الكثيرة التي أدهشت الإمبراطوريتين الكبيرتين، وحررتهم أمام هذا التغيير المفاجئ لهؤلاء العرب، فكان الأمر قبل الإسلام لا يكلفهم سوى الإشارة إلى قبيلة من القبائل الموالية لهم بتأديب الخارجين والمناوئين من أبناء الجزيرة، ويتم المراد على ما يرام.

أما الآن فيرون وجوهها غير الوجوه، وحنداً غير الجنود، وبتطولات لم يعرفها التاريخ من قبل، فما الأسباب الكامنة وراء هذا التغيير المفاجئ؟ في الحقيقة أن الأسباب كثيرة، وترجع في جملتها إلى هذا الدين الجديد الذي غير حياتهم بالكلية، ويتضح ذلك فيما يأتي:

(أ) إن الهدف الذي من أجله يحارب المسلمون واضح ومحدد وهو في الوقت نفسه هدف غال وثمين، إنه من أجل إعلاء كلمة الله، إنهم يبيعون أنفسهم؛ ليشتروا ما عند الله، بعكس أهداف المقاتلين من الفرس والرومان، فلم تكن تتعدى حمية الوطن والأرض، بل إن المقاتلين كانوا يقاتلون وهم كارهون فلولا جيروت السلطة والتسخير ما قاتل هؤلاء.

(ب) تحقيق مبدأ الأخوة بين المقاتلين المسلمين فلم يكن هناك تمييز بين قائد وجندي، ولا بين جندي وآخر، وإنما الكل إخوة متحابون، لا فرق بين أحد وأحد إلا بالقوى، مما جعلهم يتشاورون، ويتناصحون، وكأنهم جميعاً أصحاب القرار، بعكس ما هو

موجود بين جند الفرس والرومان، فكانوا مقهورين مجبورين، إلى درجة أنهم كانوا يربطونهم بالسلاسل حتى لا يهربوا من المعركة - كما حدث في معركة ذات السلاسل بأرض العراق، ناهيك عن الاستغلاء والتكبير، في طبقة القواد والحكام، فكانوا هم السادة وهؤلاء هم الرعايا، وشتان بين النظرتين، ولهذا رأينا بعض البلدان ترحب بالفتح الإسلامي، ويتشوقون لمقدم المسلمين لما يسمعون عنهم من العدالة والحرية والمساواة، وكانوا يقولون: لهؤلاء أحب إلينا وهم على غير ديننا من الرومان وهم على ديننا، كما حدث في فتح دمشق وغيرها.

(ج) البسالة والشجاعة والفروسية العربية التي نشأ عليها الجندي العربي، ثم جاء الإسلام فزادها شجاعة فوق شجاعتها، فكانوا يجارون من أجل الشهادة لا من أجل البقاء، وقد وصفهم خالد بن الوليد في رسالته إلى هرمز - أثناء فتوحاته في العراق -: لقد جتكم بقوم مجبون الموت أكثر من حيكم للحياة.

٤- إن سياسة أبي بكر من هذه الفتوحات كانت تقوم على الاعتماد في الحروب على المسلمين الخالص، ولم يكن يسمح لأحد من أهل الردة بالاشتراك في هذه الحروب، وهذا بعكس ما فعله عمر بن الخطاب في فترة ولايته، فقد استنفر العرب جميعاً، ولكل رأي ظروفه وملابساته، فأبو بكر حشي من هؤلاء المرتدين على جند المسلمين، فهم قريو عهد بالردة، ويمكن أن ينضموا إلى الفرس أو الرومان؛ ليثأروا لأنفسهم ويقضوا على المسلمين، مع أن الحاجة لم تكن داعية إلى اشتراكهم، فقد كان عدد المسلمين الخالص كافيًا في الحروب آنذاك، ولما جاء عمر تغيرت الأحوال، وبدأت الحرب مع الفرس والرومان تأخذ طابع الجدية، وأصبحت بالنسبة للفرس والرومان مسألة حياة أو موت، فجمعوا كلمتهم وحشدوا كل إمكانياتهم، مما يلزم معه كثرة في جند المسلمين تواجه هذه الأعداد الوفيرة جدًا.

ولهذا استنفر عمر سائر القبائل قائلاً: كلمته المشهورة: لأرمن ملوك العجم بملوك العرب، وجعل كل قبيلة تقاتل تحت رايته، حتى تمايز القبائل في القتال، ويخشى أبنائها الانسحاب مهما كانت الظروف، حتى لا يعيروا من القبائل الأخرى، هذا فضلاً عن أن عمر - بعد طول الفترة على عودتهم إلى الإسلام - أنس منهم الإخلاص، ولم يعد يخشى من جانبهم الانتكاسة إلى الجاهلية مرة أخرى، وكما قلت لكل رأى ظروفه وملاساته، كما أوضحنا.

د- يبدو من تتبع مسيرة المعارك مع الفرس والروم أن القيادة الإسلامية آنذاك كانت تخطط لشغل الجبهتين معاً وفي وقت واحد، ولكن يتم التركيز والثقل على جبهة، وتصبح الجبهة الأخرى في ذات الوقت في موقف المراقبة أو الدفاع أو المناوشات الخفيفة.

هذا ما رأيناه في الفتوحات التي ابتدأها أبو بكر، فبينما كان خالد بن الوليد، والمثنى بن حارثة الشيباني وعباس بن غنم وغيرهم في معمة القتال في أرض العراق مع الفرس ومن والأهم من القبائل العربية هناك، كانت الأمور على الجبهة الغربية لا تتعدى أمر الدفاع، فقد أرسل أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص على رأس جيش وأمره أن يربط على الحدود، ويكون رداً لمن وراءه، ولم يأمره بمحوم أو تقدم في أرض العدو.

ولعل الحكمة في ذلك هي: أن أبا بكر أراد أن يشغل الجبهتين معاً وفي وقت واحد، حتى لا يتحدا ويصبحا جيشاً واحداً لا طاقة للمسلمين به، وقد رأيناه، حينما نقل المحوم على الجبهة الغربية، أصبحت الجبهة الشرقية في موقف دفاع فقد تحرك خالد إلى اليرموك، وبقي المثنى بنصف الجيش مرابطاً في الحيرة، بينما كان القتال على أشده مع جيوش الرومان في معركة اليرموك وغيرها على جبهة الرومان.

٦ - إن نية أبي بكر رضي الله عنه كانت متجهة بعد الانتباء من حروب الردة إلى البدء بالجبهة الغربية في الفتوحات، أو أن الترتيب الطبيعي كان يقتضي ذلك، حيث هي الجبهة التي ركز عليها النبي صلى الله عليه وسلم في حياته.

ونسارت إليها الجيوش الإسلامية أكثر من مرة، فضلاً عن كثرة المناوشات التي كان يقوم بها بعض العرب الموالين للروم هناك، وقد رأينا ما فعله الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان بالبلقان من أرض الشام، حينما قتل رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأراد أن يعزرو رسول الله في المدينة، لكن أتاه كتاب من هرقل يمنعه من ذلك.

ولكن الأمور سارت بقدر الله، وأراد الله عز وجل أن يكون أول الفتح بأرض العراق على الجبهة الفارسية، وترجع أسباب هذا التحويل من البدء بالشام إلى البدء بالعراق، إلى المثنى بن حارثة الشيباني، الذي أمر نفسه على من بقى على الإسلام معه، وأخذ يقاتل المرتدين من العرب ويتبعهم على ساحل الخليج الفارسي حتى أشرف على العراق، وطمع المثنى في أن يواصل السير في أرض العراق، ويتم فتح العراق على المسلمين. ولكن الأمر أكبر من طاقته، فلا بد أن يستأذن الخليفة أولاً، ويطلب منه المدد على ذلك تانياً، وذهب المثنى إلى أبي بكر وزين له فتح العراق، خاصة وأن الفرس منقسمون على أنفسهم بعد موت ملكهم، وأنهم في حالة من التفكك تسمح لجنود المسلمين بالظفر عليهم في أرضهم.

وقد شرح الله صدر الصديق لذلك، ووافق على البدء بالعراق وأذن للمثنى ومن معه، وأمدته بالجيوش اللازمة لذلك، وهذا ما سنوضحه في تتبع مسيرة الجيوش الفاتحة في العراق ثم في الشام بعون الله تعالى.

## ثانياً: الفتوحات في العراق:

\* كتاب الرسول (ﷺ) إلى كسرى:

لقد كان أول أمر للمسلمين مع الفرس هو ما حصل من إرسال النبي ﷺ كتاباً إلى "كسرى أبرويز" يدعو فيه إلى الإسلام، وقد علمنا غطرسة هذا الملك حينما مزق الكتاب استكباراً، فدعا عليه النبي أن يمزق الله ملكه - وقد كان - بل بلغ من استكبار "أبرويز" أن أرسل إلى عامله على اليمن وهو "باذان" بضرورة إرسال رجلين جلدتين من قبله إلى المدينة، فيأتیان برسول الله ليمثل أمام "أبرويز" وكان غير ما أراد الملك، فقد كان هذا العمل سبباً في إسلام اليمن، حيث أرسل "باذان" الرجلين فتوجهها إلى النبي، فأخبرهما ﷺ بأنه في هذا اليوم قتل "أبرويز" قتله ابنه "شبرويه" وكان الأمر كما قال ﷺ، ولما تبين الرجلان صدق النبي أسلماً، ثم أسلم "باذان" فولاه النبي على ما كان تحت يده من بلاد اليمن، وكانت أول بلاد تحت حماية الفرس تنضم للإسلام.

\* الشروع في فتح بلاد العراق:

ولما كانت السنة الثانية من ولاية أبي بكر الصديق، شرع في فتح بلاد العراق التابعة لحماية الفرس وكان ذلك مع بدء المحرم من السنة الثانية عشرة من الهجرة وقد بينا السبب في جعل أبي بكر يبدأ بالجهة الفارسية، وهو المثنى بن حارثة، وما زينه للخليفة من فتح العراق، وقد أذن له الخليفة بالسير بمن معه في بلاد العراق، وأمدّه بسيف الله خالد بن الوليد، وأمر الخليفة خالدًا أن يبدأ بالأبلة "نغر" من ثغور الفرس على الخليج الفارسي عند مصب دجلة" وأمدّه بالقعقاع بن عمرو، وانتدب عياض بن غنم؛ ليغزو الفرس من شمال العراق، وأمره أن يبدأ بالمضيح (قرية على الفرات شمال العراق) ثم يتجه عياض إلى الخيرة، فإن وصلها عياض قبل خالد فهو الأمير وخالد جندي من جنوده، وإن وصلها خالد قبله فهو الأمير وعياض جندي من جنوده، وكما أمد الخليفة خالدًا بالقعقاع، أمد أيضاً عياضاً

بعيد بن عوف الحميري، وهكذا خطط أبو بكر رضي الله عنه بأن يكون دخول العراق من جبهتين، حتى يربك الفرس ومن معهم من القبائل العربية هناك، فيدخلها خالد من الجنوب، ويدخلها عياض من الشمال، ويكون لقاؤهما في الحيرة.

ولكن خالدًا كان سيفًا من سيوف الله، وسهمًا نافذًا من سهام المسلمين، فلم يكدر يبلغ العراق، حتى جد في الحرب، وأبلغ فيها، وظفر بالفرس والعرب الذين تابعوهم في غير موطن، وانتهى إلى الحيرة، فاضطر أهلها إلى الصلح، وقهر الفرس وأذهم وأخرجهم من العراق العربي في عدة أشهر، وبينما وصل خالد إلى الحيرة، كان عياض بن غنم مقيمًا على دومة الجندل لم يفتح الله عليه بعد، حتى أعانته خالد وأمدته، ففتح الله عليه وعلى المسلمين دومة الجندل، وهكذا استقام للمسلمين في فترة وجيزة أمر العراق الغربي: وتم لخالد ومن معه من القواد والجنود، وتم للخليفة أبي بكر الصديق، وتم للجميع ما أرادوه من أمر العراق، وقضى على فلول الردة هناك، وتم طرد الفرس منها.

\* أمر أبي بكر لخالد بالتوقف:

لكن أبا بكر أمر خالدًا بأن يتوقف عند هذا الحد، وألا يتوسع في أرض فارس، حتى لا يؤتي من قبل الفرس في عقر دارهم، وما عليه إلا أن ينتظر في الحيرة حتى يعد للأمر عدته، أو يحوله أبو بكر إلى جهة أخرى، وهذا ما كان فعلًا، فقد حوله أبو بكر بنصف الجيش الذي كان معه إلى بلاد الشام لنصرة المسلمين هناك.

\* انتصار المسلمين في كل معاركهم مع الفرس:

إن المتتبع لحركة الجيوش في أرض العراق يجد أن النصر كان حليف المسلمين في كل موقعة نازل فيها المسلمون الفرس ومن تابعهم؛ فكانت وقعة الأبله حيث هزم فيها الفرس، وقتل خالد "هُرْمُزًا" قائد جيش الفرس، وصاحب ثغر "أبله". وهذه كانت أول وقعة بين المسلمين والفرس، وأرسل خالد البشارة وخمسة الغنيمة إلى أبي بكر الصديق.

ولما وصل خير الهزيمة إلى ملك الفرس واسمه "أزدشير" ومقامه بالمدائن - مدائن كانت للأكاسرة على نهر دجلة جنوبي بغداد وهي شرقية وغربية وكان في الشرقية إيوان كسرى الشهر - أرسل جيشًا آخر يقوده "قارن" وكانت (وقعة الثني منعطف النهر قرب البصرة. وانتصر فيها خالد والمسلمون) ثم أرسل الملك جيشًا آخر بقيادة "جاذويه" فعسكر في الوجبة، وكانت وقعة الوجبة وانتصر فيها المسلمون، ثم غضب نصارى قبيلة بكر بن وائل لمقتل عدد منهم فاجتمعوا بأليس "مكان في أرض العراق من ناحية البادية" وكتبوا ملك الفرس ليمدهم، فسير إليهم "جابان" وكانت موقعة "أليس" - موضع على الفرات من قرى الأنبار - وانتصر عليهم خالد، ثم قصد خالد الحيرة وهي عاصمة ملوك العرب من قبل الفرس وهي تقع غرب الفرات على قرب من الكوفة، وحاصرها خالد ودعا أهلها إلى الإسلام، ولكنهم رفضوه، ثم قبلوا المصالحة، وأرسل خالد بالجزيرة والهدايا التي أهديت إليه من قبل ملوك الحيرة إلى أبي بكر، ثم سار خالد من الحيرة قاصدًا "الأنبار" وهي مدينة على شاطئ الفرات شمال الكوفة، وصالح قائدها "شيرزاد" المسلمين، فقبل خالد الصلح وسيره إلى مأمنه، ثم سافر خالد قاصدًا عين التمر، وهي بلد في بزة العراق على بعد ثلاثة مراحل "بالأنبار"، ووجد خالد بها جمعًا عظيمًا من الفرس عليهم "بهرام بن بهرام"، ومعهم عدد عظيم من العرب الذين يقيمون بتلك الجهات تحت حكم الأكاسرة، وجعل الفرس العرب في المقدمة لأنهم - أي العرب - أدري بقتال العرب، فحمل خالد على رئيسهم فأسره وانهمز قومه، ولما رأى ذلك "بهرام" هرب هو وجيشه وبعث خالد بالخمسة والبشارة إلى أبي بكر.

ثم سار من عين التمر قاصدًا "ذومة الجندل" ليعين عياض بن غنم على فتحها، وكان بها عدد كبير من نصارى العرب، ولكن الله فتحها على المسلمين، ودخل خالد الحصن عنوة، ثم سار خالد إلى عرب الجزيرة الذين ثارت حميتهم لمن قتل من العرب بعين التمر، وجاءهم المدد من الفرس، ولكن الله عز وجل هزمهم شر هزيمة وقتل قائد جيش

الفرس، وهي ما تعرف بوقعة "الحصيد" والخنفس"، ثم سار خالد إلى "الفراض" وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة، وكان بها جمع عظيم من الفرس والروم والعرب، واتفقوا جميعاً على حرب المسلمين وعبروا نهر الفرات، فقاتلهم خالد ومن معه من المسلمين قتالاً شديداً حتى انهزم جيش الشرك، وبعدها رجع خالد إلى الحيرة؛ ليستقر بها منتظراً أوامر الخليفة<sup>(١)</sup>. ثم جاء كتاب الخليفة يأمر خالدًا بأن يسير حتى يأتي جموع المسلمين في اليرموك، وجاء في هذا الكتاب: "أما بعد فدع العراق وخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه، وامض مخفياً مع أهل القوة من أصحابك الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصاحبوك في الطريق، وقدموا عليك من الحجاز؛ حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام"<sup>(٢)</sup>.

وسار خالد إلى الشام، واستخلف على جيش العراق المثنى بن حارثة الشيباني، فأقام بالحيرة وكلان الفرس قد جمعوا كلمتهم، ووجدوا جيشاً كبيراً يقوده هرمز، فخرج إليه المثنى من الحيرة وقابله في بابل، ودارت معركة عظيمة انتصر فيها المسلمون وهزم هرمز وجيشه، وأبطأ خير أبي بكر على المثنى، فاستخلف مكانه على جيشه "بشير بن الخصاصية" وتوجه إلى المدينة؛ ليستأذن أبا بكر في الاستعانة بمن حسنت توبته من المرتدين، فوجده مريضاً، فاستحضر أبو بكر عمر بن الخطاب وقال له: إني لأرجو أن أموت يومى هذا، فإذا مت فلا تمشين حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم، فقد رأيتني وقت وفاة رسول الله ﷺ وما صنعت، وما أصيب الخلق بمثله، وإذا فتح الله على أهل الشام: فاردد أهل العراق إلى عراقهم فإنهم أهل ولاة أمره وأهل الجرأة عليهم.

(١) انظر تفصيلات هذه الوقائع العسكرية في كتاب إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء للشيخ محمد الخطري ص ٤٥

٥٢ - وكذا تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٤٣، ٣٨.

(٢) التاريخ الإسلامي للأستاذ محمود شaker ج ٣ ص ٨٨.

هذا ما انتهى إليه أمر فارس في عهد الصديق، حيث تقلص ملك الفرس عن كل الأراضي الخصبة التي في غربي الفرات، وهو ما يعبر عنه بريف العراق، فصار حد مملكة الفرس هو نهر الفرات<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: الفتوحات في الشام:

• محاولات الرسول (ﷺ) في فتح بلاد الشام:

لقد كان أول أمر المسلمين مع الروم كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم، وقد استيقن هرقل بنبوة الرسول وكاد أن يسلم، لولا أنه خشى على نفسه وعلى ملكه من قومه - خاصة - البطارقة ورجال الدين المسيحي، فأثر العاجلة على الآجلة ولم يسلم.

كما أرسل النبي ﷺ كتاباً إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان بالبلقاء من أرض الشام وعامل قيصر على العرب، أرسل إليه يدعو إلى الإسلام، فأدركته العزة بالإثم وقتل رسول رسول الله، وصمم على غزو النبي، ولكن جاءت إليه الأوامر من قيصر الروم ينهاه عن ذلك.

ثم جهز النبي ﷺ جيشاً في السنة الثامنة من الهجرة بقيادة زيد بن حارثة، ودفعه إلى الشام، فوصل إلى (موتة) وجمع له الروم جمعاً كثيراً يزيد على المائة ألف ودارت معركة جند الله وجند الرومان، ولكنه لم يكن هناك تكافؤ بين الجيشين من ناحية العدد، فاستشهد زيد ثم أخذ جعفر بن أبي طالب الراية فاستشهد الثاني، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فاستشهد أيضاً، ثم استلمها خالد بن الوليد فأخذ يناور ويحاور حتى انسحب ببقية الجيش، ونجا المسلمون من موت محقق للجميع أمام هذه الجموع الغفيرة في عددها وعدتها.

(١) إتمام الوفاء ص ٥٤.

وفي السنة التاسعة تجهز رسول الله لغزو الشام، وصرح عن وجهته، وكان بالمسلمين جهد، لكنه ﷺ صمم على غزو الروم في هذه السنة، وتحرك بالمسلمين حتى وصل إلى (تبوك) فمكث بها بضع عشرة ليلة ولم يجد جمعاً للروم فعاد، بعد أن صالح يوخنا بن رؤبة صاحب أيلة على الجزية، وكذا صاحبي جوباء وأضرح، ورجع ﷺ إلى المدينة، وقد أمن حدود الدولة الإسلامية وألح بفعله هذا إلى ضرورة فتح الشام.

وفي السنة التي توفي فيها رسول الله ﷺ جهز سرية بقيادة أسامة بن زيد؛ لتوجه إلى قضاة حتى يثأر لأبيه ولشهداء المسلمين في مؤتة، ولكنه ﷺ انتقل إلى جوار ربه، قبل إنفاذ الجيش فأوصى بإتفاذه، ولما ولي أبو بكر أمور الأمة، كان في مقدمة أعماله إنفاذ جيش أسامة، وسار أسامة حتى وصل إلى هناك وأوقع بقبائل من قضاة، وعاد سالمًا غانمًا.

#### \* إرساله أبي بكر الجيوش إلى بلاد الشام:

ولما عقد أبو بكر الألوية في "ذي القصة" حيث وجه الجيوش الإسلامية إلى قتال المرتدين ومانعي الزكاة كان من بينها لواء لخالد بن سعيد بن العاص، ووجهه إلى مشارف الشام، ثم أمره أن يكون ردعاً للمسلمين بتيما، لا يفارقها إلا بأمره، ولا يقاتل إلا من قاتله. ولما علم الروم بذلك جهزوا جيشاً كبيراً من العرب التابعين لهم من لحم وجذام وغسان، وكان خالد - كما وصفه عمر - مقدمًا محجماً فلما رأى الجيش تجمع له، نازهم، وتصنعوا الهزيمة له فانسحبوا، فقتبهم، وأوغل في أرض الشام حتى وجد نفسه محاصراً هو ومن معه من المسلمين واستطاع أن يهرب هو وبعض رجاله، وذهب ليطلب نذ من أبي بكر، فتهرة لمخالفة أمره، حيث أقدم على الحرب وتوغل في أرض الروم بدون استئذان، ولم يسمح له بدخول المدينة.

وعلى التو أرسل أبو بكر عكرمة بن أبي جهل إلى هناك، فاستطاع أن يناور ويحاور حتى خلص المسلمين من الحصار، ووقف عكرمة بالجيش الذي جاء معه، وبالجيش الذي كان مع خالد بن سعيد بن العاص، على الحدود ردعاً للمسلمين.

وقد أثار ما فعله الرومان والقبائل العربية الموالية لهم بجيش خالد بن سعيد، أثار جفيظة أبي بكر على الروم، فبدأ يهتم بأمر الشام، وأخذ يضع الخطة لغزو الشام - خاصة - وأن المسلمين في العراق حققوا نصراً كبيراً على الفرس والقبائل الموالية لهم هناك.

وأرسل أبو بكر إلى عمرو بن العاص وكان والياً على سعدي وهذيل من قضاة يعرض عليه أن يحوله إلى مكان آخر، فكتب إليه عمرو: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد رسول الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاشها وأفضلها فارم به"، فأمره أبو بكر بالقدوم فقدم وجهز أبو بكر أربعة جيوش سيرها إلى الشام.

كان علي أحدها عمرو بن العاص، ووجهه إلى فلسطين، وقال له: إن نصرك الله وفتحها عليك فأنت واليها.

كان علي أحدها عمرو بن العاص، ووجهه إلى فلسطين، وقال له: إن نصرك الله وفتحها عليك فأنت واليها.

وكان علي الثالث يزيد بن أبي سفيان، ووجهه إلى البلقاء "دمشق" وقال له: إن نصرك الله وفتحها عليك فأنت واليها وأمه بأخيه معاوية بن أبي سفيان.

وكان علي الرابع أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، ووجهه إلى حمص، وجعل له ولايتها، إن أتم الله عليه فتحها.

وشيع أبو بكر الجيوش الأربعة، وأوصاهم بما فيه صلاح دنياهم وأخراتهم.

ولما علم الروم بذلك، أعدوا للأمر عدته، ووجهوا لكل جيش من الجيوش الإسلامية الأربعة جيشاً كبيراً يفوق طاقة الجيش، ووجد القواد الأربعة أنهم لا طاقة لهم منفردين بحرب الروم، فتشاوروا فيما بينهم، واستقر الرأي على أن تتجمع الجيوش الأربعة

في مكان واحد، وأرسلوا إلى أبي بكر فوافق وأقرهم على هذا العمل، والتقى الجمعان على نهر اليرموك، وعبر المسلمون النهر، وتواجه الجيشان ومكثا فترة طويلة (صفرًا والربيعين) يهاب كل منهما الآخر، وكانت تحدث مناوشات خفيفة أشبه بحبس النبض لكلا الفريقين.

### \* انضمام خالد بن الوليد للجيش في الشام:

وأرسل الأمراء إلى أبي بكر يطلبون منه المدد، فكتب إلى خالد بن الوليد أمير الجيش في العراق آنذاك، وأمره أن يستخلف على الجند المثنى بن حارثة، ويتجه بنصف الجيش إلى الشام مددًا للجيش الإسلامية هناك، وقال أبو بكر كدسته المشهورة: "والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد".

وكان أبو بكر يعرف من خالد الإقدام، بل الغلو في الإقدام، وكان مطمئنًا إلى أن المسلمين حين ينضم إليهم خالد لن يغلبوا من قلة، إذا أخلصوا النية، ونصحوا الله ورسوله، وجاهدوا عدوهم صادقين.

وقد وصل خالد إلى الشام بعد مغامرة خطيرة في طريقة الذهاب من العراق إلى الشام، فلم يسلك خطأ مستقيمًا بالجيش، ولكنه أخذ طريقًا منحنيًا نحو الجنوب في الصحراء، وأعد للأمر عدته في هذه الرحلة الشاقة وسط الصحراء الجذباء المهلكة، فلا ماء فيها ولا زرع، فظمًا الإبل، ثم سقاها عللاً بعد نخل، ثم صرَّ آذانها، وشد مشافرها، واستكثر من الماء ما استطاع، فكان إذا ظمأت الخيل والمطايا، نحر بعض هذه الإبل، واستخرج من بطونها الماء فسقاها منه، وطعم الناس من لحومها.

ولعلنا نتساءل لماذا فعل خالد ذلك؟ ولماذا لم يسلك طريقًا مباشرًا من الحيرة إلى الغرب؟، والإجابة على ذلك تدل على عبقرية خالد العسكرية؛ لأنه لو سلك طريقًا مباشرًا لاصطدم مع الروم في ثغورهم المتفرقة وسط البادية، وأهلك قواته، وأضاع على

المسلمين المجتمعين في اليرموك فرصة وصوله إليهم، فكان حريصاً على أن يسلك بالجيش طريقاً يبعده عن الاحتكاك أو الانشغال بجيوب صغيرة، لأنه يريد المعركة الكبيرة التي سيفصل الله فيها بين الكفر والإيمان.

ووصل خالد في خمس ليالٍ، وجعله أبو بكر أميراً عاماً على الجيش الذي تجتمع في اليرموك، وكتب إلى الأمراء الأربعة، يخبرهم بأنه أمدهم بخالد، وأن له الإمارة عليهم، فإذا فتح الله عليهم جميعاً، فإن كل واحد من الأمراء الأربعة، يصير والياً على ما كان ولاءه عليه الخليفة أثناء إنفاذه.

وتذكر بعض الروايات أن تولية خالد أميراً عاماً على الجيش لم يكن بأمر أبي بكر، وإنما بتشاور القادة مع بعضهم، فأشار عليهم خالد، أن يجعلوا أميراً عاماً على الجيوش كلها يقودها يوماً، ثم يقودها واحد آخر يوماً ثانياً، وهكذا يتناوبون الإمارة العامة مع بعضهم، ورحب خالد أن يعطوه الإمارة العامة اليوم الأول من لقاء الروم ففعلوا. ولكن الذي نراه هو أن المسألة تمت لخالد ليس عن مشورة، وإنما بأمر أبي بكر، بدليل أن عمر بن الخطاب، لما ولي أمور المسلمين بعد وفاة أبي بكر أرسل يعزل خالدًا ويولي مكانه أبا عبيدة.

### \* بداية المعركة مع جيوش الرومان:

ولما وصل خالد وأصلحت له الإمارة على الجيوش، لم يمهل العدو، وإنما بدأ على الفور في تعبئة جند المسلمين بطريقة مبتكرة لم يعهدها الرومان من قبل، وهي تقسيم الجيش إلى كراديس أي كتل من الجنود أو بتعبير العصر "فروق" فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة، وجعل الممنة كراديس وأقام فيها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة، وجعل الميسرة كراديس وأقام فيها يزيد، وجعل على كل كردوس رجلاً من الشجعان، وبلغ عدد الكراديس ستة وثلاثين وكان قوام كل كردوس ألف رجل.

ثم أمر خالد القعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل أن ينشبا القتال فأنشبا،  
والنحم الناس وتطارد الفرسان، وظهرت الشجاعة والإقدام من خالد ومن معه من القادة  
والجنود في هذه المعركة أعظم ما تكون، وحملوا على الرومان حملة أزالوا فيها الرومان عن  
مواقعهم، ونهض خالد بالقلب حتى حال بين خيل المشركين ورجلهم، فانهزم الفرسان،  
وتركوا الرجالة، فحمل المسلمون واشتدوا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، رغم  
أن عدد المسلمين لم يجاوز الأربعين ألفاً، بينما وصل عدد الروم نحو مائتي وأربعين ألفاً.

وكان لخالد خطته وطريقته الخاصة في القتال، وهي تعتمد على التحرك بسرعة في  
عمق العدو، والإغارة على مواقع خصمه المتأخرة، ثم التقهقر بسرعة لمواجهة العدو من  
الأمام، وعندما يشعر العدو أن مجموعات من خصمه تعمل خلف خطوطه الأمامية  
تضعف معنوياته ويرتبك أعظم ارتباك، وكان خالد يجوار هذه العملية الحربية القائمة على  
الكر والإقدام، والضرب من الخلف والامام في سرعة فائقة، كان حريصاً على أن يبقى  
جزءاً من الجنود خلف المعركة لصد أي هجوم مرتقب من الخلف، وهذا ما رأيناه في قتاله  
في العراق إذ وصل إلى نقاط بعيدة من أرض العدو، على حين لم تخلص أرض السواد بعد،  
ولا منطقة الحيرة نفسها<sup>(١)</sup>.

وطبق خالد خطته العسكرية هذه مع الرومان كما طبقها قبل ذلك مع الفرس،  
ونجح خالد في خطته مع الرومان، وأبلى بلاءً حسناً، وأبلى معه المسلمون جميعاً، وقاتلت  
النساء المسلمات في هذه المعركة قتالاً شديداً، وكن يُدفعن بسيفهن من تسول له نفسه  
من جند المسلمين أن يتراجع.

وأبلى أبو سفيان بلاءً حسناً، وكان يقوم بدور المشجع والمحفز للهمم، فكان يقف  
على الجنود ويقول لهم: الله الله يا حماة الإسلام، إنكم زادة العرب وحماة الدين، وإنهم

(١) التاريخ الإسلامي ج ٣ ص ٩٥.

زادة الروم وأتصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك، وكان يقاتل جندياً تحت إمرة ولده يزيد، رضي الله عنهم أجمعين<sup>(١)</sup>.

وبينما الحرب على أشدها وحسى الرطيس، جاء بريد المدينة بموت الصديق وخلافة عمر بن الخطاب، وفيه أمر بعزل خالد عن إمرة الجيش، وتولية أبي عبيدة مكانه، وكان الرسول وحامل البريد هو "محمية بن زنيم" وأخفى أبو عبيدة الخبر عن خالد وعن المسلمين حتى لا يقلل من عزيمه الرجال، ولما سأل خالد عن البريد قالوا له: السلامه وقرب. وصول الإمداد، ولم يبلغ خالد بالخبر إلا بعد المعركة.

وتوفي أبو بكر الصديق ﷺ ولم يشهد نصر المسلمين في اليرموك، لكنه ﷺ مات وهو مطمئن النفس، واثق من نصر الله لهم على الرومان، كما انتصروا قبل ذلك على الفرس، وتحطم كبرياء الدولتين الكبيرتين، اللتين كانتا تقفان في وجه الدعوة. وتدعمان المرتدين من أجل القضاء على الإسلام، ولكن الله بالغ أمره، وتمم نوره ولو بكره الكافرون.

(١) انظر تفصيلات معركة اليرموك في تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٩٤ - ٤٠٢ وقد سرد الطبري روايات كثيرة عن البطولات الإسلامية في هذه المعركة من الرجال والنساء.



سياسة أبي بكر الداخلية وأهم  
أعماله

أولاً: سياسته وأعماله في الخارج.

ثانياً: سياسته وأعماله في الداخل.

- ١- فرض نفقة لولي الأمر.
- ٢- المساواة في توزيع الغنائم والقيء.
- ٣- جمع القرآن الكريم.
- ٤- استخلاف عمر بن الخطاب.

أولاً: سياسته وأعماله في الخارج:

رغم قصر مدة خلافة الصديق رضي الله عنه، إلا أنه قد أنجز فيها من الأعمال الكثير والكثير. ففي السنة الأولى من خلافته قضى على ردة الجزيرة ووحّد الجبهة الداخلية، وجمع الأمة الإسلامية على كلمة سواء.

وفي السنة الثانية من خلافته دفع بجند الإسلام إلى بلاد فارس والرومان، من أجل نشر الإسلام وتبليغ الدين إلى هذه الأمم المحرومة من أنوار الهداية الصحيحة. وإن الناظر في أعمال أبي بكر في جملتها، سيجد أن جلها كان حروباً وفتالاً، سواء في الداخل أم في الخارج، وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول: إن عهد أبي بكر كان عهد جهاد دائم من أجل الإسلام.

ثانياً: سياسته وأعماله في الداخل:

ومع هذه الصفة التي اتصف بها عهد أبي بكر رضي الله عنه، إلا أننا نستطيع القول بأنه يجوار هذا الجهاد كانت رعايته الدائمة لأمر الأمة الإسلامية في الداخل، فكان في وقت واحد يرعى الجيوش في جهات القتال، ويزودها بالإمداد، وبالنصائح، بحيث لا يقطعون أمراً إلا

يأذنه، ويرعى شئون الأمة في الداخل فيقيم لها الحدود، ويسوي بينها في العطاء، ويتعهد فرائض الله، ويهتم بأمر البيوت، ويسعى في حوائج الناس ما وسعه ذلك.

وإذ كنا لم نلاحظ في عهد أبي بكر تنظيمات داخلية جديدة مثلما فعل عمر بن الخطاب، فإن سبب ذلك يرجع إلى قصر مدة خلافة الصديق، وإلى عدم توسع رقعة الدولة الإسلامية بعد، وإلى شغله الدائم بأمر الجهاد ورعاية الجيوش هنا وهناك. ومجوار هذه الأسباب يوجد سبب رئيسي وهو أن أبا بكر رضي الله عنه قررو أن يسير بالأمة كما سار بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه أعطى العهد للأمة أنه يتبع ولن يتدع، فكان رضي الله عنه يتحرى ألا يضع شيئاً لم يصنعه رسول الله، وهذا ما رأيناه حينما أشار عليه بعض الصحابة بجمع القرآن الكريم بعد مقتل كثير من القراء في حروب الردة، فكان رده كيف أصنع شيئاً لم يصنعه رسول الله، ولولا مراجعة الصحابة له، وحرصهم على إنجاز هذا العمل لما أقدم عليه.

وقد بين رضي الله عنه منهجه في الحكم، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه يا أيها الناس إنما أنا منكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان رسول الله يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمتم فتابعوني، وإن زغت فقوموني<sup>(١)</sup>.

هذا فوق أن المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت، كان قريب العهد بأنوار النبوة والأمور بين الناس تسير على نحو طبيعي، فالصلاة مقامة، والإمانات محفوظة، والحدود مرعية، والناس متعاونون ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، فالتكافل والتحابب والتألف موجود بين لحمة المجتمع لا فرق بين عبد وحر، ولا بين عربي وعجمي إلا بالتقوى.

(١) التاريخ الإسلامي ج ٣ ص ٦٤.

ومعنى ذلك: أنه لم يوجد في سلوكيات الناس ما يستدعي تنظيمات جديدة ولم يطرأ على أحوال المجتمع تغيرات تذكر حتى يحتاج الأمر إلى إعادة نظر في طريقة سياسة الأمة، وما يشهد لذلك: أن أبا بكر أقام عمر بن الخطاب للقضاء بين الناس، فكان يمكث الشهر والشهرين، ولا يأتيه أحد، مما يدل على سلامة البنيان الداخلي، وتوفر الأمن والأمان بين أفراد المجتمع.

وإذا كان هناك من أعمال تذكر على صعيد السياسة الداخلية في الدولة الإسلامية في عهد أبي بكر فإننا نذكر أربعة أمور نوضحها فيما يلي:

**الأول:** مسألة فرض نفقة من بيت المال لولي الأمر تكفيه هو وأهل بيته وتغنيه عن السعي في طلب الرزق، حتى يتفرغ لرعاية شؤون الأمة؛ لأن سياسة الأمة عمل يحتاج إلى تفرغ.

وقيل إن أبا بكر هو الذي فعل ذلك فترك تجارته وقال: ما تصلح الناس أمور التجارة، وما يصلح لهم إلا التفرغ والنظر في شأنهم، وأنفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوماً بيوم، وكان يحج ويعتمر، ثم فرضت له الأمة شيئاً معلوماً يقوم بكفايته وقدره ثلاثة آلاف درهم سنوياً.

وقيل إن الذي فعل ذلك هو عمر بن الخطاب حينما وجده ذاهباً إلى السوق، وقال عمر: والله ما يصلح هذا الذي دخلت فيه من أمور المسلمين مع أمر تجارتك، فقال أبو بكر ومن أين أعول أولادي؟

فقال عمر تعالى نفرض لك من بيت المال ما يكفيك أنت وأولادك، ووافق المسلمون على رأي عمر، وفرضوا له في السنة ألفين وخمسمائة درهم، فوجدها أبو بكر لا تكفي فزادوه خمسمائة أخرى فصارت ثلاثة آلاف درهم، وأعطوه ناقه حلوباً، وغلماً يخدمه، وقطيفة يجلس عليها، وما عليه يحج ويعتمر، ورضي أبو بكر بذلك.

واستقر هذا المبدأ في حياة الأمة، وهو ضرورة قطع جزء من بيت المال للحاكم بقدر كفايته هو ومن يعولهم، حتى يتفرغ لرعاية شئون الأمة، فلا يجتمع سياسة الأمة والسعي في طلب الرزق في وقت واحد.

الثاني: هو المساواة في توزيع الفياء والغنيمه على المسلمين فكان ﷺ يقسم ما يصل إليه من أموال على المسلمين بالسوية، لا يفرق بين رجل وامرأة ولا بين حر وعبد ولا بين مهاجري وأنصاري. ولا بين قريب للنبي في نسبه أو بعيد عنه في النسب.

ولما كلمه بعض الصحابة في ذلك، وقالوا له كيف تسوي في العطاء بين السابقين إلى الإسلام والمجاهدين مع رسول الله، وبين غيرهم؟ قال ﷺ: إن أجرهم على ذلك عند الله، وإنما الدنيا بلاغ، وسرى أن عمر ﷺ خالف ذلك المنهج فكان يقسم للناس على حسب قرابتهم من رسول الله، وعلى حسب سبقهم في الإسلام، وجعل الناس في العطاء درجات يتفاوت بعضهم فوق بعض على حسب الفضل في الدين والقربى من رسول الله ﷺ.

الثالث: هو جمع القرآن الكريم فقد أخرج البخاري عن زيد بن ثابت ﷺ قال: أرسل إلي أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر (زاد وكثر) يوم اليمامة بالناس، وإني لأخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعه، وإني لأرى أن يجمع القرآن، قال أبو بكر: فقلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، فرأيت الذي رأى عمر، قال زيد: وعمر عنده جالس لا يتكلم، فقال أبو بكر: إنك شاب عاقل ولا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، قال زيد - فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن فقلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ؟ فقال أبو بكر هو والله خير، فلم أزل أراجع حتى شرح الله صدري للذي

شرح له صدر أبي بكر وعمر، ففتبت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال وكنت أشهد على كل آية رجلين، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة (ونحن نعلم أن خزيمة هذا قد جعل الرسول شهادته بشهادة رجلين) فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها<sup>(١)</sup>.

وأخرج أبو يعلى عن عليّ قال: أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، كان أول من جمع القرآن بين اللوحين.

وهكذا أنجز في عهد أبي بكر أعظم عمل في حياة المسلمين وهو جمع القرآن في مكان واحد، ورأينا الدقة التي جمع بها القرآن من قبل زيد بن ثابت رحمه الله تعالى، فكان لا يثبت الآية إلا بعد أن يجدها عند رجلين، وما وجدته عند خزيمة وحده، فإن الرسول جعل شهادة خزيمة بشهادتين، وتم جمع القرآن في عهد أبي بكر، وقيل إنه ابتداء الجمع في عهد أبي بكر وتم في عهد عمر، المهم أن أبا بكر هو أول من شرع في هذا العمل ووجه إليه زيد بن ثابت، والصحائف التي جمعت بأمر أبي بكر لم تكن معروضة على الناس، إنما كانت محفوظة عند الشيخين، ولم يذع أمره بين الناس إلا حينما جاء عثمان ونسخ المصاحف ووزعها على الأمصار، وكان عمدته في ذلك الصحائف التي جمعت في عهد أبي بكر.

ومعنى ذلك: أن الجمع في عهد أبي بكر كان جمع القرآن في مكان واحد، والجمع في عهد عثمان كان جمع الناس على مصحف واحد حتى لا يختلفوا في القراءة والله أعلم.

(١) راجع الحديث في صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن وانظر فتح الباري جـ ١٩

ص ١٢ طبعة المكتبات الأزهرية.

الرابع هو: استخلافه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه من بعده:

وفي الحقيقة أن هذا العمل من أبي بكر يعتبر من أجل الأعمال التي قدمها أبو بكر في حياته، وهو في الوقت ذاته من أجل الخدمات التي قدمها أبو بكر للمسلمين بعد وفاته، وكان رضي الله عنه ثاقب البصر والبصيرة، فحينما أحس بدنو أجله، ونظر في أمور الأمة، وجد أن جيوش المسلمين في الشام والعراق بإزاء الأسدين الكاسرين فارس والروم، وأن العرب حديث عهد بالردة، ويخشى إن ترك الأمر بعده شورى بين المسلمين، أن يتنازعو ويفتنوا، ويتطلع إلى الأمر من ليس أهلاً له، فيضر بمصالح الأمة في الداخل، ويفت في عضد المسلمين على جهات القتال، فيصيرون لقمة سائغة لأعدائهم، إذن فالأمر جد خطير ويحتاج إلى حسم، وعلى الفور شرع أبو بكر في اختيار من يخلفه على المسلمين، وتطلع جوله فلم يجد مثل عمر في حزمه وقوته وحرصه على دين الله ومصالح الأمة، فوقع الاختيار عليه، وأراد أبو بكر أن يحتاط للأمر، وأن يشرك المسلمين في هذا الاختيار، حتى لا يستأثر به وحده، وقد يكون لهم رأي في عمر غير ما يرى، وهذا لعمرى - من تمام النصيح للأمة.

وأخذ أبو بكر يسأل خيرة الصحابة عن رأيهم في عمر، سأل عبد الرحمن بن عوف، وسأل عثمان بن عفان، وسأل علي بن أبي طالب، وسأل بعض الأنصار. وقد أتلفت شهادات هؤلاء في عمر صدر أبي بكر، حيث أثنى عليه الجميع خيراً، وأنه بأجماع أفضل المسلمين بعد أبي بكر لهذا الأمر، ووجد أبو بكر أن نظرتة في عمر كانت صائبة، وأنه بحق هو الجدير برعاية الأمة بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه، وكتب أبو بكر كتاباً عهد فيه إلى عمر بالأمر من بعده جاء فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة، في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلياً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إنني أستخلف عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإني

لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

ثم أشرف أبو بكر على الناس فقال: أيها الناس إني قد عهدت عهداً أفترضونه؟ فقال الناس رضينا يا خليفة رسول الله، فقام علي وقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر. وأبما كان الأمر، فإن هذا العهد الذي عهد به أبو بكر، وحاز الرضا من خاصة المسلمين وخيرتهم، أو بمعنى آخر حاز الرضا والإجماع من أهل الحل والعقد، فإنه والحالة هذه يعتبر بيعة خاصة؛ أو مجرد ترشيح ونصح للمسلمين؛ وما كان له النفاذ إلا بعد وفاة أبي بكر وإقبال الناس على عمر، يبايعونه البيعة العامة، التي صار بعدها خليفة للمسلمين بعد أبي بكر، وقبول الأمة وإجماعها.



وصية أبي بكر الصديق ﷺ ووفاته

لسبع خلون من جمادى الآخر سنة ثلاث عشرة من الهجرة حُمَّ أبو بكر، واستمر مرضه حتى توفاه الله تعالى بين المغرب والعشاء يوم الاثنين لثمان بقين من جمادى الآخرة، وكانت سنه ثلاثاً وستين سنة، وهو بذلك قد استوفى سن رسول الله، ودفن من ليلته ببيت عائشة إلى جنب قبر رسول الله ﷺ، وجعلت رأسه مقابل كتب رسول الله ﷺ.

• وصية أبي بكر ﷺ قبل وفاته:

لما مرض أبو بكر وشعر بدنو أجله جمع أهل بيته حوله فقال لهم: أما إننا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكننا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، فانظروا ماذا في مالي منذ دخلت الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي وابعثوا منه، فإني قد كنت استحلته وأستصلحه جهدي.

وقال: إن عمر لم يدعني حتى أصبت من بيت المال ستة آلاف درهم وإن حائطي الذي يمكن كذا وكذا فيها.

وهكذا رأينا أبا بكر يضع دستوراً للحاكم المسلم، حتى يكون نبراساً لكل من يتولى أمر المسلمين بعده، فليس بيت المال ثعباناً، وليس ما يجوزده منه حقاً مكتسباً يقطعته ثورثته من بعده - كما نرى في عصرنا هذا - وإنما غاية ما يخصه من بيت المال هو ما يقوته ويقوت عياله، فإذا مات رد إلى بيت المال ما كان قد أخذه وبقي عنده، وقد بلغ من ورع أبي بكر ﷺ أن يدفع إلى بيت المال بستاناً له قبل الخلافة تعويضاً عن المال الذي استنفقه من بيت مال المسلمين، وأوصى برد الناقة الحلوب، والغلام الوبي الذي كان يخدمه، والقطيفة التي كان يجلس عليها، والتي كانت تقدر قيمتها بخمسة دراهم، ولما تسلمها عمر بكى وقال: رحمة الله على أبي بكر لقد أتعب من جاء بعده.

ثم ضرب عمر هو الآخر نموذجًا فذا لكل حاكم يأتي إلى الحكم حينما قبل هذه الأشياء وردها إلى بيت المال، ولم يجامل أو يجابي في حق من حقوق الله فأخذ القطفة، والناقة والغلام، والناضح الذي كان يستقي بستان أبي بكر، وردها إلى بيت المال، ولكنه رد على أولاد أبي بكر البستان، لأنه رأى أن ما أخذه أبو بكر من أموال لنفقته كانت بمثابة أجره له على عمل الولاية، وأن ما أخذه حقًا له، فلا يعوض عنه، وقال عمر لعبد الرحمن بن عوف حينما راجعه في أخذ هذه الأشياء من أبي بكر وجعلها في بيت المال، فقال له عمر ماذا ترى؟ قال عبد الرحمن تردهن على عياله، فقال عمر: لا والذي بعث محمدًا بالحق، لا يكون هذا في ولايتي أبدًا، ولم يكن أبو بكر ليخرج منهن عند الموت، وأردهن أنا على عياله، الموت أقرب من ذلك<sup>(١)</sup>.

وهكذا ضرب أبو بكر المثل الأعلى في الزهد والإنصاف من نفسه، وضرب عمر هو الآخر المثل الأعلى في الحزم ووضع الأمور في نصابها الصحيح، لم يجامل أو يداهن في الحق، وإنما كما قال: الموت أقرب من ذلك. رحمة الله عليهما وسائر الصحابة أجمعين.

ولما شعر بدنو أجله ﷺ أوصى بأن تغسله زوجته أسماء بنت عميس يعينها عبد الرحمن بن أبي بكر فيصب على أبيه الماء وهي تدلكه، وأوصى أن يدفن بجوار رسول الله ﷺ، وأوصى أن يكفن في ثوبين غسيلين.

وفي اليوم الذي توفي فيه سأل أي يوم هذا؟ فقيل له: الاثنين، قال: فأني يوم قبض رسول الله؟ فقيل الاثنين.

وسأل عن كفن رسول الله فقيل له: ثلاثة أثواب بيض سحولية يمان، ليس فيها قميص ولا عمامة.

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٢٢، ٤٢٣.

فقال أبو بكر: انظروا ملاءتي هاتين، فإذا مت فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فقيل له: قد رزق الله وأحسن، نكفك في جديد، قال: إن الحى هو أحوج إلى الجديد ليصون به نفسه عن الميت، إنما يصير الميت إلى الصديد وإلى البلى.

وقيل إنهم اشتروا له ثوباً جديداً فوضوه فوق الغسيلين حتى صارت الأثواب ثلاثاً ولما جنزود صلى عليه عمر، ونزل في قبره عمر وعثمان وطلحة وابنه عبد الرحمن.  
« علي بن أبي طالب يوم وفاة أبي بكر:

وجاء علي بن أبي طالب يوم وفاته فوقف بالباب وقال: رحمك الله يا أبا بكر، كنت والله أول النور إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدهم يقيناً، وأعظمهم غناء، وأحفظهم على رسول الله ﷺ، وأحدهم على الإسلام، وأحناهم على أهله، وأشبههم برسول الله خلقاً وخلقاً، وهدياً وسمتاً، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله خيراً، صدقت رسول الله حين كذبه الناس، وواسيته حين غلوا، وقمت معه حين قعدوا، وأسماك الله في كتابه صديقاً، فقال: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾، يريد محمداً ويريدك، وكنت والله للإسلام حصناً، وعلى الكافرين غذاءً، لم تقلل حجتك، ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك، كنت كالجبل الذي لا تحركه العواصف، ولا تزيله العواصف - كنت - كما قال رسول الله - ضعيفاً في بدنك قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في الأرض، كبيراً عند المؤمنين، ولم يكن لأحد عندك عطمع، ولا لأحد عندك هواده، فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له، فلا حرمننا الله أجرك، ولا أضلنا بعدك<sup>(١)</sup>.

وهكذا مات الصديق بعد أن جمع تمل الأمة، ورفع راية الإسلام في بلاد الفرس والبروم، وخرب المثل الأعلى والشمودج الأمثل للحاكم المسلم.

(١) التاريخ الإسلامي ج ٣ ص ١٠٦.

---

وَضَدَّقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حِينَئِذٍ قَالًا: لَقَدْ أَتَعَبَ أَبُو بَكْرٍ مِنْ جَاءِ بَعْدِهِ.  
فَرَحِمَهُ اللَّهُ الْوَاسِعَةَ عَلَيْهِ، وَجَزَاهُ اللَّهُ عَنْ صَحْبَةِ النَّبِيِّ وَعَنْ النَّصِيحِ لِلْمُسْلِمِينَ وَعَنْ  
الْإِسْلَامِ خَيْرَ مَا يَجْزِي بِهِ الصَّادِقُونَ الْمُحْسِنُونَ آمِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

## أسئلة التقويم الذاتي

س ١: كانت هناك أسباب أساسية وراء انتصار المسلمين الدائم على الأعداء اذكر أهم سببين.

س ٢: يزعم بعض المستشرقين أن الفتوحات الإسلامية كانت من أجل الحصول على المال واحتلال البلاد، ناقش هذه العبارة في ضوء غاية المسلمين من الحروب وأساس هذه الفتوحات.

س ٣: أرسل أبو بكر جيوشاً إلى الجبهتين الشرقية والغربية في آن واحد وكان ذلك لحكمة يراها ﷺ، وضح تلك الحكمة.

س ٤: بدأ أبو بكر ﷺ بالجبهة الغربية اتباعاً لرأي الرسول (ﷺ) وضح ذلك؟

س ٥: ضع علامة (✓) أو علامة (x) أمام العبارات الآتية:

(١) كان أبو بكر الصديق أول من فرض نفقة من بيت المال لولي الأمر. ( )

(٢) كان مبدأ أبي بكر الصديق هو عدم المساواة في توزيع الفياء والغنمة بين المسلمين.

( )

(٣) تردد أبو بكر في بادئ الأمر في جمع القرآن ولكنه فعل ذلك. ( )

(٤) استخلف أبو بكر عمر بن الخطاب بعد إجراء الشورى بين كبار الصحابة.

( )

(٥) تركز جهود أبي بكر الصديق في السنة الأولى في القضاء على المرتدين وفي السنة

( )

الثانية في دفع الجنود لبلاد فارس والروم.

## الخلافة

<p>مفهوم الخليفة: هو من ينوب عن غيره ويقوم بالأمر مقامه.</p> <p>* الخلافة: هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحتهم الأخرى والذنبية الراجعة إليها.</p> <p>* أنواع الحكم: الحكم الإسلامي - الحكم الطبيعي - الحكم السياسي.</p>		<p>أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين</p>	
<p>* اسمه: عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرثد بن لؤي بن غالب بن عبد المطلب القرشي.</p> <p>* لقبه: الصديق - العتيق.</p>			ترجمته
<p>* صفاته: به فطرة نقية - كريم سخي - شجاع - فنيذ وعام.</p>			وبيعته
<p>* بيعته بالخلافة: تمت بالإجماع وكانت عن رضا واختيار المهاجرين والأنصار.</p>			بالخلافة
<p>* جوانب العظمة في شخصيته:</p> <p>١- نيافته عند الاضطراب ورشده عند التحير.</p> <p>٢- رحمة ورقة قلبه.</p> <p>٣- حزمه الشديد في الحق وصرامته عليه.</p>			

## تابع الخلاصة

\* أمور يجب التنبيه عليها:

- ١- أن الغرض من الفتوحات هو نشر الإسلام.
- ٢- أن الفتوحات إتمام لجهد الرسول (ﷺ).
- ٣- أن هناك بطولات فذة.
- ٤- عدم السماح لأهل الردة بالاشتراك في المعارك.
- ٥- أن الهدف كان شغل الجبهتين معاً.

\* الفتوحات في العراق: كانت هناك انتصارات كبيرة في كل معارك المسلمين مع الفرس.

\* الفتوحات في الشام: كانت هناك انتصارات كبيرة للمسلمين على الروم.

\* أهم أعماله:

- ١- فرض نفقة من بيت المال لولي الأمر.
- ٢- المساواة في توزيع الغنمة والفيء.
- ٣- جمع القرآن الكريم.
- ٤- استخلاف عمر بن الخطاب.

\* وصيته:

\* كانت برد ما أخذه من بيت المال - ثم تغسله زوجته

\* أسماء بنت عميس يعينها ابنه عبد الرحمن.

\* قام علي بن أبي طالب وأثنى عليه في يوم وفاته.

جهاد  
الصديق  
وفتوحاته

سياسة أبي  
بكر  
الداخلية  
وفاة أبي  
بكر  
الصديق

أبو بكر

الصديق

أول

الخلفاء

الراشدين

## المراجع المساعدة

- معجم ألفاظ القرآن الكريم مادة (خلف) جـ ١ ص ٢٦٤.
- مقدمة ابن خلدون ص ١٩٠ - ١٩١.
- صحيح مسلم كتاب البر - باب تحريم الظلم.
- السياسة والاقتصاد د. أحمد شلبي ص ٢٨، ٦٩.
- كتاب الخلافة ص ١٠.
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص ١٧٢.
- تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٠، ٣٢، ٣٥، ٣٧، ٤٤، ٣٢، ٣٢، ٤٢، ٤٨، ٤٩، ٤٧.
- التاريخ الإسلامي، محمد شاکر ص ٢٩ - ٤٧، جـ ٣ ص ٣٧، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٨٨، ٩٥، ٦٤، ١٠٦.
- السنة ومكائنها في التشريع. د. مصطفى السباعي ص ١٠١.
- تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣٢١، ٢١٣، ٢٠٨ ص ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٤٩، ٢٤٣، ٣٩٤ - ٤٠٢، ص ٤٣٢، ٤٣٣.
- تفسير ابن كثير جـ ٣ سورة النور.
- فتح الباري جـ ٦ ص ٢٣٣.
- الشيخان لطف حسين ص ٤٩.
- إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء. الشيخ محمد الخضري ص ٤٥ - ٥٣، ٥٤.

## الاختبار البعدي للوحدة

- س١: عرف الخلافة والخليفة.
- س٢: اذكر أنواع الحكم الثلاث، مع توضيح ما يتميز به الحكم الإسلامي.
- س٣: هل هناك ضرورة لإقامة الخلافة الإسلامية؟ دلل على ما تقول بالأقوال الثابتة للعلماء والأدلة الشريفة من القرآن والسنة وفعل الصحابة.
- س٤: اذكر معنى البيعة وواجبات الخليفة.
- س٥: تمتع أبو بكر رضي الله عنه بثبات واضح عند الاضطراب ظهر عند وفاة الرسول (ﷺ). وضح ذلك.
- س٦: كان هناك خلاف وآراء حول قتال المرتدين بين الصحابة، وكان لأبي بكر الصديق رأي الذي أثبتت الأيام صحته وأثبت التاريخ قيمته وأهميته في إحياء الأمة وجمعها. وضح ذلك.
- س٧: نحاض المسلمون الأوائل رضي الله عنهم المعارك مع الفرس والروم وذلك من أجل غاية وغرض نبيل وإطاعة لأمر نبيهم. وضح ذلك.
- س٨: منع أبو بكر رضي الله عنه المرتدين أن يشتركوا في حربه مع الروم والفرس، فلماذا فعل ذلك رضي الله تعالى عنه؟
- س٩: تركزت سياسة أبي بكر رضي الله عنه في الداخل على أربعة أمور، اذكرها مع شرحها بإيجاز.
- س١٠: مرض أبو بكر رضي الله عنه وأوصى بوصية تدل على فقه الحاكم وأمانته كنموذج فذلما يجب أن يكون عليه الحاكم، وضح تلك الوصية، مع ذكر بعض أقوال الإمام علي رضي الله عنه في يوم وفاته.
- س١١: يتهم بعض المستشرقين الفتوحات الإسلامية بأنها كانت من أجل الاستعمار والأموال، ناقش هذه العبارة في ضوء غاية المسلمين من هذه الفتوحات وأساسها الشرعي.



## عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين

## الوحدة الثانية

### الأهداف الخاصة

\* تتركز الأهداف الخاصة من دراسة الوحدة فيما يلي:

- أولاً: التعرف على ترجمة الخليفة الثاني ﷺ.
- ثانياً: التعرف على مبايعته بالخلافة.
- ثالثاً: التعرف على دستور حكمه للمسلمين.
- رابعاً: التعرف على فوحاته وإنجازاته في نشر الدعوة:
  - أ - الجبهة الشرقية وهي العراق وبلاد فارس.
  - ب - الجبهة الغربية وهي بلاد الشام والأناضول ومصر.
- خامساً: التعرف على فقهه وعلمه وإلهاماته ومواقفاته للقرآن الكريم.
- سادساً: التعرف على سياساته الداخلية وتنظيم الدولة:
  - أ - التأريخ الإسلامي.
  - ب - إنشاء الدواوين وتنظيم بيت المال.
  - ج - تنظيم الأمصار وتعيين الولاة.
  - د - التعسس ورعاية الآداب العامة.
  - هـ - العناية بشؤون الدين والتشريعات.
- سابعاً: التعرف على أحداث وفاته ووصيته ﷺ.

## الرسم التوضيحي للوحدة الثانية

### الوحدة الثانية

<p>* استشهاده ووصيته :</p> <p>- عظم اخذت في تاريخ المسلمين.</p> <p>- وصاياه للخليفة من بعده بالامة.</p> <p>- وصاياه قبل الموت لابنه.</p> <p>- ثناء الصحابة عليه.</p>	<p>* سياسته الداخلية:</p> <p>- التاريخ الإسلامي.</p> <p>- إنشاء الدواوين وتنظيم بيت المال.</p> <p>- تنظيم الأمصار وتعيين الولاة.</p> <p>- التعسس ورعاية الآداب العامه.</p> <p>- العناية بشؤون البلد والتشريعات.</p>	<p>* الفتوحات ونشر الدعوة:</p> <p>- الفتوحات الشرقية.</p> <p>- الفتوحات الغربية.</p> <p>- مواقف عظيمة وفريضة في الفتوحات الإسلامية</p>	<p>* ترجمته وبيعته بالخلافة:</p> <p>- اسمه ونسبه ولقبه.</p> <p>- ولادته وصفته.</p> <p>- شخصيته قبل وبعد الإسلام.</p> <p>- موافقاته وإهماته.</p> <p>- البيعة له بالخلافة.</p>
--	---	--	--

ترجمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه  
وبيعته بالخلافة

أولاً: اسمه ونسبه ولقبه. ثانياً: ولادته.  
ثالثاً: صفته. رابعاً: شخصيته في الجاهلية.  
خامساً: شخصيته في الإسلام.

أولاً: اسمه ونسبه ولقبه:

\* هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن قرظ بن رزاح بن عدي ابن كعب بن لؤي، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. فأبوه الخطاب، وخاله أبو جهل، وهما منّهما في الغلظة والنظاظة. وكان رضي الله عنه يكنى بأبي حمص، ويلقب بالفاروق، وأطلق عليه بعد خلافته لقب أمير المؤمنين، حينما استقبل الناس النداء عليه بيا خليفة خليفة رسول الله، وكان أول من أطلق عليه هذا اللقب.

\* وأما لقب الفاروق: فقد سماه به النبي صلى الله عليه وسلم، ذكر ابن سعد عن أبي عمرو ذكوان قر: قلت لعائشة منّ سمى عمر الفاروق؟ قالت: النبي عليه السلام، وذكر ابن سعد أيضاً عن أيوب بن موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه، وهرق أناره ففرّق الله به بين الحق والباطل"<sup>(١)</sup>.

(١) الطبقات الكبرى محمد بن سعد الواقدي ج ٣ ص ١٩٤ طبعة دار التحريم.

وقد استحق هذا اللقب مع باكورة إسلامه حينما قال لرسول الله بعد إسلامه: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال: بلى، قال: فقيم الاختفاء؟ فخرج المسلمون في صفين، عمر في مقدمة أحدهما، وحزرة في مقدمة الثاني، والرسول بينهما، حتى دخلوا المسجد واستعلنوا بصلاتهم، فنظرت قريش إلى عمر وحزرة فأصبتهن كآبة شديدة لم يصبهن مثلها، فسماه الرسول من يومئذ الفاروق مكافأة له؛ لأنه أظهر الإسلام، وفرق بين الحق والباطل، وصار المسلمون أعزة بإسلامه.

### ثانياً: ولادته:

ولد ﷺ في السنة الثانية والأربعين قبل الهجرة، أي بعد الفيل بإحدى عشرة سنة، وكان عمره يوم بعث النبي ﷺ تسعة وعشرين عاماً، واستمر على جاهليته مدة ست سنوات، ثم أسلم في السنة السادسة من البعثة النبوية، فكان عمره يوم أن أسلم خمساً وثلاثين سنة، وبهذا يكون قد عاش في الجاهلية خمساً وثلاثين سنة، وعاش في الإسلام ثلاثين سنة، كل سنة فيها تعدل قرناً وأكثر بما حوت من أجناد وأعمال انتفعت بها الأمة الإسلامية<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: صفته:

أخرج ابن سعد والحاكم عن زرّ قال: خرجت مع أهل المدينة في يوم عيد، فرأيت عمر يمشي حافياً شيخاً أصلع آدم أعسر (يعني يعتمد بيديه جميعاً) طوالاً مشرفاً على الناس كأنه على دابة، قال الواقدي: لا يعرف عندنا أن عمر كان آدم، إلا أن يكون رآه. عام الرمادة، فإنه كان قد تغير لونه حين أكل الزيت.

وأخرج ابن سعد عن ابن عمر أنه وصف عمر فقال: رجل أبيض تعلوه حمرة طوال أصلع أشيب<sup>(٢)</sup>.

(١) التاريخ الإسلامي ج ٢ ص ١١٤.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣٠.

## رابعاً: شخصيته في الجاهلية:

نشأ عمر في بيت من بيوت بني عدي، وكان فقيراً قليلاً المال، وكان أبوه الخطاب فظاً غليظ القلب، كما وصفه عمر نفسه فعن سعيد بن المسيب قال: حجَّ عمر، فلما كان بضجنان قال: لا إله إلا الله العظيم العلي، المعطي ما شاء من شاء، كنت أرمي إبل الخطاب بهذا الرادي في مدرعة صوف، وكان فظاً يتعيني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت، وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد<sup>(١)</sup>.

وكان عمر من رجالات قريش المشهورين بالجلد والفتوة، وكان سفير قريش، فكانت إليه السفارة بين قريش وبين القبائل الأخرى فيما إذا وقع خلاف أو حدث قتال. ولكنه رغم ذلك لم يكن له من الشهرة والمركز في الجاهلية، لقلة ماله، وقلة أسرته في العدد، فالمال والولد، كانت هي المقاييس التي يوزن بها قدر الرجال في الجاهلية. ولولا الإسلام لما اشتهر، وارتفع قدره، وجلد اسمه؛ فإذا كان الله أعز به الإسلام فإنه كذلك عز بالإسلام، ولولا الإسلام لما كان عمر شيئاً.

## خامساً: شخصيته في الإسلام:

\* إسلام عمر:

لقد كانت تلك الشدة التي ورثها عمر في جاهليته هي السبب في إسلامه، فقد غاظه كثيراً ما حل بقريش بعد مبعث النبي ﷺ من تفرق كلماتها واختلاف أبنائها بين مسلم وكافر، وضم عمر على إنهاء هذه المشكلة، وتوشح سيفه وخرج يريد الرسول ليقنته وانطلق قاصداً البيت الذي يجتمع فيه الرسول مع أصحابه عند الصفا وكله غضب وحمية، وقابله في الطريق نعيم بن عبد الله وهو رجل من قومه، وكان نعيم قد أسلم وأخفى إسلامه، وما أن رأى الشر في وجه عمر، حتى سأله إلى أين يا عمر؟

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٢١٩.

فقال: أريد محمداً هذا الصابغ الذي فرق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آختها فأقتله، فقال نعيم: والله لقد غرتك بنفسك يا عمر، أتري بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: أختك فاطمة بنت الخطاب وأختك (أي زوج أختك) ابن عمك سعيد بن زيد.

(وقد فعل نعيم ذلك حتى يصرفه عن رسول الله، وأداه اجتهاده وحرصه على النبي أن يصرف عمر إلى ارتكاب أخف الضررين فلأن يبطش بأخته وزوجها، أهون من أن يبطش بالنبي ﷺ).

فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما، وتغيرت وجهة عمر، فبدل أن يذهب إلى النبي ليقته ذهب إلى بيت أخته.

يقول ابن سعد: فمشي عمر، فاتأها وعندهما حجاب، فلما سمع بحين عمر تواري بي البيت، فدخل، فقال: ما هذه الهيمة (الصوت الخفي)، وكانوا يقرءون طه، قالوا: ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا، قال: فلعلكما قد صأتما، فقال له ختنه: يا عمر، إن كان الحق في غير دينك، فوثب عليه عمر، فوطئه وطأ شديداً، فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها، فنفحها بيده نفخة، فذمى وجهها، فقالت وهي غضبي: يا عمر، إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فلما يبس عمر (وأخذته رقة بأخته، حينما رأى الدم يسيل منها) قال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه، وكان عمر يقرأ الكتاب - فقالت أخته: إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضأ، قال: فقام عمر فتوضأ، ثم أخذ الكتاب فقرأ "طه" حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ، فقال عمر: دلوني على محمد، فلما سمع حجاب قول عمر، خرج من البيت فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ ليلة الخميس «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب» وذهب عمر إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم حيث يوجد النبي مجتمعاً مع

أصحابه، فأعلن إسلامه وكبر النبي فرحاً بذلك وكبر المسلمون، وكان إسلامه - كما أخرج ابن سعد عن سعيد بن المسيب بعد أربعين رجلاً وعشرة نسوة، وقد عز المسلمون بإسلامه، وما كانوا يستطيعون أن يجهروا بصلاتهم حتى أسلم عمر، وكان إسلامه - كما قال عبد الله بن مسعود - كان إسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركنا فصلينا<sup>(١)</sup>.

### \* إعلان إسلامه:

وإذا كانت الشدة طبعاً ملازماً لعمر إلا أنها بعد الإسلام تحولت إلى بركة في الحق، وإصرار على إعلانه ومناصرته. فقد كان الرجل يدخل في الإسلام سرًا، ويستخفي بدينه عن قومه حتى لا يؤذوه، إلا عمر بن الخطاب فلما أسلم قال: أي قريش أتقل للمحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، فغدا غنبيه حتى جاءه، فقال له: أعلنت يا جميل أي قد أسلمت ودخلت في دين محمد، فما هي إلا سويعة حتى شاع الخبر وذاع بين أهل مكة جميعاً بإسلام عمر، ولم يكتف عمر بذوي عجم إسلامه، بل كان يتعرض لرؤوس الكفر ويعلم أمامهم إسلامه، بل كان يذهب إلى بيوتهم ويطلق أبواهم ليخبرهم بنيا إسلامه، يقول عمر: لما أسلمت تلك الليلة، تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله عداوة، حتى أتته فأخبره أي قد أسلمت، قال: قلت: أبو جهل، قال: فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه، قال: فخرج إلي أبو جهل، قال: مرحباً وأهلاً بابن أخي، ما جاء بك؟ قال: لأخبرك بأني قد آمنت بالله ورسوله محمد، وصدقت بما جاء به، قال: فضرب الباب في وجهي وقال: وقبح ما جئت به<sup>(٢)</sup>.

(١) التطبيقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ١٩٢، ١٩٣.

(٢) التاريخ الإسلامي ج ٢ ص ١٢٤.

## \* إعلان هجوته:

أخرج ابن عساکر عن عليّ قال: ما علمت أحداً هاجر إلا محتفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه، وتكب قوسه (وضعها في منكبه)، وانتضى في يده أسهماً (جعلها في يده)، وأتى الكعبة وأشرف قريش بفنائها، فطاف سبعاً، ثم صلى ركعتين عند المقام، ثم أتى حلقهم واحدة واحدة، فقال: شامت الوجوه (أي فبحت)، من أراد أن تنكله أمه (أي تفقده)، ويستم ولده، وترمل زوجته فليقتني وراء هذا الوادي، فما تبعه منهم أحد<sup>(١)</sup>.

## \* شدته على الشيطان:

لقد كان لعمر شدة في الحق أخافت منه الشيطان، فما كان يراه الشيطان سالماً طرباً إلا يتركة لعفر وسلك طريقاً غيره، يزوي البخاري عن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: استأذن عمر علي رسول الله ﷺ، وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه، عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر، فمّن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله، فدخل عمر، ورسول الله ﷺ يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله، فقال النبي: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب فقال عمر: فأنت أحق أن يهين يا رسول الله، ثم قال عمر: يا عدوات أنفسهن أهبنني ولا تمين رسول الله ﷺ فقلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إيها يا بن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالماً فحاً إلا سلك فحاً غير فحك»<sup>(٢)</sup>.

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١١٥، ١١٦.

(٢) صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عمر بن الخطاب.

يقول ابن حجر في شرح الحديث: (أنت أفظ وأغلظ، وكان عمر يبالي في الزجر عن المكروهات مطلقاً، وأما فرار الشيطان من طريق عمر، فهذا دليل على صلابته في الدين، واستمرار حاله على الجد والصراف، والحق المحض).

وقال النووي: هذا الحديث محمول على ظاهره، وأن الشيطان يهرب إذا رآه، وقال عياض: يحتمل أن يكون ذلك على سبيل ضرب المثل وأن عمر فارق سبيل الشيطان، وسلك طريق السداد، فخالف كل ما يجه الشيطان، والأول أولى<sup>(١)</sup>.

### \* موقفه من أسرى بدر:

لقد كانت العقيدة هي الوشيجة القوية بين المسلمين، وهي الرباط الوحيد فيما بينهم، وليس هناك مهادة أو مودة مع الكفار مهما كانت قربانهم، وقد تعرض عمر بن الخطاب في غزوة بدر لخاله العاصي بن هشام فقتله، وكانت رابطة الإسلام أقوى عنده من رابطة القرابة، ولما انتصر المسلمون، وقتل من المشركين نحو سبعين، وأسر نحو السبعين كذلك، استشار الرسول في أمر الأسرى، حيث لم يكن قد تنزل شيء من القرآن في شأنهم بعد، وأشار أبو بكر برأي فيه لين ووصل للرحم فقال: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم فدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة، وعمسى الله أن يئديهم فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ما ترى يا بن الخطاب؟ فقال عمر: لا والله؛ ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكني من فلان - قريه - فأضرب عنقه، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، حتى يُعلم أن ليس في قلوبنا هواده للكفار، وتنكسر شوكة الكفر بقتلهم، إنه رأي ينم عن شدة عمر ولكنها شدة في الحق كما قلت، يهدف من ورائها إلى إفحام الكفار، وإعزاز الإسلام.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري جـ ٧ ص ٥٨ الطبعة السلفية (دار الريان القاهرة).

## \* رقة قلبه وخشيته لله:

رغم شدة عمر المشهورة عنه، إلا أنه كان مع ذلك رجلاً طيب القلب رقيق المشاعر، فكان عنفه وشدته يمازجهما شيء من الرقة واللين، رأينا ذلك حينما عمد إلى أخته فاطمة فضربها على إسلامها، وما أن رأى الدم يسيل منها حتى رق لها، وطلب مني الصحيفة ليقراها، ورأيتاه رغم عناده الشديد للإسلام في جاهليته، وإيذائه المستمر للمسلمين إلا أنه رق قلبه حينما مر على زوجة عامر بن ربيعة واسمها ليلى بنت أبي حنمة بن غانم، وقد تجهزا للهجرة إلى الحبشة فراراً من أذى المشركين، فوقف عمر على زوجة عامر هذه، وكان زوجها قد مضى لبعض حاجته فقال لها إنه للانطلاق يا أم عبد الله، قالت: نعم، والله لنخرجن في أرض الله، آذيتونا وقهرعونا، حتى يجعل الله لنا مخرجاً، قال: صحبكم الله، ورأت رقة من عمر لم ترها من قبل، فلما عاد زوجها قالت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنته علينا فقال لها: أطمعت في إسلامه؟ قالت: نعم، فقال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قال عامر ذلك لما كان يراه من علظته وقسوته على المسلمين، ولكنه ما كان يدري أن تحت هذه الشدة قلباً رقيقاً، فاض بعد إسلامه بالرحمة والعطف على الفقراء والمساكين، وما نعرف عن عمر أنه بكى أثناء جاهليته في موطن من المواطن، ولكننا نعرف أنه كان سريعاً إلى البكاء بعد إسلامه، وكان قلبه يمتلئ وجلاً وخشية إذا ذكر الله أمامه، وكان يبكي بكاء شديداً إذا قرأ آيات التخويف والترهيب في القرآن، أو قرئت عليه، حتى قيل إنه كان له خططان أسودان على خديه من كثرة البكاء من خشية الله<sup>(١)</sup>، لقد كان عمر ممن وصفهم الله عز وجل في الآية الكريمة من سورة الأنفال ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ، وكان ﷺ رغم شدته وغضبه إلا أنه

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٢٩.

كان لا يثبت على غضبه إذا ذكّر بالله، وسرعان ما يذوب هذا الغضب أمام خوفه وخشيته لله عز وجل، وكان يجلس إلى بعض الصحابة ويقول: تعالوا بنا نذكر الله ساعة، فيجلسون يتذكرون نعم الله عليهم وما كانوا عليه في الجاهلية، ثم ما صاروا إليه في الإسلام، فيكون حتى يضحّ المجلس بالبكاء.

ولهذا كان عمر أثناء خلافته مهيباً أعظم ما تكون الهيبة، شديداً أعظم ما تكون الشدة، ولكنه كان رقيقاً أشد ما تكون الرقة، فكانت خلافته شدة في غير ضعف، لقد كان عمر ﷺ شديداً جداً حتى خافه الناس جميعاً، وكان رقيقاً جداً حتى رجاه الناس جميعاً، وهكذا تكون سياسة الأمم شدة في غير عنف وظلم، ولين في غير ضعف وإهدار للحق بين الناس.

### \* شجاعة عمر في الحروب وحضوره المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ:

لقد كان عمر سيفاً من سيوف النبي ﷺ يسله متى شاء ويفمده متى أحب، وقد شهد عمر بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وخرج في عدة سرايا وكان أمير بعضها، فلقد بعثه رسول الله ﷺ أميراً على سرية في ثلاثين رجلاً إلى عَجْرَ هَوَازِنَ بثرية في شعبان سنة سبعة من الهجرة، ولما نزل ﷺ ببحير أعطى اللواء يومئذ لعمر بن الخطاب<sup>(١)</sup>.

ورغم شجاعته في القتال واشتراكه في سائر الغزوات إلا أنه لم يشتهر كبطل في الحروب أمثال خالد وعكرمة وسعد بن أبي وقاص وغيرهم، لأنه كان يؤثّر القرب من رسول الله ﷺ خوفاً عليه فكان ﷺ يحرص دائماً على أن يكون قريباً من النبي في حربه وسلمه، فكان بمثابة الحارس الأمين لرسول الله ﷺ، يخيف بشدته كل من تسول له نفسه أن ينال من الرسول شيئاً أو حتى يغلظ له في القول، وقد حظي بجوار هذا الشرف بشرف

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ١٩٥.

أحجر وهو أنه كان محل مشورة النبي ﷺ، وكان قربه من النبي خيراً وبركة على الأمة، أكثر من شهرته كبطل في المعارك، وسار عمر على هذا النسب بعد وفاة النبي ﷺ، فكان سيفاً من سيوف أبي بكر يسله متى شاء، ويغمده متى يحب، وكان محل مشورته ونصحه فيما يرى فيه المصلحة العامة.

### \* موافقات عمر وإماماته:

(أ) أحاديث الرسول (ﷺ) في ذلك:

لقد كانت لقرب عمر من الرسول وملازمته الدائمة له، أن نور الله بصيرته، وأفاض الله عليه من نور علمه فأشرق قلبه بالحق، وصار لسانه ينطق بالحكمة والصواب، فكان إذا تعالجت الأمور، يرى فيها الرأي فيوافقه عليه القرآن، ويتزل به الوحي ولا عجب، فإنما فيوضات الله، ونسمات القرب من رسول الله ﷺ، أخرج البخاري عن الزهري عن حمزة عن أبيه أن رسول الله قال: بينما أنا نائم شربت - يعني اللبن - حتى أنظر الري يجري في ظفري أو في أظفاري، ثم ناولت عمر، قالوا فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم.

\* وأخرج البخاري أيضاً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينما أنا نائم رأيت الناس عرضوا عليّ وعليهم قمص، فمنها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعرض عليّ عمر وعليه قميص اجتره، قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: الدين.

\* وأخرج البخاري كذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدثون (بفتح الدال المشددة) فإن يك في أمي أخذ فإنه عمر. زاد زكريا بن أبي زائدة عن سعد بن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمن (بفتح اللام المشددة) من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن من أمي منهم أحد فعمر».

\* يقول العلامة ابن حجر في شرح الحديث الأخير: قوله "محدثون" بفتح الدال جمع محدث واختلف في تأويله، فقيل ملهم، قاله الأكثر: وقالوا: المحدث بالفتح: هو الرجل الصادق الظن، وهو من ألقى في روعه شيء من قبل الملائكة الأعلى ليكون كالذي حدثه غيره به، وبهذا جزم أبو أحمد العسكري.

وقيل من يجري الصواب على لسانه من غير قصد، وقيل مكلم أي تكلمه الملائكة بغير نبوة، وهذا ورد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً ولفظه "قيل يا رسول الله وكيف يحدث؟ قال: تتكلم الملائكة على لسانه"، رويناه في فوائد الجوهرية، وحكاها القاسبي وآخرون، ويؤيده ما ثبت في الرواية المعلقة ويُحتمل رده إلى المعنى الأول: أي تكلمه في نفسه وإن لم ير ملكاً في الحقيقة، فيرجع إلى الإلهام.

وفسره ابن التين بالتفريس، ووقع في رواية الحميدي عقب حديث عائشة: المحدث الملهم بالصواب الذي لقي علي فيه.

وعند مسلم من رواية ابن وهب: ملهمون: وهي الإصابة من غير نبوة وفي رواية الترمذي عن بعض أصحاب ابن عيينة: محدثون يعني مفهمون وفي رواية الإسماعيلي قال إبراهيم يعني ابن سعد رواية: قوله محدث أي يلقي في روعه - انتهى.

ويؤيده حديث: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» أخرجه الترمذي من حديث ابن عمر<sup>(١)</sup>.

\* وخلاصة ما ترجع إليه تلك الأقوال التي ذكرها ابن حجر رحمته في شرح قول النبي "محدثون" أمران:

الأول: الإصابة في القول، والفهم الدقيق لمجريات الأمور، والعلم الواسع العميق بمتن الأشياء.

(١) فتح الباري ج ٧ ص ٥٠ - ٦١ لبيان السلفية والأحاديث الثلاثة أخرجه البخاري في كتاب فضائل

الصحابة باب مناقب عمر بن الخطاب.

الثاني: الإلهام: أو الإلقاء في الروح من قبل الملائكة الأعلى، دون أن يرى شيئاً، فينطق بالحكمة والصواب.

وفي الحقيقة:

إن كلا الأمرين قد اجتماعاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد من الله عليه بالعلم الواسع، والفقه الشديد في الدين - كما أخبر الصادق المصدوق في رؤياه التي سبق ذكرها - فأبدع في سياسة الأمة وتنظيم أمورها في فترة خلافته بما لم يسبق إليه.

كما نور الله بصيرته، فكان يلقي في روعه بالأمر فينطق به، فتكون الحكمة والصواب، ويتزل الوحي موافقاً له.

وفي ذلك يقول ابن حجر: والسبب في تخصيص عمر بالذكر، لكثرة ما وقع له في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من الموافقات التي نزل القرآن مطابقاً لها، ووقع له بعد النبي صلى الله عليه وسلم عدة إصابات<sup>(١)</sup>.

وحق لا تضل الأفهام في هذه المسألة:

ويتشبه بها المفروضون الزائفون فيخرجون علينا باسم الإلهام بأمور لا تمت للشرع بصلة نقول: إن المحدث إذا تحقق وجوده، لا يُحكم له بما حدث به، إلا إذا عرضنا قوله على كتاب الله وسنة نبيه، فإن وافقهما عمل به، وإلا ضرب به عرض الحائط.

(ب) موافقات عمر للقرآن:

وقد أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرين موافقة منها:

\* ما أخرجه الشيخان عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث: قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقلت يا رسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر، فلو أمرتكم بحتجبن، فنزلت آية الحجاب:

(١) فتح الباري ج ٧ ص ٦٢ طبعة السلفية.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، واجتمع نساء النبي في الغيرة، فقلت: عسى ربه إن طلقكم أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فزلت كذلك.

وأخرج مسلم عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب، وفي أسارى بدر، وفي مقام إبراهيم.

ففي هذا الحديث خصلة رابعة غير الثلاثة في حديث الشيخين وهي موافقته في أسرى بدر.

وفي التهذيب للنووي: نزل القرآن بموافقته: في أسرى بدر، وفي الحجاب، وفي مقام إبراهيم، وفي تحريم الخمر.

فزاد خصلة خامسة، وهي "تحريم الخمر" وحديثها في السنن ومستدرک الحاكم أنه قال: اللئيم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فأنزل الله تحريمها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن أنس قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع، لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ قلت: فبارك الله أحسن الخالقين، فزلت ﴿فَبَارِكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فزاد في هذا الحديث خصلة سادسة.

\* يقول السيوطي: ثم رأيت في كتاب "فصائل الإمامين لأبي عبد الله الشيباني قال: وافق عمر ربه في واحد وعشرين موضعاً، فذكر هذه الستة وزاد سابعة قصة عبد الله بن أبي، قلت - أي البيروني - حديثها في الصحيح عنه، قال: لما توفي عبد الله بن أبي دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فمتمت حتى وقفت في صدره، فقلت: يا رسول الله، أو على عدو الله ابن أبي القائل يوم كذا وكذا.

يقصد ما قاله في الرجوع من غزوة بني المصطلق، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَيَّ أَحَدٌ مِّنْهُمْ قَبْلَ أَبْدَأُ﴾ [التوبة: ٨٤].

ومن ذلك أيضاً ما حدث في قصة الإفك، فلما استشار النبي الصحابة قال عمر: من زوجكها يا رسول الله؟ قال: الله، قال: أفتظن أن ربك دلس عليك فيها؟ سبحانك هذا بمتان عظيم، فنزلت كذلك، إلى غير ذلك مما ذكره السيوطي ونقله عن الثقات فيرجع إليه من أراد المزيد<sup>(١)</sup>.

### (ج) ومن إلهامات عمر رضي الله عنه:

\* بما أخرجه البيهقي وأبو نعيم كلاهما في الدلائل وغيرهما من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر قال: وجه عمر جيشاً، ورأس عليهم رجلاً يدعي سارية، فبينما عمر يخطب الجمعة جعل ينادي: يا سارية الجبل، ثلاثاً، ثم قدم رسول الجيش، فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين هزمتنا، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتاً ينادي: يا سارية الجبل، ثلاثاً، فأستندنا ظهرنا إلى الجبل، فهزمهم الله، قال: قيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك، وذلك الجبل الذي كان سارية عنده بنهاوند من أرض العجم، قال ابن حجر في الإصابة: إسناده حسن.

وفي الرواية التي أخرجه ابن مردويه: أنه لما فرغ من الخطبة والصلاة سأله فقال: وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا، وإهم يعمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجه واحد، وإن جاوزوا هلكوا، فخرج مني ما تزعمون أنكم سمعتموه.

\* ومما ورد في فراسته ما أخرجه ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال: إن كان الرجل ليحدث عمر بالحديث فيكذبه الكذبة فيقول: أجيب هذه، ثم يحدث بالحديث

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٢٢ - ١٢٥.

فيقول: احبس هذه، فيقول له: كل ما حدثتك حق إلا ما أمرتني أن أحبس، وأخرج عن الحسن قال: إن كان أحد يعرف الكذب إذا حَدَّثَ به فهو عمر بن الخطاب<sup>(١)</sup>.

### \* فقه عمر بن الخطاب وغازاة علمه:

لقد كان عمر رضي الله عنه بحق فقيه الأمة الإسلامية بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان أوسع الصحابة علماً، وفقياً، وأقدرهم على الاستنباط والاجتهاد، وقد ذكرنا من قبل الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عمر وفيه أن الرسول شرب حتى جرى الري في أطافره، ثم ناوله عمر فشرب وقد أوله صلى الله عليه وسلم بالعلم، وذكرنا كثيراً من موافقاته للقرآن وإلهاماته، ونفاذ بصيرته.

وقد شهيد الصحابة والسلف بعلو قدره في الدين، وسعة فقهه في الأحكام، فقال علي بن أبي طالب: كنا أصحاب محمد لا نشك أن السكينة تنطق على لسان عمر<sup>(٢)</sup>.  
وقد شهيد الصحابة والسلف بعلو قدره في الدين، وسعة فقهه في الأحكام، فقال علي بن أبي طالب: كنا أصحاب محمد لا نشك أن السكينة تنطق على لسان عمر<sup>(٣)</sup>.  
(أ) حفظه للسنة:

أ فقد كان من حفاظ الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة وتسعة وثلاثون حديثاً<sup>(٤)</sup>.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لو أن علم عمر وضع في كفه ميزان، ووضع علم أحياء الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم، ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم.  
وقال ابن مسعود أيضاً: إن عمر كان أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله.

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ف ١٢٥، ١٢٦.

(٢) الرياض النضرة في مناقب العشرة ج ٢ ص ٣٨.

(٣) الرياض النضرة في مناقب العشرة ج ٢ ص ٣٨.

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٠٩.

وقال حذيفة: كأن علم الناس كان مَدَسُوسًا في حجر عمر<sup>(١)</sup>.  
وقال الشيرازي في طبقات الفقهاء، ومن نظر في فتاوى عمر علي التفصيل، وتأمل معاني قوله علي التحصيل، وجد في كلامه من دقيق الفقه ما لا يجده في كلام أحد، ولم يكن له إلا الفصول التي ذكرها في كتابه إلى أبي موسى الأشعري في القضاء، لكنني ذلك في الدلالة على فضله<sup>(٢)</sup>.

وقد سار عمر في اجتهاده على المنهج القويم، فكان إذا عرضت له مسألة نظر أولاً في كتاب الله، ثم في سنة رسول الله، فإذا لم يجد فيهما بغيته: نظر هل لأبي بكر فيما قول أو فعل، فإن وجد أخذ به، وإلا فاجتهد بما يحصل به جلب المنفعة، أو درء المنفعة، وأحياناً كان يجمع الصحابة ويستشيرهم، فإذا أشاروا بأمر رآه صواباً أخذ به.  
ونحن نرى أن هذا المنهج هو نفس المنهج الذي أقره رسول الله ﷺ وارتضاه يوم أن بعث معاذاً إلى اليمن وسأله م تحكم فيهم؟ قال معاذ: بكتاب الله: قال: فإن لم تجد؟ قال: سنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو أي: أركب الشطط في اجتهادي، فلا إفراط ولا تفريط.

(ب) فقه عمر الواسع:

وما أكثر الوقائع التي تدل على الفقه الواسع لعمر، وعلى اجتهاده الضائب القائم على الأصول الشرعية الثابتة.

\* من ذلك:

١- ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أنه قيل لعمر وقد أصيب ألا تستخلف؟ فقال: إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني - يعني أبا بكر - وإن أترككم فقد ترككم من هو خير مني رسول الله ﷺ.

(١) انظر في هذه الأقوال تاريخ الخلفاء لسيوطي ص ١٢٠، ١٢١.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٣٩ - ٤٠.

قال ابن عمر: فعرفت حين ذكر رسول الله أنه غير مستخلف.

فعمر هنا يتمسك بسنة رسول الله ويقدمها على سنة أبي بكر مع أن العمل بما جازت عنده، وهذا يدل على أنه كان يأخذ بسنة رسول الله، وبسنة من سبقه كأبي بكر، إلا أنه كان يقدم سنة رسول الله على كل ما سواها عدا القرآن الكريم.

٢- كان من عاداته ﷺ النهي عن التكلف، سأل عمرو بن العاص رجلاً عن حوضه فقال له: هل ترد حوضك السباع؟ فقال عمر ﷺ للرجل: يا صاحب الحوض لا تخبرنا، إنا نرد على السباع وترد السباع علينا.

٣- ومن روائع فقهه أيضاً: أنه حبس الأرض المفتوحة ولم يقسمها على الفاتحين، بل تركها في يد أهلها يعملون عليها، ويؤدون عنها الخراج، فكان ينفق منه على مصالح الأمة عامة، وحقق بجوار ذلك هدفين:

الأول: **عدم إدالة الثروة**، بمعنى عدم تركيزها في أيدي فئة قليلة، ويبقى بقية المجتمع في فقر وحرمان.

الثاني: **عدم انشغال الفاتحين بعمارة الأرض**، وتركهم الجهاد ومواصلة الفتوحات ونشر الدعوة هنا وهناك.

وقد اجتمع المسلمون بعد ذلك على ما رآه، وأخذ بذلك الأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد<sup>(١)</sup>.

\* وفي الحقيقة:

ما أكثر المسائل والوقائع التي اجتهد فيها عمر بن الخطاب، وكان له رأيه الصائب دائماً، لأنه بناه على الأصول الشرعية في الاستنباط، وقد شغل فقه عمر كثيراً من الباحثين

(١) انظر في ذلك كتاب فقه عمر بن الخطاب للدكتور/ رويحي بن راجع الرحيلي ج ١ ص ٤٣، ٤٥ من مطبوعات مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى.

والعلماء، فقام العلامة ابن كثير رحمه الله بجمع أقوال عمر وفتاويه في كتاب أسماه "مسند الفاروق وأقواله على أبواب العلم".

وقام الأستاذ رويحي بن راجح الرحيلي بعمل دراسة عن فقه عمر موازناً بفقه أشهر المجتهدين، نال بها شهادتي الماجستير والدكتوراه، ثم طبعت هذه الدراسة في ثلاثة أجزاء، ولكنها لم تستوعب فقه عمر كله، فقد ضمن الجزء الأول: دراسة عن الحدود وملابستها، والجزء الثاني: دراسة في الجنائيات وأحكامها، والجزء الثالث: في دية وإرث ما دون النفس، وهي في الحقيقة دراسة جيدة ومفيدة فليرجع إليها من أراد المزيد.

### \* غيرة عمر رضي الله عنه :

أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: بينما نحن عند رسول الله إذ قال: "بينما أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر، فذكرت غيرته، فوليت مديراً، فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله".  
يقول ابن حجر في قول عمر "أعليك أغار" هو معدود من القلب والأصل: أعليتها أغار منك<sup>(١)</sup>، وفي الحديث شهادة لعمر بفرط غيرته؛ وهذا لعمرى خلق أهل الفضل والشرف، وفيه كذلك بشرى لعمر بالجنة مما جعله يبكي حين سمع ذلك من النبي تشوقاً أو خشوعاً.

### \* البيعة لعمر بن الخطاب:

لقد سبق الحديث عن استخلاف أبي بكر رضي الله عنه، وأنه استخلف على المسلمين عمر ابن الخطاب، وقال قوله المشهورة: اللهم إني استخلفت على عبادك خير عبادك. وذكرنا كيف أن استخلاف أبي بكر لعمر، كان أجل خدمة قدمها للأمة الإسلامية قبل وفاته؛ فقد كانت الأمة فعلاً في حاجة إلى مثل عمر يقيم لها أمر دينها، ويحزم عليها

(١) فتح الباري ج: ١٤ ص ١٨١ طبعة الكليات الأزهرية والحديث في كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عمر بن الخطاب.

أمرها، ويواصل الفتوحات، وينشر الإسلام في المشرق والمغرب، وينظم لها شؤون حياتها، ويضع لها من الترتيبات، ويسن من القوانين ما كانت الأمة في حاجة إليه في مثل هذه الظروف، فكانت خلافته تحييراً وبركة على الأمة الإسلامية بحق.

وما أن انتهى المسلمون من دفن أبي بكر، حتى أقبلوا على عمر فبايعوه البيعة العامة، وتم الإعلان العام عن الخليفة، والرضا التام من الأمة على توليته، وأعطته الأمة العهد على أن تسمع له وتطيع؛ وأن توازره وتناصره ما دام قائماً فيهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما أعطى عمر العهد من نفسه للأمة على أن يسير فيهم سيرة من سبقه وهما رسول الله وأبو بكر، وأوضح عمر منهجه في الحكم وسياسته في الرعية من أول يوم فقال: إنما مثل العرب؛ مثل جمل أنف فاتبع قائده، فلينظر قائده أين يقوده، أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق.

وإذا كانت مدة خلافة أبي بكر يسيرة، فإن مدة خلافة عمر بورك فيها، فكان من أول الخلفاء الراشدين عهداً بالأمة، وبورك للأمة في عهده في جميع شئونها، وتحققت بشارة النبي في ذلك، فقد أخرج البخاري من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا على بئر أنزع منها، جاءني أبو بكر وعمر، فأخذ أبو بكر الدلو، فترع ذنوباً أو ذنوبين، وفي نزع ضعف، والله يغفر له، ثم أخذها ابن الخطاب من يد أبي بكر، فاستحالت في يده غرباً، فلم أر عبقرياً من الناس يقري فرية فترع».

وفي رواية أبي هريرة، «بينما أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو، فترعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة، فترع منها ذنوباً أو ذنوبين وفي نزع ضعف، والله يغفر له ضعفه، ثم استحالت غرباً، فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقرياً من الناس يترع نزع عمر حتى ضرب للناس بعطن».

يقول ابن حجر في شرحه للحديث: وقد ذكر الشافعي تفسير هذا الحديث في الأم فقال بعد أن ساقه، ومعنى قوله "وفي نزع ضعف" قصر مدته وعجلة موته، وشغله

بالحرب لأهل الردة عن الافتتاح والازدياد الذي بلغه عمر في طول مدته، وفيه إشارة أيضاً إلى طبيعة أبي بكر من اللين والرفق بالرعية - وأما قوله ﷺ: "فلم أر عبثياً من الناس يفري فريه"، فالمراد به أنه بلغ النباية والغاية القصوى في نزعه، حتى روى الناس وضربت الإبل فتاحت واستراحت<sup>(١)</sup> وذلك أيضاً إشارة إلى طول مدة خلافة عمر، وتمام الأمر في عهده؛ حيث استقرت الأمور، واستقامت الرعية، وبلغت الفتوحات مبلغاً عظيماً في الشرق والغرب، وتحقق العدل بين الناس، وسار حال الأمة على أحسن نظام، وأبلغ ترتيب عرفه عيد من العيود بعد رسول الله ﷺ.

### \* منحج عمر في الحكم:

لقد أحس عمر بثقل التبعة التي ألتيت عليه، ولم يكن أمر الخلافة في حياة عمر شعبة يتناول بها علي الناس، وإنما كان أمانة أسپرته ليله، وأهمته بقية عمره، فكان لا يبدأ له بال، ولا يغمض له جفنهما بأمر الرعية، فكان شديد المحاسبة لنفسه ولأهل بيته، وذائم التعسس على المدينة؛ ليتفقد مواضع الخلل فيصلحها، وكان غاية في الدقة في اختيار الرلااة؛ وشديداً كل الشدة في محاسبتهم ومراقبتهم، وكان كثير الاجتهاد في استنباط الأحكام والقوانين، التي تتلاءم مع تغير الأمة واختلاف الظروف والأحوال، شديد الحرص على مواصلة الفتوحات ونشر الإسلام، وإرسال القراء والفقهاء إلى الأمصار المفتوحة؛ ليعلموا الناس أمور الدين، ولعل في تلك النصوص التي نعرضها ما يوضح لنا بجلاء سياسة عمر ومنهجها في الحكم.

\* ذكر الطبري في تاريخه عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب خطب الناس فحمد الله؛ وأثنى عليه بما هو أهله؛ ثم ذكر الناس بالله عز وجل واليوم الآخر؛ ثم قال: يا

(١) فتح الباري ج١ ص ١٦٠، ١٧٨ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية والروايتان من كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عمر في صحيح الإمام البخاري.

أيها الناس، إني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم، ما توليت ذلك منكم، ولكني عمر مهمماً محزناً انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف أخذها؟ ووضعها أين أضعها؟ وبالسير فيكم كيف أسير؟ فربي المستعان، فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأيدته<sup>(١)</sup>.

\* وخطب مرة فقال: إن الله عز وجل قد ولاي أمركم، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم، وإني أسأل الله أن يعينني عليه، وأن يجرسني عنده كما حرسني عن غيره؛ وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به، وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف، إلا ما أعان الله عز وجل، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئاً إن شاء الله، إنما العظيمة لله عز وجل، ليس للعباد منها شيء، فلا يقولن أحد منكم: إن عمر تغير منذ ولي، أعقل الحق من نفسي، وأتقدم وأبين لكم أري، فأبما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة، أو عتب علينا في خلق فيلؤذني، فأبما أنا رجل منكم، فعليكم بتقوى الله في سرركم وعلايتكم، وحرمانكم وأعراضكم، وأعطوا الحق من أنفسكم، ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلي، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة، وأنا حبيب إلى صلاحكم، عزيز على عتبتكم، وأنتم أناس عامتكم حضر في بلاد الله، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليكم، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة، وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه، ومطلع على ما يحضرنني بنفسي إن شاء الله، لا أكله إلى أحد، ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء (يعني الولاة) وأهل النصح منكم للامة، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله<sup>(٢)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص ٢٢٤.

(٢) تاريخ الطبري ج٤ ص ٢١٥.

\* وخطب فقال: أيها الناس: إني لوددت أن أنجو كفافاً لا لي ولا علي، وإني لأرجو إن عمرت فيكم يسيراً أو كثيراً، أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله، وألا يبقى أحد من المسلمين وإن كان في بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله، ولا يعمل إليه نفسه، ولم ينصب إليه يوماً، وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله، ولقليل في رفق خير من كثير في عنف<sup>(١)</sup>.

وذكر الطبري أيضاً عن الحسن قال: قال عمر: إذا كنت في منزلة تسعني وتعجز عن الناس، فوالله ما تلك لي بمنزلة، حتى أكون أسوة للناس، وإن الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله، فإذا رتع الإمام رتعوا<sup>(٢)</sup>، وإن الناس لم يزالوا مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداهم<sup>(٣)</sup>.

\* وذكر الطبري في تاريخه قال: حدثنا أبو بكر بن عياش، قال: سمعت أبا حصين قال: كان عمر إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول: " إني لم أستعملكم على مة محمد ﷺ على أشعارهم، ولا على أبقارهم، إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة. وتقصوا بينهم باحق، وتقسموا بينهم بالعدل، وإني لم أسلطكم على أبقارهم ولا على أشعارهم، ولا تجلدوا العرب فتتلوها، ولا تجمروها (حسبهم في أرض العدو دائماً) فتفتنوها، ولا تغفلوا عنها فتحرموها، وجردوا القرآن، أقلوا الرواية عن محمد ﷺ، وأنا شريككم".

وكان يقتص من عماله، وإذا شكى إليه عامل له، جمع بينه وبين من شكاه، فإن صح عليه أمر يجب أخذه به، أخذه به<sup>(٤)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص ٢١٦.

(٢) تاريخ الطبري ج٤ ص ٢٠٤.

(٣) الطبقات الكبرى ج٣ ص ٢١٠.

(٤)

وكان عليه شديداً في محاسبة أهل بيته، ويروي الطبري عن سالم قال: كان عمر إذا صعد المنبر، فنهى الناس عن شيء، جمع أهله، فقال: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير - يعني إلى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة<sup>(١)</sup>.

\* وذكر الحسن عن عمر قوله: لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائجاً تقطع دوني، أما عمالمهم فلا يرفعونها إليّ، وأما هم فلا يصلون إليّ فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة - بالعراق - فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لنعم الحول هذا<sup>(٢)</sup>.

### \* عمر وما يستحل له لنفسه من بيت المال:

روى ابن سعد في طبقاته عن عمر قال: أنا أخيركم بما أستحل من مال الله، يحل لي حلتان: حلة في الشتاء، وحلة في القيظ، وما أحجج عليه وأعتمر من الظهر، وقوتي وقوت أهلي، كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم.

وقال ﷺ: إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة الولي من مال اليتيم، إن استغنيت استغنفت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، فإن أسرت قضيت<sup>(٣)</sup>.

وكان ﷺ: إذا احتاج أتى صاحب بيت المال فاستقرضه، فرمما عسر فيأتيه صاحب بيت المال فيتقاضاه فيلزمه، فيحتال له عمر، ورمما خرج عطاؤه فقضاه.

(١) تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٠٧.

(٢) تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٠١.

(٣) الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ١٩٧.

وذكر ابن سعد عن الأعمش عن إبراهيم: أن عمر بن الخطاب كان يتاجر وهو خليفة، فبعث إلى عبد الرحمن بن عوف يستقرضه أربعة آلاف درهم، فقال للرسول: قل له يأخذها من بيت المال، ثم ليردها، فلما جاء الرسول فأخبره بما قال، شق ذلك عليه، فلقيه عمر فقال: أنت القائل ليأخذها من بيت المال، فإن مت قبل أن تجيء، قلتُم أخذها أمير المؤمنين دعوها له، وأوخذ بها يوم القيامة، لا، ولكن أردت أن آخذها من رجل حريص شحيح مثلك، فإن مت أخذها من ميراثي<sup>(١)</sup>.

وذكر ابن سعد أيضًا عن الربيع بن زياد الحارثي: أنه وفد إلى عمر بن الخطاب فأعجبه هيئته ونحوه، فشكا عمر طعامًا غليظًا أكله، فقال الربيع يا أمير المؤمنين إن أحق الناس بطعام لين ومركب لين وملبس لين لأنت "فرغ عمر جريدة معد فنسب بها رأسه وقال: أما والله ما أراك أردت بها الله، وما أردت بها إلا مقاربتني، إن كنت لأحسب أن فيك، ويحك، حل تدري ما مثلي ومثل هؤلاء؟ قال: وما مثلك ومثلهم؟ قال: مثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم - فقالوا له: أنفق علينا، فهل يحل له أن يستأثر منها بشيء؟ قال: لا يا أمير المؤمنين قال: فكذلك مثلي ومثلهم.

وقال قتادة: كان عمر يلبس - وهو خليفة - جبة من صوف مرقوعة بعضها بآدم.

وقال عامر بن ربيعة، حججت مع عمر، فما ضرب فسطاطًا ولا خباء، كان يلقي البكساء والنطع على الشجرة ويستظل تحته<sup>(٢)</sup>.

### \* حب النبي لعمر وطلبه الدعاء منه:

لهذا كله كان عمر جديرًا بحب النبي له، فعن ابن عمر قال: استأذن عمر النبي ﷺ في العمرة فقال: يا أخي أشركنا في صالح دعائك ولا تنسنا، فقال عمر: والله لقد قال لي النبي كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا كلها.

(١) الطبقات الكبرى ج ٣ ص ١٩٩.

(٢) أنظر في مدة تقول الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٢٨٠ - ٢٨١.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله باهى أهل عرفة عامة، وباهى بعمر خاصة».

وأخرج الطبراني في الأوسط أيضًا عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من أبغض عمر فقد أبغضني، ومن أحب عمر فقد أحبني، وإن الله باهى بالناس يوم عرفة عامة وباهى بعمر خاصة، وإنه لم يبعث الله نبيًا إلا كان في أمته محدث، وإن يكن في أممي منهم أحد فهو عمر، قالوا: يا رسول الله كيف محدث؟ قال تتكلم الملائكة على لسانه»<sup>(١)</sup> إسناده حسن.

هكذا كان عمر رضي الله تعالى عنه نموذجًا فريدًا في خلافته ونسيجًا وحده في شدته وحزمه، وفي زكاه وورعه، وفي فقهه وعلمه، أعز الله به الإسلام، وثبت بخلافته أركان الأمة الإسلامية. وطار بجناحين إلى المشرق والمغرب، فنشر الإسلام وعمّ نوره البلدان، وسطعت شمسُه على الدنيا كلها.

فجزاه الله خير الجزاء وأجزل له المثوبة ووافر العطاء.

\* \* \*

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١١٩، ١٢٠.

## أسئلة التقويم الذاتي

- س ١: لقب عمر بن الخطاب بالفاروق، فلماذا؟
- س ٢: كان إسلام عمر له أثر كبير على الدعوة الإسلامية، وضح ذلك.
- س ٣: اختلفت هجرة عمر عن هجرة النبي (ﷺ) والصحابة فما وجه هذا الاختلاف وما دلالة على صفات هذه الشخصية العمرية؟
- س ٤: كان لعمر بن الخطاب رأي في أسرى بدر خالف فيه رأي الرسول (ﷺ) وأبي بكر الصديق، فما هذا الرأي؟
- س ٥: كان لعمر بن الخطاب إلهامات ومواقفات، اذكر من الأمثلة ما يؤيد ذلك ويؤكد؟
- س ٦: لم تكن شخصية عمر فظة غليظة شديدة في كل الأحوال ولكن بعد توليه خلافة المسلمين ظهر وجه آخر لشخصيته عكس ما هو ظاهر، وضح ذلك؟
- س ٧: يقول رسول الله (ﷺ): "لقد كان فيما قبلكم من الأمم أناس محدثون فإن يك في أمي أحد فغنه عمر"، وضح ما ذكره ابن حجر في شرح قول النبي (ﷺ) (محدثون).
- س ٨: حبس عمر بن الخطاب الأرض المفتوحة ولم يقسمها فما الأهداف التي حققها عمر بن الخطاب بذلك؟
- س ٩: اذكر ما استحلّه عمر بن الخطاب من بيت مال المسلمين فترة خلافته.
- س ١٠: اذكر موقف سيدنا عمر بن الخطاب بعد توليه خلافة المسلمين من تجارة ابنه.

## الفتوحات الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب

## المبحث الثاني

أولاً: الجبهة الشرقية.  
ثانياً: الجبهة الغربية.  
ثالثاً: مواقف فريدة في الفتوحات الإسلامية

### أولاً: الجبهة الشرقية (أرض العراق وبلاد فارس) :

\* اهتمام الفاروق بأمر العراق:

لقد بينا فيما سبق أن الثني بن حارثة أمير جيش العراق جاء إلى المدينة ليطلب المدد، وصادف ذلك وفاة الصديق وتولية عمر بن الخطاب، وكان أبو بكر قد أوصى عمر ألا يمسي حتى يندب الناس لحرب أهل العراق مع الثني.

وكان اهتمام الفاروق بأمر العراق شديداً - خاصة - بعد أن تمياً الفرس، وتوحدت كلمتهم بعد تفرق، وأصبحوا يشكلون خطراً جسيماً على الدولة الإسلامية، ولذلك رأينا عمر رضي الله عنه، لم يدخر وسعاً في مواجهة الفرس، وبدأ على الفور بعد وفاة الصديق ينتدب الناس إلى الجهاد في أرض العراق، وكان أول من استجاب للنداء أبو عبيد بن مسعود الثقفي، فجعله أمير الجيش، رغم أنه لم يكن من الصحابة، وعندما نوقش عمر في ذلك وقيل له: كيف تولي من ليس بصحابي؟ فأجاب: "إنما أوامر أول من استجاب، إنكم إنما سبقتم الناس بنصرة هذا الدين وإن هذا هو الذي استجاب قبلكم".

وهذه فلسفة الخليفة العادل، حيث رأى أن الأفضلية بين الناس أمثلها خدمة هذا الدين ونصرته، فلما كان أبو عبيد أول من استجاب لنصرة هذا الدين والذود عنه، حاز هذا الفضل، ففضل الإمارة على جيش العراق، ثم دعاه عمر، فوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، وأمره أن يستشير أصحاب رسول الله ﷺ، وسار أبو عبيد بمن معه من المجاهدين إلى أرض العراق.

ثم أمر عمر بن الخطاب ﷺ المثنى أن يتقدم إلى أن يلحقه الجيش، وأمره أن يستنفر من حسنت توبته من المرتدين، فسار مسرعاً حتى وصل الحيرة في عشر ليالٍ، فوجد الفرس قد استعدوا لقتال المسلمين تحت قيادة رستم، وقد أصبح القائد العام للجيش الفرس. كما أرسل عمر مدداً بقيادة جرير بن عبد الله البجلي قوامه أربعة آلاف، وسيروهم إلى العراق لنجدة إخوانهم هناك.

كما كتب إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح في الشام أن يرسل من كان بالعراق ممن قدم مع خالد بن الوليد إلى العراق، فسيرهم أبو عبيدة بعد فتح دمشق بإمرة هشام بن عتبة بن أبي وقاص.

### \* معركة النمارق:

بعث رستم جيشاً لقتال أبي عبيد، فالتقى الطرفان في "النيمارق" بين الحيرة والقادسية وكان علي بن خنيل المسلمين المثنى بن خارثة، فهزم الفرس وولوا الأدبار، وساروا إلى "كسكر" بلد على الشاطئ الغربي لدجلة بين بغداد والبصرة، فلحقهم أبو عبيد وهزمهم ثانية، ففروا إلى المدائن.

### معركة الجسر:

لما علم رستم بمزيمة الجيش في النمارق وكسكر، جهز جيشاً عظيماً تحت قيادة "بهمن جاذويه" ومعه الراية العظمى لفارس، والتقى الجيشان على نهر الفرات، وخير

الفرس المسلمين بين أن يعبروا إليهم، أو يعبر الفرس إليهم، واندفع أبو عبيد فاختار العبور، ولما نماه ذور الرأي من الصحابة لم يقبل، وقال: لا يكون الفرس أجراً على الموت منا، وعبر المسلمون وقطع أحد المسلمين الجسر حتى لا يفكر أحد في الفرار، وكانت معركة غير متكافئة في العدد والعدة.

ورغم القتال الفذ الذي خاضته جند المسلمين في هذه المعركة إلا أن الفيلة كان خطرهما عظيماً فهابها حيول المسلمين فانهزموا، وقتل أبو عبيد حينما وثب على الفيل الأبيض ليقته، فحبطه الفيل بيده فوق على الأرض فوطأه الفيل حتى مات، ثم أخذ الراية بعده سبعة نفر كلهم من ثقيف.

واشتدت وطأة الفرس على المسلمين ففروا وغرق البعض في نهر الفرات، وعبر البعض النهر، وسارع المثنى فأصلح الجسر، وأخذ يقاتل حول الجسر حتى عبر مع من بقى من المسلمين، ولكن عدداً كبيراً تفرق ورجعوا إلى ديارهم استحياء من هذه الهزيمة، وبقى المثنى جريحاً في قلة من الجيش، ومنع الله "بهمن" من العبور خلف المسلمين بما بلغه من اختلاف الفرس وانقسامهم قسمين، قسم يريد رستم وقسم يريد الفيرزان فرجع عن قصده، وقد جرت أحداث هذه المعركة في شعبان من السنة الثالثة عشرة للهجرة.

ولما علم عمر بن الخطاب الهزيمة حزن وقال: يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز إليّ لكنت له فئة، ثم أمد عمر المثنى بعدد كبير، ووصل إلى المثنى جرير بن عبد الله البجلي ومن معه، وأصبح بالمسلمين قوة.

### معركة البويب:

لما علمت الفرس باجتماع عدد من جيوش المسلمين، بعث رستم والفيرزان - وقد اجتمعت كلمة الفرس على توليتهما معاً إمرة الفرس - فأرسل جيشاً كثيفاً، والتقى الجيشان في مكان يقال له "البويب" قرب الكوفة، ولما خير الفرس المسلمين في العبور، اختار المثنى أن يعبر الفرس، فعبر الفرس ودارت المعركة، وانهزم الفرس، واقتصر المسلمون

لأنفسهم من معركة الجسر، فقتلوا من الفرس أعداداً كبيرة، وغرق منهم في النهر عدد كبير أيضاً، وقُتل قائد جيش الفرس في هذه المعركة وهو "مهران" وغنم المسلمون غنائم كثيرة، وارتفعت الروح المعنوية بنصر المسلمين في هذه المعركة، وكان ذلك في شهر رمضان من السنة الثالثة عشرة للهجرة.

### \* معركة القادسية:

بعد معركة البويب التي أفضت مضاجع الفرس اجتمع امرأؤهم على عمليك "يزدجرد بن شهريار بن كسرى" ملكاً عليهم، وتوحدت كلمة الفرس، وانتهت منازلهم الداخلية، واشتد فيهم الحماص وقوي فيهم الأمل بالقضاء على المسلمين، والقصاص لقتلهم في معركة البويب.

ولما علم عمر بذلك نذب الناس إلى الجهاد، وخرج بنفسه على رأس الجيش من المدينة، وقد عزم على أن يذهب إلى العراق؛ ليقود الجيوش بنفسه أمام الفرس، ولكن عبد الرحمن بن عوف أشار عليه بعدم الذهاب وقال له: يا أمير المؤمنين إني أخشى إن كسرت أن تضعف أمر المسلمين في سائر أقطار الأرض، وإني أرى أن تبعث رجلاً وترجع إلى المدينة، فمال عمر إلى هذا الرأي، واختار مكانه سعد بن أبي وقاص فجعله أميراً عاماً على جيوش العراق كلها بما فيهم الثني وجرير البجلي، ولكن الثني توفي قبل وصول سعد متأثراً بجرحه الذي أصابه يوم الجسر.

واجتمع المسلمون في القادسية، وهي مكان قرب الكوفة، وأقام سعد بالقادسية شهراً لا يأتيه من الفرس خير، فيث سراياه بين كسكر والأنبار فأغارت على من ليس لهم ذمة، ومن غدر من أهلها، فأرسل هؤلاء إلى: "يزدجرد" ملك الفرس يخبرونه بما صنع المسلمون، وأعلموه إن تأخر فإنهم سيضطرون إلى تسليم ما بأيديهم إلى المسلمين أو يصالحونهم، فأرسل "يزدجرد" إلى رستم وأمره بالاستعداد والتأهب؛ ليكون قائداً لجيش

عظيم يحارب المسلمين فامتثل كرهاً؛ لأنه كان من رأيه مطاولة المسلمين، وإرسال جيش إثر جيش حتى يهين المسلمون ويضعفوا.

وخرج جيش الفرس بقيادة رستم، وكان تعداده فوق المائة وعشرين ألفاً، ولهم من المدد مثلهم.

ولما أخبر سعد عمر بن الخطاب بذلك، أرسل إليه عمر "لا يكربتك ما يأتيك عنهم، واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث رجالاً من أهل المناظرة والرأي والجلد يدعوتهم، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم"، فأرسل سعد جماعة من الأشراف دعاة إلى "يزدجرد" منهم النعمان بن مقرن، وقيس بن زرارة، والأشعث ابن قيس، وفرات بن حيان، وعاصم بن عمرو، وعمرو بن معد يكرب، والمغيرة بن شعبة، فلما وصلوا "المدائن" أدخلوا على "يزدجرد" فسألهم بواسطة ترجمانه؛ ما جاء بكم ودعاكم إلى غزونا والولوغ ببلادنا؟ أمن أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟

فتكلم عنهم النعمان بن مقرن فقال: "إن الله رحمننا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر، ووعدنا على إجابته خيري الدنيا والآخرة، فلم يدع قبيلة إلا قاريه منها فرقة، وتباعد عنه منها فرقة، ثم أمر أن نبتدى بمن خالفه من العرب فبدأنا فدخلوا معه على وجهين: مكره عليه وطائع، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، ثم أمر أن نبتدى بمن جاورنا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسن الحسن، وقبح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر منه الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلقنا فيكم كتاب الله، وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن بذلتم الجزاء قبلنا منكم ومنعناكم، وإلا قاتلناكم".

فقال "يزدجرد" إني لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقى، ولا أقل عدداً، ولا أسوأ ذات بين منكم، فقد كنا نوكل بكم ترى الضواحي فيكفونا أمركم، ولا تطمعوا أن

تقوموا بفارس، فإن كان غرور لحقكم فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد، فرضنا لكم قوتاً إلى خصيكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم.

فقام قيس بن زرارة فقال: أما ذكرت من سوء الحال فكما وصفت وأشد، ثم ذكر من عيش العرب، ورحمة الله بهم بإرسال النبي ﷺ مثل مقالة النعمان ثم قال: اختر إما الجزية عن يد وأنت صاغر، أو السيف، وإلا فنج نفسك بالإسلام.

فقال "يزدجرد": لولا أن الرسل لا تقتل لقتلناكم لا شيء لكم عندي، ثم دعا بوقر من التراب وقال لقومه احموه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن فقام عاصم بن عمرو، وقال أنا أشرفهم، وأخذ التراب فحمله وخرج إلى راحلته فركبها، ولما وصل إلى سعد؛ قال له أبشر فوالله لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم.

وسار رستم بجيش عظيم حتى نزل القادسية أمام عينبكر المسلمين يحول بينهم وبينه النهر، ومعه ثلاثة وثلاثون فيلاً، وقد أرسل سعد رسلاً إلى رستم بناء على ظله حتى يقف على حقيقة الأمر، فأرسل إليه سعد بن أبي وقاص في البداية ربيعي بن عامر، ثم أرسل في اليوم الثاني حذيفة بن محسن القطفاني، ثم أرسل في اليوم الثالث المغيرة بن شعبة.

وقد سلك الثلاثة طريقاً واحداً ولزموا أمراً واحداً في كلام رستم وتخيره بين أمر من ثلاثة: الإسلام، أو الجزية، أو المناجرة، ولكن الفرس تمادوا في غيهم؛ ليقضى الله أمراً كان مفعولاً، وعبأ كل قائد جيشه، وركز سعد على ضرب الفيلة، بواسطة الرماة المهرة، قال لهم: ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل وأقلعوا عيونها، واقطعوا وضمنها أي أحزام القتب، مما جعل الفيلة تنفر، وتقتل أصحابها.

وفي اليوم الثاني وصل للمسلمين مدد من الشام، بعثه - بأمر عمر - أبو عبيدة عامر بن الجراح وعليه هاشم بن عتبة، وكان على مقدمته القعقاع بن عمرو، فقويت الروح المعنوية عندهم، وحمي القتال وأبلى المسلمون بلاء حسناً.

وكان شأن الفرس في وحن يوماً بعد يوم، حتى كان اليوم الرابع: فحمل المسلمون حملة أزالوا بها الفرس، وقتل رستم قائد الفرس، وفر الفرس من أمام المسلمين وقام "الجالينوس" على الردم وأمر الجيش بالعبور، فعبّر من نجا منهم فتبعهم زهرة بن الحوية، وأدرك "الجالينوس" وهو يجمع المنهزمين فقتله وأخذ ضرار بن الخطاب الفهري الراية العظمى لفارس، ونصر الله المسلمين في هذه المعركة بعد أن لاقوا خطوباً كبيرة، وأذاقوا الفرس خطوباً أشد، وهذه الموقعة كانت أعظم مواقع المسلمين مع فارس، وبعث سعد إلى عمر بالبشارة والخمس، وأقام سعد بالقادسية شهرين ينتظر أمر عمر حتى جاءه الأمر: التوجه لفتح المدائن.

### \* فتح المدائن:

إن النصر يغري بالنصر، فقد طمع المسلمون بغزو الفرس في عقر دارهم، وقد استقر في نفس عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم من أهل الرأي من المسلمين، أن المسلمين لن يكسروا شوكة الفرس إلا إذا غزوه في عقر دارهم، وأخذوا عاصمتهم "المدائن" وأياسوهم من العراق مطلقاً، وفعلاً سار سعد بجيشه إلى المدائن لتحقيق هذا الهدف، فدخلها مظفراً، وخرج عنها الملك هارباً، واتخذ المسلمون إيوان كسرى مصلى، وصلى فيه سعد الجمعة، وكان ذلك في شهر صفر من السنة السادسة عشرة للهجرة.

### \* فتح جلولاء:

فر "يزدجرد" من المدائن واتجه إلى جلولاء وتحصن بها وتجمع حوله عدد كبير من الفرس فسير سعد ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، فسار هاشم وحاصره، وأبلى المؤمنون بلاء حسناً واشتد القتال حتى فتح الله جلولاء على المسلمين، وتبع المسلمون الفرس الهاربين إلى جلولاء، فسار إليهم القعقاع بن عمرو، فانتصر عليهم وفتح الله على المسلمين جلولاء.

## معركة نهاوند:

تجمع الفرس في مدينة نهاوند، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لا يريد أن ينساح المسلمون في أرض فارس الواسعة خوفاً عليهم من الفرس، واعتبر ذلك مغامرة خطيرة في أرض غير معروفة للمسلمين ولا عهد لهم بها، ولكن الأحنف بن قيس أشار إلى عمر بضرورة القضاء على ملكهم، وأنه لن ينقطع رجاء الفرس في النصر على المسلمين، إلا إذا انساح المسلمون في بلادهم، وأزالوا الملك عن فارس، وأخرجوه من مملكته وعز أمته.

اقتنع عمر بذلك - خاصة - بعد أن بلغه أنه قد تجمع بنهاوند من الفرس ما يزيد على المائة وخمسين ألفاً، فكتب عمر إلى حذيفة بن اليمان أن يسير بجند الكوفة، وإلى أبي موسى الأشعري أن يسير بجند البصرة، وإلى النعمان بن مقرن أن يسير بجنده فإذا التقوا فكل على جنده أمير، وعلى الجميع النعمان بن مقرن.

وسار المسلمون نحو "نهاوند" ودارت المعركة سجلاً بين الطرفين، وكلما حمى الوطيس تحصن الفرس بالحصون، وأشار النعمان على المسلمين بتصنع الهزيمة، حتى يعدوا الفرس عن الحصون، ثم يكرون فيقضون عليهم، ونجحت الخطة، وانتصر المسلمون ودخلوا "نهاوند" عنوة، ثم فتحوا أصبهان وقم، وبدأ المسلمون ينساحون في أرض فارس، وتوغلوا في أعماقها.

فسار ابن مقرن إلى همدان ففتحها، وسار سراقبة بن عمرو نحو باب الأبواب على سواحل بحر الخزر الغربية، وسار الأحنف بن قيس على رأس جيش حتى دخل خراسان، واتجه عثمان بن أبي العاص على رأس جيش إلى اصطخر، وسار عاصم بن عمرو التميمي على رأس جيش من أهل البصرة إلى إقليم سجستان، إلى غير ذلك من القواد الذين انساحوا في أرض الفرس، أر في بلاد ما وراء النهر، وتم فتح خراسان وقضى على الوجود

الفارسي، وفي الحقيقة بعد معركة "نھاوند"، لم تقم للفرس قائمة تذكر بعد ذلك، حتى أطلق على هذه المعركة "فتح الفتوح".

### \* وقعة مع الفتوحات في أرض فارس:

إن ما فعله المسلمون من الأفعال العظيمة، في البلاد الفارسية ذات الشوكة والمنعة، ابتداء من السنة الثانية عشرة من الهجرة وحتى وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لشيء يستحق التأمل والتفكير، فمنذ أن فتحت أول بلد من بلادهم وهي "الأبلة" والمسلمون في نصر تلو النصر، وتمموا فتح بلاد تبتدئ من حدود بلاد العرب غرباً، وتنتهي إلى ما وراء النهر وبلاد السند شرقاً، والخليج الفارسي جنوباً وبحر الخزر وأرمينية والروس شمالاً.

لقد اجتمع المسلمون مع الفرس في وقائع كثيرة، أشهرها وقعة "الأبلة" لخالد بن الوليد، ووقعة "القادسية" لسعد بن أبي وقاص، و"نھاوند" للنعمان بن مقرن. ووقعة "يزدجرد" للأحنف بن قيس، وكثير غيرها، لم تنكس لهم راية، ولم ينهزم لهم جيش، ولم يكن المسلمون في وقعة من الوقائع مساوين أقرانهم من الفرس في العدد والعدة، بل كان الفرس في كل وقعة أضعافهم، بل يزيدون، ولم يكن العرب أعلم من الفرس بتعبئة الجيوش، ولا بإحكام معدات الدفاع، ولم يكن المسلمون أكثر من الفرس ملاً حتى يمكنهم أن يستميلوا به أعداءهم ليكونوا معهم، بل حالهم من الشظف وضيق العيش لا تحفى، ولم يكن المسلمون أعلم من الفرس بطرق الدسائس والخديعة حتى يستخدموها في حروبهم.

\*\* فلماذا إذن كل هذه الانتصارات الباهرة والفتوحات العظيمة؟

\* يقول الشيخ محمد الحضري - بجمعاً على هذه السؤال: اللهم ما ذلك إلا بالتأييد الإلهي، اكتسبه باتحاد وائتلاف قلوبهم حتى صاروا أجساماً متعددة لهم قلب واحد، ورأي واحد وهو تعميم الدين الإسلامي بين الأمم الخائدة عن الصراط السوي والمنهج القويم.

انظر - رعاك الله - إلى ما كان يجب به رسل سعد، ملوك فارس وقواده ترى جواباً واحداً، وهو أن الله أرسلنا؛ لنخرج العباد من ظلمات الجهالة وجور الملوك إلى نور الإيمان وعدل الإسلام، كلهم في ذلك سواء، حتى الأعراب الجاني الذي كان قبل الإسلام لاهم له إلا النهب والغارة.

لم تكن خلفاؤهم بالجنباء الذين يخشون تهديداً أو يخافون وعيذاً، ولم تكن قوادهم بالدخلاء الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ولم تكن الأمة بالمختلفة الأهواء، المتشعبة المذاهب، تشتغل بسفاسف الأمور وتترك عظيمها، أو تترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوف أو جبن، ولم تكن علماءهم يشتغلون بالزهو والكبرياء والعجب والتفاني في حب الدنيا وتقليد المناصب والمفاخرة بذلك، حتى تنب بينهم العداوة والبغضاء.

ولم يكن الدين قد بليت جدته، بل كانت مظاهره تتجلى على أقوالهم وأعمالهم لا يخشون في الله لومة لائم، فلا عجب أن انتصروا، وفتحوا، وملكوا في زمن يسير ما لا يتصور أن تعمله أمة عظيمة، عندها بسطة في القوة والمال والعلم<sup>(١)</sup>.

### **ثانياً: الجبهة الغربية (بلاد الشام والأناضول ومصر):**

تولى عمر بن الخطاب الخلافة، في بداية القتال العنيف على الجبهة الغربية بين المسلمين والرومان في معركة اليرموك، والتي دارت أحداثها في أوائل شهر رجب من السنة الثالثة عشرة للهجرة، ونصر الله المسلمين بقيادة خالد بن الوليد على الرومان نصراً مؤزرًا، وفر الروم من اليرموك ولحقوا "بفحل" كما نقل "هرقل" ملك الروم، مقره من حمص إلى أنطاكية، وبدأ يسير منها الجنود لمواجهة المسلمين في كل موقع.

وانتقلت إمرة الجيش الإسلامي إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح بأمر من عمر بن الخطاب، ولما بلغ أبو عبيدة أن فلول الروم لحقوا "بفحل"، وأن مدداً عظيماً من قبل الروم

(١) إتمام الوفاء من سيرة الخلفاء، ص ١١٨، ١١٩ طبعة دار الفكر بيروت.

أتى دمشق، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستشيره بأي البلدين يبدأ، فكتب إليه عمر، أن ابدأ بدمشق فإنه حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل "فلح" بخيول تكون لقاءهم، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب وإن فتحت دمشق، فسر أنت ومن معك واستخلف على دمشق، فإن فتح الله عليكم "فحل" فسر أنت وخالد إلى حمص، وارك عمرو بن العاص، وشرحيل على الأردن وفلسطين.

### \* معركة فحل:

بعث أبو عبيدة عمارة بن محشي إلى فحل، فوجد أن الروم قد تحصنوا بها وطوقوا المياه بالمنطقة فحاصروهم عمارة، واستطاع أن يحرز النصر عليهم ودخل (فحل، وبيسان) قبل فتح دمشق.

### \* فتح دمشق:

لما وصل المسلمون إلى دمشق وجدوا أن أهلها قد تحصنوا، فحاصروهم أبو عبيدة من جهة وخالد بن الوليد من أخرى، ودام الحصار سبعين ليلة، وبينما خالد على حصاره سمع جلبة داخل المدينة، فأرسل من يستعلم الخبر، فعلم أن ولدًا لبطريق المدينة ولد، فصنع وليمة سكر فيها الجند سكرًا شديدًا، فاتخذ خالد حبالاً على هيئة السلام، وصعد إلى السور، وصعد معه أهل النجدة، والشجاعة، ثم قصدوا باب الحصن ففتحوه بعد أن قتلوا جزاسه، وكبروا، ودخل الجيش مكبراً، حتى أزعج تكبيره أهل المدينة فصحوا من سكرهم مذعورين لا يقدرين على شيء، فذهب وفد منهم إلى أبي عبيدة يطلبون منه الأمان، فأمنهم ودخل معهم المدينة ليؤمن الناس، فالتقى بخالد وسط البلد، هذا سلمًا، وذاك حربًا، فأخبره أبو عبيدة بالصلح فكف، وأجروا ما فتح عنوة مجرى الصلح فصارت كلها صلحًا.

وبعث أبو عبيدة إلى عمر بالفتح، ثم استخلف على المدينة يزيد بن أبي سفيان ففتح سواجلها (صيدا وعرقنة وجسار وبيروت)، وسير أخاه معاوية إلى "قيسارية" ففتحها، ثم توجه أبو عبيدة ومعه خالد إلى حمص.

## \* فتح حمص:

لما وصل المسلمون إلى حمص وجدوا أهلها قد تحصنوا منتظرين مدد هرقل، فحاصروهم المسلمون، ولما طال عليهم الأمر، ولم يصلهم مدد طلبوا من أبي عبيدة صلحاً مثل دمشق فصالحهم واستخلف على المدينة عبادة بن الصامت، وسار هو قاصداً "حماة" فلتقاه أهلها مدعين فصالحهم على الجزية والخراج، وجاء كتاب عمر بن الخطاب يأمر أبا عبيدة بالبقاء في حمص.

## \* فتح قنسرين:

أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين فقاتل أهلها بعد حصار، ودخل المدينة عنوة، وكان ذلك في السنة الخامسة عشرة من الهجرة، ثم أدرب خالد وراء هرقل من الشام، فترك ملك الروم الشام وودعها الوداع الأخير وسار إلى القسطنطينية.

## \* فتح أجنادين وبيت المقدس:

سار عمرو بن العاص إلى أجنادين وهي موقع قريب من الفالوجة ومكان عبور فلسطين من الجنوب وكان أرطوبون الروم مرابطاً في أجنادين، وطال تأخر الفتح في أجنادين، وسارت الرسل بين الطرفين، ولم يشف أحدهم عليل عمرو، فسار بنفسه باسم رسول عمرو، ودخل على الأرطوبون، وجرى الحديث بينهما واستنتج الأرطوبون أن الذي يخدمه هو عمرو نفسه، فخطط لقتله، ولكن عمرو بن العاص نجح بجيلة خدع فيها الأرطوبون.

وعرف عمرو مأخذه فحاربه وهزمه، وفر إلى إيلياء "بيت المقدس" فسار وراءه عمرو، وحاصره، ثم طلب أهله الصلاح على أن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب عمرو إليه بذلك، فعزم عمر على السفر إلى الشام؛ ليتسلم بيديه مفاتيح المسجد الأقصى، وخلف على المدينة المنورة علي بن أبي طالب، وكتب إلى عماله أن

يوافوه بالجابية بدمشق، وجاءه أهل إيلياء وهو بالجابية مستأمنين فصالحهم عمر على الجزية وكسب لهم أماناً، أمنهم فيه على كنائسهم وأموالهم وأنفسهم ودخل عمر مدينة بيت المقدس، وابتنى مسجداً فوق الصخرة، اشتهر فيما بعد بمسجد عمر بن الخطاب. ثم رجع ﷺ إلى المدينة فائزاً منصوراً، وكانت هذه أول مرة سافر فيها إلى الشام.

### \* فتح مصر:

استأذن عمرو بن العاص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في فتح مصر، وزين له فتحها، وذكر له خيرها، وأما قوة عظيمة لمملكة الروم، وكانت إذ ذاك تابعة لهم، وعليها والي من قبلهم يقيم بالإسكندرية - خاصة - وأن المسلمين قد انتهوا من فتح الشام، وانتهى عمرو نفسه من فتح فلسطين، واستجاب عمر بن الخطاب لطلب عمرو، فسار إلى مصر، وأمدّه بالزبير بن العوام ومعه بسر بن أرطاة، وخارجة بن حذافة، وعمير بن وهب الجمحي فالتقوا عند باب مصر، ولقيهم أبو مرثد ومعه الأسقف أبو مريام، وقد بعثه المقوقس من الإسكندرية، فدعاهما عمرو إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، وأخبرهما بوصية النبي ﷺ بأهل مصر بسبب هاجر أم إسماعيل ومارية القبطية أم إبراهيم ولد النبي ﷺ، وقد ذكرنا من قبل ما رواه مسلم في صحيحه أن رسول الله قال: "إنكم ستفتحون مصر وهي أرض فيها يسمى القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً أو ذمة وصهرًا"<sup>(١)</sup>، فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلى الأنبياء، فأما حتى نرجع إليك، فقال عمرو مثلي لا يخدع، ولكن أوجلكما ثلاثاً لتنظروا، فقالا زدنا فزادها يوماً، فرجعا إلى المقوقس عظيم القبط ومعه الأربطون الوالي من قبل الروم - وكان قد فر من بلاد الشام إلى مصر - فأخبراهما بخير المسلمين، فأما أربطون الروم فأبى وعزم على الحرب، وقاتل المسلمين فهزموه هو وجنده، ثم فر إلى الإسكندرية، وحاصر المسلمون عين شمس وهي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة.

المطرية"، وبعث عمرو لحصاز الإسكندرية عوف بن مالك، وأرسله أهل البلاد، وانتظروا ما يفعلُه المسلمون بعين شمس، وبعد مدة من حصارها رضِي أهلها بالصلح على إعطاء الجزية، وأجروا ما أخذ قبل ذلك عنوة مجرى الصلح، وشرطوا رد السبايا فأرسل عمرو إلى أمير المؤمنين بذلك فأجاب، وكتب لهم عمرو بذلك كتاباً أمنهم فيه على كنائسهم وأموالهم وأنفسهم شريطة أن يعطوا الجزية والخراج، ودخل في ذلك الصلح أهل مصر كلهم، ثم نزل المسلمون على القسطنطين الذي ضربه عمرو، واحتطوا حوله خيامهم، وأسس عمرو بمدينته المسجد المشهور الآن بمصر القديمة ويعرف بمسجد عمرو بن العاص.

ثم سار عمرو بن العاص إلى الغرب ففتح "برقة" وصالح أهلها وانطلق إلى "طرابلس" ففتحها بعد حصار دام شهراً، وأراد عمرو أن يتقدم نحو الغرب في شمال إفريقيا، ولكن عمر بن الخطاب أمره ألا يتقدم أكثر من ذلك جهة الغرب، وأن يستقر في مصر ولا يغادرها.

وبفتح "مصر" انتهى ما فعله المسلمون رضوان الله عليهم مع الروم في مدة عمر بن الخطاب، وأخذوا من الروم ولايتين عظيمتين هما الشام ومصر، وجزءاً مهماً من جنوب بلاد الروم "الأناضول" وقد أضعف المسلمون شوكة الرومان بذلك، وأزالوا دولتهم، وعلا صوت الإسلام في بلاد فارس والرومان، وقضى على أسطورة الفرس والروم، وأنهما لا يقهران، وأصبحت الكلمة العليا لله ورسوله والمؤمنين.

وأصبح المسلمون في عهد عمر بن الخطاب هم القوة الأولى في العالم آنذاك، وأصبح لهم الهيبة في نفوس الأمم، ومعهم العدل والنور ينشرونه في كل مكان وصلوا إليه، مما جعل الأمم المفتوحة تسعد بالإسلام وبالمسلمين أكثر من سعادتهم بأديانهم وبحكامهم السابقين.

### ثالثاً: مواقف فريدة في الفتوحات الإسلامية:

إن الذي ينظر في مجريات الأحداث أثناء تلك الفتوحات، ويقف على تصرفات القواد المسلمين في معاملتهم مع جنودهم ومع أهل البلاد المفتوحة يرى عجباً، ويرى صوراً مشرفة، قل أن نجد مثلها الآن، وما أحوجتنا نحن المسلمين إلى أن نأخذ العبرة والعظة من أمجادنا السالفة، وأن نأخذ المثل والقدوة من أسلافنا السابقين، ولن نستطيع الحصر، فكل تصرف من هؤلاء هو قدوة وأسوة، ولكننا سنتطرق بعض المواقف كمنادج على سلوك هذا الجليل الفذ الذي تضمن البشرية أن تجود بمثله الآن.

#### ١- موقف لأبي عبيد بن مسعود الثقفي:

لما التقى المسلمون بقيادة أبي عبيد مع الفرس في موقعة "التمارق" ونصر الله المسلمين، بث أبو عبيد سرايا في المناطق المحيطة، فهزمت السرايا من تجمع في هذه الجهات من الفرس، وطلب أمراؤها الصلح فأجيبوا ودفعوا الجزاء، ثم جاءوا إلى أبي عبيد بأنواع الأطعمة المحبوبة عند الفرس، فقال لهم: هل أكرمتم الجند بمثلها، فقالوا: لم يتيسر، ونحن فاعلون، فقال أبو عبيد: لا حاجة لنا فيه، بس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم ثم استأثر عليهم بشيء، لا والله لا أكل ما أتيتم به، ولا مما أفاء الله إلا مثل ما يأكل أوساطهم.

يرحم الله أبا عبيد الذي ضرب المثل النادر لكل قائد مع جنوده، وأنه لا يتميز عنهم بشيء، وإنما هو وهم سواء في كل شيء.

#### ٢- موقف نادر في الوفاء:

لما نزل سعد بن أبي وقاص بالقادسية كتب إليه عمر بن الخطاب كتاباً جاء فيه: إني ألتقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو غلبتموهم، فمضى لآعب أجد منكم أحداً من العجم بأمان، أو إشارة، أو لسان كان عندهم أماناً، فأجروا لهم ذلك مجرى الأمان والوفاء، فإن الخطأ بالوفاء بقية، وإن الخطأ بالعدو هلكت، وفيها رهنكم، وقوة عدوكم.

لله در عمر الذي أعطى الأمان للعدو ولو جرى مجرى الإشارة، وأين ذلك اليوم من الغدر والخيانة، وألعيب الدول الكبرى. بمصائر الدول الصغرى؟ وأين ذلك من العهود والمواثيق التي يقطعها اليهود على أنفسهم ثم يضربون بها عرض الحائط إذا ظهرت لهم مصلحة في الغد؟ إن وصية عمر تلك لجديرة أن تكتب بماء الذهب، وأن يعرف القاصي والداني من سياسة الدول اليوم كيف كانت معاملة المسلمين في حروبهم وفتوحهم.

### ٣- موقف لربيعي بن عامر:

لما نزل رستم بجيشه القادسية وعسكر أمام المسلمين أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا رجلاً نكلمه، فأرسل إليه ربيعي بن عامر، فجاهه وقد جلس على سرير من ذهب، وبسط النمارق والوسائد منسوجة بالذهب، فأقبل ربيعي على فرسه؛ وسيفه في خرقه، ورمحه مشدود بعصب، فلما انتهى إلى البساط وطأه بفرسه، ثم نزل وربطها بوسادتين شقهما وجعل الخيل فيهما، ثم أخذ عباءة بعيره فاشتملها، فأشاروا عليه بوضع سلاحه فقال لو أتيتكم فعلت بأمركم، وإنما دعوتوني، ثم أقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه حتى أفسد ما مر عليه من البسط، ثم دنا من رستم وجلس على الأرض وركز رمحه على البساط، وقال إنا لا نعد على زينتكم، فقال رستم: ما جاء بكم؟

قال: الله جاء بنا، وهو بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر، فقال رستم: قد سمعنا قولكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه، فقال: نعم، وإن مما سن لنا رسول الله ﷺ ألا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء، فنقبل ونكف عنك وإن احتجت إلينا نصرناك، أو المنابذة في اليوم الرابع إلا أن تبدأ بنا، وأنا كفيل بذلك عن أصحابي، فقال رستم: أسيدهم أنت؟

قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على  
أعلاهم، ثم انصرف، فخلا رستم بأصحابه، وقال: أرايتم كلاماً قط مثل كلا هذا الرجل؟  
فأروه الاستخفاف بشأنه، فقال رستم ويلكم إنما أنظر إلى الرأي والكلام والسيرة،  
والعرب تستخف اللباس وتصون الأحساب.

ثم طلب رستم في اليوم الثاني من سعد أن يرسل إليه نفس الرجل الذي أرسله  
بالأمس، ولكن سعداً أرسل إليه حذيفة بن محصن العطفاني، فلم يختلف عن ربعي في  
العمل والإجابة.

ثم طلب في اليوم الثالث رجلاً آخر، فأرسل إليه سعد، المغيرة بن شعبه، فما  
خالف في قوله وسلوكه عن سابقه، بل كان أشد استخفافاً بالفرس وأعظم جرأة على  
رستم في الكلام والتهديد، مما جعل رستم بعد لقاء هؤلاء الثلاثة يغير رأيه في حرب  
المسلمين.

وجمع قومه فقال لهم: أين هؤلاء منكم؟ ألم يأتكم الأولان فحسراكم  
واستخرجاكم؟ ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا وسلكوا طريقاً واحداً، ولزموا أمراً واحداً،  
هؤلاء - والله - الرجال صادقين كانوا أم كاذبين، لكن بلغ من أدهم وصورهم لسرهم أن  
لا يختلفوا، فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم، لكن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء،  
ولكن الفرس لجوا على رستم وتمادوا في غيهم؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

لله در هؤلاء الأبطال الثلاثة، الذين صغرت الدنيا في أعينهم، وعظم شأن الله في  
قلوبهم، فاستهانوا بكل ملوكها، وحقروا شأن الباطل فيها مهما كان سلطاناً وجبروتاً،  
إنهم فية اعتزوا بربهم فأعزهم الله.

وأين شبابنا اليوم وقادتنا وحكامنا من هؤلاء؟

بل أين المسلمون جمعياً من سلوك وإيمان هذا الجيل الأول؟

ألا يستحقون أن يكونوا قدوة ومثلاً أعلى نفاخر به، ونسارع إلى التأسى بهم!

#### ٤- شهادة حق:

لما قدمت الروم منهزمة على هرقل وهو على أنطاكية قال لهم: ويلكم، أجبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم، أليسوا بشرًا مثلكم؟ قالوا: بلى، فقال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن، قال: فما بالكم تنهزمون؟

فقال شيخ من علمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أننا نشرب الخمر، ونزني ونكسب الحرام، ونقض العهد، ونغضب ونظلم ونأمر بالسخط، ونهوى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض فقال له هرقل: أنت صدقتي.

فعلاً، لقد صدقه الرجل، فإن النصر الذي كان حليف المسلمين ليس بكثرة العدد والعدة، وإنما بسبب الطاعة، والحرص على نصرة دين الله، ونشره بين ربوع الأرض ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

#### ٥- توجيهات القائد الأعلى:

لما انتخب عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص لقيادة الجيش العظيم المتجه إلى أرض العراق، وولاه عليه أوصاه فقال: يا سعد بن أم سعد، لا يغرنكم من الله أن يقال خال رسول الله، وصاحب رسول الله، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته، فالناس في دين الله سواء، وهم عباده يتفاضلون عنده بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر إلى الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه.

ثم سرحه بأربعة آلاف وأتبعه بمثلها وأرسل إليه عهدًا هذه صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم:

أما بعد "فإني أمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب.

وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أحرف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عدونا ليس كعددهم، وعدتنا ليست كعددهم.

فإن استوتينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيو منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمعاصي الله كفار الجحوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً، وسلوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، وأسأل الله ذلك لنا ولكم، وترفق بالمسلمين في سيرهم، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة، حتى تكون لهم راحة يجيئون بها الأنفس، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم، ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من صحابك إلا من ثق بدينه، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة، ابتليت بالوفاء بما كما ابتلوا بالصبر عليها، ولا تنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح، وإذ وطئت أرض العدو فأرسل العيون بينك وبينهم، ولا يخفى عليك أمرهم.

وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، وليكن منك عند ذنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع، واثبت السرايا بينك وبينهم فقتل السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، واختر للطلائع أهل البأس والرأي من أصحابك، ونخبر لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة، واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلال، ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكايه، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر

عوزة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها، فتصنع بعدوك كصنعه بك، وتيقظ من البيات جهدك.

ولا تأت بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه، لترهب به عدو الله وعدوك، والله ولي أمرك. ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم والله المستعان<sup>(١)</sup>.

هذا نموذج رائع من وصايا الحكام لولاقتهم وقادة جيوشهم، وهو في مضمونه وثيقة رائعة، تدل على خلق المسلمين في الحرب، وتشير إلى عبقرية عمر بن الخطاب، وخبرته العميقة في شئون الحرب والقتال، فوق حرصه الشديد على سلامة الجند، واهتمامه الكبير باعتناء الجنود بأقوى سلاح على عدوهم وهو طاعتهم لله عز وجل.

وقد لمسنا حرص عمر بن الخطاب على عدم انتهاك حرمة أهل الذمة أو الغدر بهم، وحرصه على بث السرايا والطلائع قبل المعركة حتى يستطلع قائد الجيش أحوال عدوه، ويقف على طبيعة أرضه وخططه.

إنها في الحقيقة وصية جامعة، ووثيقة تاريخية نادرة. ما أحوج قادة المسلمين اليوم إلى التأسي بما والعمل بما فيها، وجزى الله عمر عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وكذا قواده الأبطال وجند المسلمين الفاتحين أجمعين.

(١) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء للشيخ محمد الحضري ص ٧٤، ٧٥.

## أسئلة التقويم الذاتي

- س١: كان اهتمام عمر بن الخطاب بأمر العراق شديداً، فما سبب ذلك؟
- س٢: أخبر عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص أن يرسل إلى الفرس من يدعوهم ويناقشهم قبل القتال في القادسية، فهل نفذ ذلك سعد بن أبي وقاص؟ ومن هؤلاء الذين أرسلهم؟
- س٣: معركة خاضها المسلمون ضد الفرس أطلق عليها اسم (فتح الفتوح) تكلم عنها بإيجاز.
- س٤: تكلم عن فتح دمشق.
- س٥: كانت هناك توجيهات أصدرها عمر بن الخطاب إلى الجنود أوصى بها سعد بن أبي وقاص كقائد لهم، وضح ذلك.
- س٦: عقب موقعة النمارق والتي انتصر فيها المسلمون على الفرس ضرب لنا أبو عبيد بن مسعود الثقفى مثالا في المساواة بين القائد والجنود حتى في الطعام، وضح ذلك الموقف.



## سياسة عمر الداخلية وجهوده العظيمة في تنظيم الدولة الإسلامية

أولاً: التاريخ الإسلامي.  
ثانياً: إنشاء الدواوين.  
ثالثاً: تنظيم الأمصار وتعيين الولاة.  
رابعاً: التعمس ورعاية الآداب العامة.  
خامساً: العناية بشئون الدين والتشريعات.

لا يجهل أحد مدى توسع الدولة الإسلامية في عهد عمر رضي الله عنه، فقد ازدادت رقعتها حتى وصلت إلى بلاد الأناضول شمالاً، وإلى برقة وطرابلس غرباً، وإلى بلاد اليمن جنوباً، وبحوار التوسع في رقعة الأرض، كان التنوع في الأجناس البشرية والأعراف والتقاليد، فقد دخلت شعوب كثيرة في الإسلام، تختلف في لهجاتها ولغاتها وطبائعها النفسية وبيئاتها المناخية وظروفها الاقتصادية عما كانت عليه الجزيرة العربية.

وتنظيم هذه المملكة الكبيرة - بلا شك - يحتاج إلى جهد كبير، وإلى عقلية جبارة حتى تضع الأمور في نصابها الصحيح، فتولى الولاة بحكمة وفق شروط ومواصفات محددة، وتجمع الأموال الكثيرة الآتية من الخراج والجزية فضلاً عن الزكاة، تجمعها بنظام دقيق وتوزعها في مصارفها وفق نظام دقيق وعدل وافر، وتنظم الأمصار، وترعى الآداب، وتحمي التشريعات وتضع ضوابط القضاء وتحقيق العدل، وتحرس الإيمان في النفوس حتى لا تحون ولا تغدر، وتهتم بالتعليم والفقهاء، فثبت الدعاة، وترسل الفقهاء إلى الأمصار المفتوحة لتعليمهم شؤون الدين، وتضع نظام المحاسبة والمراقبة لكل من ولي من أمر المسلمين شيئاً، فضلاً عن تنظيم الجيوش، ومواصلة الفتوحات؛ لنشر الإسلام في كل مكان.

إنه - بلا شك - جهد كبير وعمل مضني، لا يقدر عليه، ولا يتحمل تبعاته إلا مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي شعر بضخامة التبعة، وعظم الأمانة والمسئولية الملقاة على عاتقه، فأسهر ليله وأيقظ نهاره في القيام مهمة الخلافة للأمة الإسلامية خير قيام، وقد أعلن عن إحساسه بهذه التبعة الضخمة من أول يوم ولي فيه أمور الأمة فقال: "إن الله ابتلاني بكم وابتلاكُم بي" فسار في رعيته سيرة العدل والحزم، حتى أصبحت سياسته مضرب الأمثال، وأصبح عهده أخصب العهود، وأوضحت أوضاع الأمة الإسلامية في خلافته مطمع كل راغب في الإصلاح، وكل ناشد للفضيلة والحياة الآمنة السعيدة، فرحمه الله رحمة واسعة، وأجزل له المثوبة وخير الجزاء عما قدم للإسلام والمسلمين.

ونحن بعون الله تعالى؛ سنعرض في هذه العجالة لبعض التنظيمات التي وضعها عمر في سياسة الدولة وتنظيم شئونها الداخلية والخارجية، وسيكون عرضنا على سبيل الإيجاز من أجل بيان الأصول التنظيمية، تاركين التفريعات والجزئيات لمن أراد المزيد من الطلاب، حتى نربطه بأمهات الكتب والمراجع الأساسية التي تجلئ له تاريخ أمته الإسلامية عامة، وتاريخ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خاصة، أمثال الطبقات الكبرى لابن سعد، وتاريخ الرسل والملوك للطبري، والبداية والنهاية لابن كثير، وكتاب التاريخ لابن خلدون، وغير ذلك من كتب التراث المباركة.

وسيكون عرضنا في هذا المبحث شاملاً للنقاط الآتية:

- ١- التاريخ الإسلامي.
- ٢- إنشاء الدواوين وتنظيم بيت المال.
- ٣- تنظيم الأمصار وتعيين الولاة.
- ٤- التعمير ورعاية الآداب العامة.
- ٥- العناية بشئون الدين والتشريعات.
- ٦- عمر وعام الجماعة.

## أولاً: التأريخ الإسلامي:

من المعروف أن العرب لم يكن لهم تاريخ بالحساب والسنين، وإنما كانوا يؤرخون بالوقائع والأيام المشهورة، كحرب البسوس، وداحس والغبراء ويوم ذي قار، وحرب الفجار، وعام الفيل، بل قال ابن الأثير في الكامل "وقد كانت كل طائفة من العرب تؤرخ بالحدوث المشهور فيها، ولم يكن لهم تاريخ يجمعهم"<sup>(١)</sup>.

وقدم النبي ﷺ المدينة، وليس لهم تاريخ، فكانوا يسمون كل سنة باسم الحادثة التي وقعت فيها، ويؤرخون بها، فسميت السنة الأولى من سني مقام النبي بالمدينة "الإذن بالرحيل" أي من مكة إلى المدينة والثانية "سنة الأمر بالقتال"، والثالثة "سنة التمهيد" أي بغزوة أحد، وهكذا حتى توفي رسول الله ﷺ، وانقطع التاريخ، ومضت أيام أبي بكر ﷺ على هذا، وأربع سنين من خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، ثم وضع التأريخ.

### \* وذكروا في سبب التأريخ أشياء:

منها: ما أخرجه أبو نعيم في تاريخه "أن أبا موسى الأشعري، كتب إلى عمر ﷺ: أنه يأتيك منك كتب ليس لها تاريخ، فجمع عمر الناس واستشارهم في وضع تاريخ للمسلمين.

ومنها: ما رواه الحاكم من طريق ميمون بن مهران قال: رفع لعمر صك يحله شعبان، فقال: أي شعبان هذا: الماضي، أو الذي نحن فيه، أو الآتي، ضعوا للناس شيئاً يعرفونه.

وقيل: إن يعلى بن أمية - عامل عمر على اليمن - كتب إلى عمر كتاباً من اليمن مؤرخاً، فاستحسنه عمر، فشرع في التأريخ.

وقيل: إن عمر جمع وجوه الصحابة وقال لهم: إن الأموال قد كثرت، وما قسمناه غير مؤقت، فكيف التوصل إلى ما يضبط ذلك؟ فقال الهرمزان وهو ملك الأهواز، وكان

(١) الكامل ج ٦ طبعة القاهرة سنة ١٣٠١هـ.

قد أسر عند فتح فارس، وحمل إلى عمر فأسلم، قال: إن للعجم حساباً بسميته "ماه روز"  
وشرح فهم طريقته؛ فشرع عمر في وضع حساب للمسلمين.  
\* وأما كان الأمر:

فقد رأى عمر بن الخطاب أنه أصبح أمام مشكلة لا بد لها من حل، وهي: كيف  
يضبط الأوقات والمعاملات، وما يرسله إلى الولاة والقادة من كتب ورسائل، فالأمر يحتاج  
إلى تحديد وضبط، فجمع وجوه الصحابة، واستشارهم، وانحصرت آراؤهم في أربع  
مساسات يمكن أن يبدأ بها التأريخ وهي: مولده، ومبعثه، وهجرته، ووفاته ﷺ، فرجح  
عندهم جعلها من الهجرة؛ لأن المولد والمبعث لا يتخلو واحد منهما من التراجع في تعيين  
وقته. وأما وقت الوفاة، وإن كان معيناً، فقد أعرضوا عنه؛ لأنه لا يمكن عقلاً أن يجعل  
أصلاً لنسب التأريخ، فوق أن يذكر بالأسف عليه في كل يوم، فانحصر الأمر في الهجرة إذاً،  
وافق الجميع، لأن وقتها هو وقت استقامة ملة الإسلام، وترادف الوفود واستعلاء المسلمين  
وإعزازهم، فهو مما ينبرك به، ويعظم وقعه في النفوس، إذ هي التي فرقت بين الحق  
والباطل.

وأما أخذوه من ربيع الأول موعد هجرته ﷺ إلى المحرم؛ لأن ابتداء العزم على  
الهجرة كان في المحرم، إذ بيعة العقبة الكبرى وقعت في أثناء ذي الحجة، وهي مقدمة  
الهجرة، فكان أول هلال استهل بعد البيعة، والعزم على الهجرة، وقد وجه النبي أصحابه  
إلى الهجرة بعد بيعة العقبة، فكان المحرم بداية التنفيذ العملي للهجرة إلى المدينة من الصحابة  
الذين سبوا النبي إليها، فضلاً عن كونه من الأشهر الحرم، فكان مناسباً أن يجعل قيدا  
لتأريخ. فهو أول السنة، ومنصرف الناس من الحج.

وهكذا انتهت مشكلة التأريخ، وأصبح للمسلمين تأريخ خاص بهم، يبدأ من  
شهر المحرم في السنة الأولى من الهجرة النبوية الشريفة، وتم ذلك الصنيع بعد أربع سنين من  
خلافة عمر. في ربيع الأول سنة سبع عشرة من الهجرة النبوية الشريفة<sup>(١)</sup>.

(١) راجع في هذا البحث كتاب الإعلان بالتبويب لمن دم التأريخ لشمس الدين السخاوي طبعه دار الكتب  
لعمامة بيروت من صفحة ١٢٨ - ١٤٨.

## ثانياً: إنشاء الدواوين وتنظيم بيت المال:

• كثرة الأموال واستشارة الصحابة:

إن المال الذي كان يصل إلى النبي ﷺ في حياته، وإلى أبي بكر في فترة خلافته، من الفيء والغنائم، لا يعد شيئاً يذكر إذا قيس بالأموال التي كانت ترد إلى عمر في فترة خلافته، فقد كثرت الفتوحات ودخلت جُل مملكتي الفرس والروم ضمن الدولة الإسلامية وجاء منها المال الكثير من الفيء والغنائم والخراج - حتى بعد أن يأخذ المجاهدون نسبتهم من هذا المال.

وقد سببت كثرة هذه الأموال الفائضة مشكلة كبيرة في حياة عمر بن الخطاب، كيف يتصرف في هذه الأموال؟ وكيف يقسمها قسمة عادلة؟ وهل ينفقها كلها، أم يبقى في بيت المال منها شيئاً لوقت الحاجة؟ ويذكر ابن سعد في طبقاته أن أبا هريرة قدم على عمر من البحرين ونعه خمسمائة ألف درهم، فقال عمر للناس، إنه قدم علينا مال كثير، فإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إني قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدنون ديواناً يعطون الناس عليه، فاستشار عمر كبار الصحابة في ذلك، فقال له علي بن أبي طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئاً.

وكان أبو بكر الصديق ﷺ يسير على هذا النهج الذي أشار إليه علي ﷺ، فكان يسوي بين الناس في العطاء، ولا يمسك من المال شيئاً - وأشار عثمان بن عفان بقريب من رأي علي بن أبي طالب، فقال له الوليد بن هشام ابن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً، وجندوا جنوداً - أي نظموا جنوداً للجهاد وأفرغوهم لهذه المهمة - فأخذ عمر يقول الوليد، وبدأ في إنشاء الديوان، وكان ذلك في المحرم سنة عشرين من الهجرة، فدعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم - وكانوا من نساب قريش - فقال لهم اكتبوا الناس علي • إنزلهم، فكتبوا فبدنوا

بيني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه، على ترتيب الخلافة، فلما نظر إليه عمر قال: وددت والله لو أنه هكذا، ولكن ابدعوا بقرابة النبي ﷺ الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله، ولما عتب عليه قومه (بنو عدي)، وقالوا له: لو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم، قال: يخ بخ بني عدي، أردتم الأكل على ظهري، لا والله، حتى يطبق عليكم الدفتر - يعني ولو أن تكتبوا آخر الناس.

### \* منازل الناس في الديوان :

بدأ الديوان ببني هاشم فهم الطبقة الأولى في المترلة، فهم قرابة النبي، والعرب شرفت برسول الله ﷺ، وقومه أشرف العرب، وكان يدون الأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ وكان القوم إذا استووا في القرابة برسول الله قدم أهل المسابقة في الإسلام، حيث انتهى إلى الأنصار. فقالوا: بمن نبدأ؟ فقال عمر: ابدعوا برهط سعد بن معاذ الأشهلي، ثم الأقرب فالأقرب بسعد بن معاذ.

### \* مقادير الناس في العطاء:

لقد مايز عمر في العطاء بين الناس، ولما نوقش في ذلك وقيل له لم لم تسو بينهم في القسم كما فعل أبو بكر ﷺ؟ قال: لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه، ثم قال: والله الذي لا إله إلا هو - ثلاثاً - ، ما من الناس أحد إلا له في هذا المال حق أعطيه أو أمنعه، وما أحد بأحق به من أحد إلا عبد مملوك، وما أنا فيه إلا كأحدهم، ولكننا على منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت لياتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه."

\* وبدأ ﷺ بمن شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار، ففرض لكل رجل منهم خمسة آلاف درهم في كل سنة، حليفهم ومولاهم معهم بالسواء.

\* وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد أحدًا أربعة آلاف درهم لكل رجل منهم.

\* وفرض لأبناء الدريين أنفين ألفين، إلا حسنا وحسينا أبناء علي، فقد أحقهما بفريضة أيهما لقرايتهما من رسول الله، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف درهم، وكذا فرض للعباس بن عبد المطلب خمسة آلاف درهم أيضًا لقرايته من رسول الله، وقيل فرض له سبعة آلاف درهم.

\* وفرض لأزواج النبي لكل واحدة منهن اثني عشر ألف درهم، فلم يفضل أحدًا على أهل بدر سوى أزواج النبي رضي الله عنهم.

\* وفرض لمن هاجر قبل الفتح لكل رجل ثلاثة آلاف درهم.

\* وفرض لمسلمة الفتح لكل رجل منهم ألفين، وفرض لغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مسلمة الفتح، ومير في العطاء عمر بن أبي سلمة فأعطاه أربعة آلاف لمزلة أمه أم سلمة رضي الله عنها.

\* وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف أيضًا، لمزلة وأبيه من رسول الله ﷺ، فقد كان أحب بن الحب، ولما اعترض ولده عبد الله بن عمر، فقال: فرضت لي ثلاثة وفرضت لأسامة أربعة، وقد شهدت ما لم يشهد أسامة، فقال عمر: زدته لأنه أحب إلى رسول الله منك، وكان أبوه أحب إلى رسول الله من أبيك.

\* ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن، وجهادهم، ثم جعل من بقي من الناس ناسًا واحدًا، فأخفق من جاءهم من المسلمين بالمدينة خمسة وعشرين دينارًا لكل رجل، ومير للمحاربين معهم.

\* وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة، لم ينقص أحدًا من ثلاثمائة درهم وقال: لئن كثرت المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم: ألف لسيفره، وألف لسلاحه، وألف لفرسه وبغله، وألف يخلعها لأهله، وقد روي أنه فرض للنساء المهاجرات ثلاثة آلاف درهم لكل واحدة.

\* وكان يفرض للمنفوس مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم، فإذا بلغ زاده، وكان في أول الأمر لا يفرض للمولود إلا بعد الفطام، فلما وجد الأمهات يتعجلن فطام الأطفال، بكى وقال يا بؤساً لعمر كم قتل من أولاد المسلمين، ثم أمر منادياً فنادى: ألا لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام، وكتب بذلك إلى الآفاق.

\* وكان إذا أتى باللقيط فرض له مائة درهم، وفرض له رزقاً يأخذه وله كل شهر بما يصلحه، ثم ينقله من سنة إلى سنة، وكان يوصي بهم جبيراً، ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال.

\* دقة عمر في التوزيع وحرصه على توصيل الحق لأصحابه:

يروى ابن سعد عن هشام الكعبى عن أبيه قال: رأيت عمر بن الخطاب يحمل ديوان خزاعة حتى يترل قديداً، فتأتيه خزاعة بقديد، فلا يغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب فيعطيهن في أيديهن، ثم يروح فيترل عسغان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفي رضي الله عنه، وهكذا كان رضي الله عنه حريصاً على أن يوصل الحق بنفسه إلى أصحابه ما أمكنه ذلك وقربت الديار، فإذا بعدت أوكل تلك المهمة إلى أهل الأمانة والدين، ويبدل قصارى جهده في مراقبتهم ومتابعتهم حتى يصلوا بالحق إلى أصحابه.

\* توجيهات عمر في كيفية الاستفادة من العطاء:

لقد قدم على عمر خالد بن عُرْقُطَة العذري من بلاد العراق والعجم، فسأله عمر عما وراءه، فقال: يا أمير المؤمنين تركت من ورائي يسألون الله أن يزيد في عمرك من أعمارهم، ما وطئ أحد القادسية إلا عطاؤه ألفان أو خمس عشرة مائة.

ثم أخذ يتكلم عن كثرة العطاء في أيدي الناس، حتى أصبحوا ينفقونه فيما ينبغي وفيما لا ينبغي.

ثم قال: إنما هو حقهم أعطوه، فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء العزيب اتباع منه غنماً فجعلها بسوادهم.

ثم إذا خرج العطاء الثانية اتباع الرأس فجعلها فيها، فإن - ويحك يا خلاد - أخاف عليكم أن يليكم بعدي ولاة، لا يعد العطاء في زمانهم مالا، فإن بقي أحد منهم، أو أحد من ولده كان لهم شيء يتكون عليه، فإن نصيحتي لك وأنت جالس عندي كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين، وذلك لما طوقني الله من أمرهم، قال رسول الله ﷺ: "ما من عبد يسترعه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة"<sup>(١)</sup>.

\* بيت المال:

كما نظم عمر بن الخطاب ديوان العطاء، نظم أيضاً بيت المال، فكان يجعل إلى جانب كل والي، رجلاً آخر يتولى أمر بيت المال في كل مصر، يتلقى ما يُحج به إليه من كل كور<sup>(٢)</sup>.

ويعطي الوالي ما يؤدي منه إلى الناس أعطياتهم، وما يحتاج إليه فيما ينوبه أو يقوم به من مشاريع وأعمال، ثم يؤدي إلى عمر ما بقي من المال، وعلى ذلك: فكانت بيوت المال في كل مصر من الأمصار معلومة مواردها ومعلومة مصارفها، ولا يغيب من أمرها شيء البتة عن عمر رضي الله عنه؛ مما يمكنه من محاسبة الولاة على ما أنفقوا، وما إذا كان المال المحصل يكفي المصر ويفيض عن حاجته، أو لا يكفيه ويحتاج إلى مدد من بيت المال العام.

وكان عمر حريصاً على عدم اكتناز المال في بيت المال، بل كان سباقاً مسرعاً في تصريفه وإنفاقه في وجوهه وعلى مستحقيه، فقد روى ابن سعد في طبقاته أن عمر كتب إلى أبي موسى الأشعري:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب استحقاق الولي الغاش لرعيته النار.

(٢) الكور هو الخلة الصغيرة كالقرية.

"أما بعد: فأعلم يوماً في السنة لا يبقى في بيت المال درهم حتى يكتسح اكتساحاً حتى يعلم أني قد أديت إلى كل ذي حق حقه" قال الحسن: فأجذ صفوها وترك كدرها حتى ألحقه الله بصاحبيه<sup>(١)</sup>.

وكان يجعل بيت المال في وسط المدينة حتى يكون مأموماً من السرقة، ويضع له حارساً يصونه من أيدي العابثين، يفعل ذلك كله حرصاً على مال المسلمين.

### \* ديوان الجند:

لم يكن اهتمام عمر بإنشاء الديوان قاصراً على تقسيم العطاء على سائر الأمة، وإنما كان لتنظيم أمر الجند شأن عظيم عند عمر، وكان هم مزيد اهتمام في سياسته، فهم حماة الدين، وهم فاتحو البلدان أمام نور الإسلام، وهم عدة الأمة وحماها.

ولهذا رأينا عمر يهتم بتنظيم ديوان الجند اهتماماً بالغاً، - خاصة - بعد تمصير الأمصار، وتقسيم الدولة إلى أمصار تغطي أنحاء الأمة الإسلامية آنذاك فكانت الكوفة، والبصرة، والشام، والجزيرة، والموصل، ومصر، واليمن، والبحرين، وغيرها، وجعل في كل مصر من هذه الأمصار معسكراً دائماً لجند المسلمين، تخرج منه بعوث الحرب، ونظمت أمورهم تنظيمًا دقيقاً.

وكان يوصي الولاة بأن لا يجمروهم في المواقع - يعني لا يجسؤهم بعيداً عن أهلهم أكثر من ستة أشهر - وكانت تسجل أسماءهم، ويأخذون فوق أسهمهم من الفيء والغنيمة، أعطيتهم من بيت المال على حسب منازلهم في الديوان العام، هذا فوق رعاية أسرهم رعاية شاملة من آبائهم وأبنائهم وزوجاتهم، مما جعل الجند يطمثون على أرزاقهم وأسرهم، ويذهبون للقاء العدو، وهم آمنون مطمئنون.

(١) الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢١٨.

\* ديوان العطاء ابتكار إسلامي فريد ونظام لم تصل إليه أية دولة في العالم القديم

والمعاصر:

إن نظام العطاء الذي وضعه عمر رضي الله عنه نظام فريد لم تعرفه أمة من الأمم التي سبقت في تحضرها، ولم تصل إليه أمة في العصر الحديث، رغم كثرة الدعاوي والشعارات عن الحرية والمساواة والعدل في الدول الشيوعية والرأسمالية على السواء.

أن تتكفل الدولة بأرزاق الناس على هذا النحو الذي شاهدناه من الرجال والنساء والموالي والغلمان والرضع ممن كانوا في مركز الدولة الإسلامية، أو قرييين منها، وإن ناءت بهم الدار، إن وصول الأرزاق إلى كل مسلم على أرض الدولة الإسلامية، مهما كان موضعه، إن هذا النظام أمر لم تعرفه أمة قديمة من قبل ولم تصل إليه أمة حديثة مهما ادعت من الحضارة والرقى ومهما كانت قدرتها المالية وإمكاناتها الكثيرة.

إن غاية ما وصلت إليه بعض الحضارات الحديثة في بعض البلاد، هو التأمين الاجتماعي، الذي يجمع نفقاته من القادرين؛ لتعود على أصحاب الحاجات والأعدان كالمرضى والعجزة والشيخوخ، إنه تكفل من الدولة لبعض الفئات المستحقة وبصورة محدودة قد لا تكفي لتغطية احتياجاتهم، أما أن يكون لكل فرد من أفراد الدولة نصيب مقسوم من خزانة الدولة، وعطاء ثابت ووفير من بيت المال، فشيء لم يعرف إلا في عصر عمر بن الخطاب بهذا التنظيم المحكم، ولم يحدث في ظل نظام أي حاكم في هذا العصر مهما كانت فلسفته وشعاراته البراقة.

فرحمة الله عليك يا عمر، حكمت، فعدلت، فأمنت، وأعطيت فأغنيت، وعففت  
عففت رعيته، واستغنيت بالله فأغنك الله وأغني بك الأمة.  
فجزاك الله عنها خير ما يجزي به الصالحين من عباده.

### ثالثاً: تنظيم الأمصار وتعيين الولاية:

#### \* تأسيس وتنظيم المدن:

مكثت المدائن قاعدة أعمال العراق منذ فتحت إلى السنة السابعة عشرة، ثم رأى عمر بن الخطاب في وجوه العرب الذين نزلوا بها تغيراً في ألوانهم وضعفاً في أبدانهم، فكتب عمر إلى سعد أن ابعث سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان رائدين فليرتادا منزلاً برياً بحرياً، ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر، فأرسلهما سعد، كل واحد من جهة فاجتمعا بالكوفة، فاستحسناها وضلوا بها ودعوا الله أن يجعلها منزلاً ثابتاً، ثم رجعا إلى سعد وأخبراه، فسار سعد من المدائن حتى وصل أرض الكوفة فعسكر بها في المحرم من السنة السابعة عشرة من الهجرة.

ثم استأذن سعد أمير المؤمنين في بنائها، فأذن له، فبناها أولاً من القصب، ولما احترقت استأذنه في بنائها من اللبن فأذن له، وخطط لبناء المدينة على نحو علمي هندسي دقيق، فكان الشارع الرئيسي أربعين ذراعاً، وما يليه ثلاثون، وما بين ذلك عشرون، والأزقة سبعة أذرع ليس دون ذلك شيء، وجعل القطائع ستين ذراعاً، وأول شيء أنشئ فيها المسجد، وبنى بجياله داراً للحكم وبيتاً للمال، والمدينة مبنية على الشاطئ الغربي لنهر الفرات، وبعد أن تم تخطيطها نقل إليها العرب الذين بالمدائن بعد أن خيرهم فمن شاء الإقامة بالمدائن تركه، ومن شاء الرجوع إلى الكوفة رجع، وصارت الكوفة قاعدة أعمال العراق منذ ذلك الحين.

وأنست كذلك مدينة البصرة في نفس السنة التي أسست فيها مدينة الكوفة، وأسسها عتبة بن غزوان بأمر عمر بعد أن وقع عليها الاختيار وفق المواصفات التي حددها عمر في اختيار الكوفة، والبصرة تقع على مجتمع دجلة والفرات، وهي قريبة من خليج فارس، وصارت القاعدة الثانية للعراق، لأن عمر قسمه قسمين:

أعلى: وقاعدته الكوفة، وواليها سعد، ويتبعها من ولايات الفرس بعد افتتاحها الباب، وأذربيجان، وهمدان، والري، وأصبهان، وماه، والوصل، وقرقيساء وكلها في الجهة الشمالية.

وأسفل: وقاعدته البصرة، وواليها عتبة، ويتبعها خراسان وسجستان، ومكران، وكرمان، وفارس، والأهواز<sup>(١)</sup>.

وقد أصبحت البصرة والكوفة مقرين لجنود المسلمين المحاربين للفرس ترسل منهما البعث والسرايا، وتخرج منهما الجيوش للغزو والفتح.

وكما نظم عمر أمر العراق، نظم بقية المناطق وجعلها أمصاراً رئيسية، فكانت الشام، والجزيرة، ومصر، والموصل، واليمن، والبحرين، وكان يقسم الأمصار الكبيرة إلى الكور - أي مدن صغيرة - فيكون أمر المصّر الكبير إلى الوالي الذي يوليه عمر، ويكون أمر الكور بكل مصر إلى واليه يختار لها العمال مستقلاً بذلك أحياناً، وعن أمر عمر أحياناً أخرى، وكان عمال الكور يقيمون الأحكام في كورهم، ويجبون ما يفرض على أرضها من خراج، وما يتعلق برباقب الأميين من جزية، فيوزعون في وجه الإنفاق الشرعية، ما تجمّع لديهم في كورهم، وما فاض على ذلك يرسلونه إلى الوالي في المصّر، ويفعل الوالي ذلك أيضاً، فيوزع ما يراه من وجوه الإنفاق، وما بقى يرسل به إلى الخليفة العام في مركز الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وبهذا استطاع عمر رضي الله عنه أن يمسك بزمام تلك الدولة المترامية الأطراف، ويتقبض عليها بيد من حديد، ينظم أمورها، ويرعى شؤونها، ويقف فيها على كل صغيرة وكبيرة، ويحصى عليها كل شاردة وواردة.

\* دقته في اختيار الولاة ومحاسبتهم:

\* وإذا كان رضي الله عنه قد نظم الأمصار، وقسم الدولة إلى إقطاعات حتى يسهل تصريف أمورها، فإنه كذلك كان مهتماً غاية الاهتمام بتعيين الولاة، واختيارهم وفق مواصفات

(١) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء صفحة ٩٥، ٩٦.

معينة وبشروط محكمة، فكان لا يعطي الولاية إلا لصحابة رسول الله ﷺ وبنجار القوي الأمين منهم، ويقول إني لأتخرج أن أستعمل الرجل وأنا أحد أقوى منه، وقد استعمل المغيرة بن شعبه، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، وفي الصحابة من هو أفضل منهم أمثال عثمان وعلي وطلحة والزبير وعدد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وغيرهم، وما ذلك إلا نقوة أولئك في العمل وحيثهم.

وكان يراقب الولاة، ويتدخل في طعامهم وشراهم ونياهم ومسكنهم، وكان دشم السؤال عنهم من قبل رعيهم، وكان يسمع إلى شكوى الناس عنى أمرائهم ويحقق بها، ويصف انظوم من واليه.

فقد أرسل محمد بن مسلمة رضي الله عنه ليتحقق من وضع سعد في العراق حينما بلغه شكوى البعض منه، وسمع شكوى على المغيرة بن شعبه، وعمرو بن العاص، وعياض بن عمير، وسعيد بن عامر، وغيرهم، ولعل أشهر شكوى وأبلغها ما كانت عنى عمرو بن العاص والي مصر.

\* فقد جاء رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائد بك، قال عمر: ومالك؟ قال: أحرى عمرو بن العاص بمصر الخيل، فأقبلت فرس، فلما رآها الناس، قام محمد بن عمرو، فقال: فرسي ورب الكعبة، فلما دنا مني عرفته، فقلت: فرسي ورب الكعبة؛ فقام إلي يضربني بالسوط ويقول: خذها وأنا ابن الأكرمين.

(وسمع ذلك عمرو بن العاص، وخشي أن آتيتك فحبسني في السجن فأنفنت منه، وهذا حين آتيتك) - ما بين القوسين في الرواية أنا فيه أشك؛ لأنه يتناق مع أخلاق الصحابة فكيف يسكت عمرو على ظلم، فوق أنه يستحله ويستتر عليه؟ وربما تكون هذه الربادة من ناب المشائعات والتهويل في الأمور وهي أبعد ما نكون عن الحقيقة.

وبالله ما زاد عمر على أن قال: احلس، ثم كتب إلى عمرو: إذا جاءك كتابي هذا فاص. أهل ومعدك ابك محمد، وقال للمصري: أقم حتى يأتيك، فدعا عمرو ابنه فقال:

أحدثت حدثاً! أجنيت جناية! قال: لا، قال: فما بال عمر يكتب فيك - وهذا يؤكد ما قلناه سابقاً من كون عمرو لا يدري عما فعله ولده في المصري.

قال أنس: فوالله إنا عند عمر، إذ نحن وقد أقبل في إزار ورداء فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه، فقال: أين المصري؟ قال: هأنذا، قال: دونك الدرّة فاضرب بها ابن الأكرمين، فضربه حتى أتخنه، ونحن نشتهي أن يضربه، فلم يترع حتى أحببنا أن يترع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين، ثم قال عمر: أجلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه، قال المصري: يا أمير المؤمنين، قد استوفيت، واشتفيت يا أمير المؤمنين، قد ضربت من ضربتي، قال عمر: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه، أيا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتم أمهاتهم أحراراً، فجعل عمرو يعتذر ويقول: إني لم أشعر بهذا، ثم التفت عمر إلى المصري وقال: انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب إلي<sup>(١)</sup>.

\* هكذا كان عمر في شدته وحزمه مع عماله، وقد ذكر ابن سعد في طبقاته قال: كان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافوه بالموسم - أي موسم الحج - فإذا اجتمعوا قال: أيها الناس إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيروا من أباشاركم ولا من أموالكم، إنما بعثتهم؛ ليحجزوا بينكم وليقسموا فيكم بينكم، فمن فعل به غير ذلك فليقم<sup>(٢)</sup>.

\* وكان ﷺ لا يولي والياً إلا كتب ماله قبل أن يذهب إلى عمله فإن رآه قد زاد على هذا المال قاسمه الزيادة، كما فعل مع سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وغيرهما.

\* وكان يمنع كبار الصحابة من الولاية على الأمصار مخافة أن يفتتروا بالدنيا وزهرتها أو يفتن الناس بهم، فيقدموهم ويتورعون عن شكايتهم ومحاسبتهم، بل كان بعض الصحابة يستأذنه في الخروج للغزو في أرض العراق والشام، فيأبى عليهم، ويقول

(١) التاريخ الإسلامي ج ٣ ص ٢٠٧.

(٢) الطبقات ج ٣ ص ٢١١.

كفاكم غزوكم مع رسول الله، يفعل ذلك بهم خوفاً عليهم من أن يفتنوا بكثرة الغنائم والأسلاب التي توزع على الفاتحين في تلك البلاد، وقال يوماً في بعض خطبه: ألا وإن قريشاً يريدون أن يجعلوا مال الله دولة بينهم، أما وابن الخطاب حي فلا، ألا وإني قائم بحجة المدينة، فأخذ يحجزهم أن يتهافتوا في النار.

\* وكان ﷺ إذا رأى اقتتان الناس بقائد أو ولى عزله حتى لا يسلمه إلى الغرور بنفسه من جانب، وحتى لا يفت في عضد الرعية إذا انقادوا لغيره من جانب آخر، وهذا يفسر لنا عزله لخالد بن الوليد ولسعد بن أبي وقاص، فإنهما لم يعزلا عن خيانة أو عجز، ولم يعزلا لشيء في نفس عمر منهما، وإنما عزلهما عمر حرصاً عليهما من الغرور، وحرصاً على الناس من الفتنة بهما، وقد رأيناه يوم طعن أوصى الخليفة من بعده أن يولي سعداً، قائلاً: إني لم أعزله عن عجز ولا عن خيانة، وإنه بالإمارة لجدير، وقال في شأن خالد: يرحم الله أبا بكر لقد كان أعلم بالرجال مني، وروى ابن سعد في طبقاته عن محمد بن سيرين قال: قال عمر: لأعزلن خالدًا والمثي حتى يعلمنا أن الله إنما كان ينصر عباده وليس هما كان ينصر<sup>(١)</sup>.

وقد فلسف ابن تيمية المسألة على نحو آخر، فقال إن أبا بكر يميل إلى اللين، وخالدًا نس إلى الشدة، فحصل بذلك اعتدال، فأما عمر فكان يميل إلى الشدة، فلا يصلح خالد شدته، حتى لا تجتمع على الناس شدتان، فعزله، وولى مكانه أبا عبيدة؛ لأنه كان يميل إلى الرفق واللين، فحصل بذلك الاعتدال في سياسة عمر، كما حصل من قبل الاعتدال في سياسة أبي بكر؛ لأن سياسة الأمة تحتاج إلى مزيج من الأمرين معًا، حزم وشدة، مع لين ورفق، واستشهد على ذلك بقوله النبي ﷺ: «أنا نبي الرحمة، أنا نبي الملحمة»<sup>(٢)</sup> ونص

(١) الطبقات الكبرى جـ ٣ - ٢٠٤.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية جـ ٢٨ ص ٢٥٦، ٢٥٧ طبعة الرئاسة العامة لشؤون الحرمين بمكة المكرمة.

الحديث في صحيح مسلم من رواية أبي موسى الأشعري: "أنا محمد، وأحمد، والمُتَّقِي (بمعنى العاقب) والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة"<sup>(١)</sup>.

### رابعاً: التعسس ورعاية الآداب العامة:

\* أمثلة على تعسس عمر:

\* لقد ذكر السيوطي: في أوليات عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن العسكري قال: هو أول من سمى بأمر المؤمنين، وأول من كتب التاريخ من الهجرة، وأول من اتخذ بيت المال، وأول من سن قيام شهر رمضان جماعة في المسجد، وأول من عس بالليل - يعني طاف ليلاً يتفقد أحوال الناس - وأول من عاقب على الهجاء، وأول من ضرب في الخمر ثمانين، وأول من نهى عن بيع أمهات الأولاد، وأول من جمع الناس في صلاة الجنازة على أربع تكبيرات، وأول من اتخذ الديوان.

وقال النووي في تهذيبه: هو أول من اتخذ الدرّة، وكذا ذكره ابن سعد في الطبقات، قال وقد قيل بعده: لدرّة عمر أهيب من سيفكم، قال: وهو أول من استقضى القضاة في الأمصار، وأول من مضّر الأمصار: الكوفة والبصرة، والجزيرة والشام، ومصر، والموصل.. إل غير ذلك مما ذكره السيوطي<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان عمر هو أول من عس بالليل - من الخنفاء - فإنما فعل ذلك حتى يتفقد أحوال الناس، فيقف على مشاكلهم التي تخفى عليه، ويراقب سلوك الناس في هدأة الليل، ويحفظ الآداب ويرعى الحرمات - خاصة النساء المغيّبات - أي التي غاب أزواجهن في الحرب، وكان رضي الله عنه يفعل ذلك بنفسه.

وينصح عماله بفعل ذلك في ولايتهم، حتى يتعرفوا على ذوي الحاجات، وكان لا يقصر تعسسه هذا على المدينة وحدها، وإنما كان يتفقد من يتزل حول المدينة أيضاً ويقوم بحاجة ذوي الحاجات منهم، ويجرس القوافل.

(١) تاريخ الخنفاء للسيوطي ص ١٣٦، ١٣٧.

(٢) تاريخ الخنفاء للسيوطي ص ١٣٦، ١٣٧.

\* وله في هذا العسس طرائف تثير العجب:

منها حادثة المرأة التي وجدها تشعل ناراً تحت قدر فارغ تسكت بهذه الحيلة صيائها الذين يتضاغون من الجوع، فما كان منه إلا أنه هروا إلى دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق وكبة شحم، وأبى أن يحمله أحد غيره، وانطلق إلى الصبية فطبخ لهم بيده حتى أكلوا وشبعوا، ولم ينصرف عنهم إلا بعد أن وجدهم يصطرعون ويلعبون ثم ناموا وهدءوا.

وحادثة المرأة التي جاءها المخاض وهي وحدها، وزوجها يجلس جائراً لا يدري ولا يقدر على فعل شيء لها، فأسرع عمر إلى زوجته أم كلثوم وقال لها: هل لك في خير ساقه الله إليك، فأسرعت معه فعاونت المرأة حتى وضعت غلامها، ثم نادى على عمر فقالت: يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام، فلما علم الرجل بذلك ارتاع، ولكن عمر هون عليه الأمر، وأرسل إليه ما يصلحه هو وأهله.

وبينما هو يطوف ذات ليلة سمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل وأسود جانبه وأرقني أن لا خليل الأعبه  
فوالله لولا الله تخشى عواقبه لزحج من هذا السرير جوانبه

فقال عمر: مالك؟ قالت: أغزيت زوجي منذ أشهر وقد اشتقت إليه، قال: أردت سوءاً، قالت: معاذ الله، قال: فاملكي عليك نفسك فإنما هو البريد إليه، فبعث إليه، ثم دخل على حفصة فقال: إني سائلك عن أمر قد أهمني فافرجيه عني.  
كم تشتاق المرأة إلى زوجها؟ فخفضت رأسها واستحيت قال: فإن الله لا يستحي من الحق، فأشارت بيدها ثلاثة أشهر، وإلا فأربعة أشهر.

وقيل: إنما قالت له: ما أمهله الله في إيلاء الزوج على زوجته تقصد الآية الكريمة  
﴿لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نَسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَإِنْ

عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧﴾ فكذب عمر أن لا تحبس الجيوش فوق أربعة أشهر، وكان بعد ذلك يوصي الولاة والقواد بأن لا يجمروا الجنود في الثغور حتى لا يفتنواهم.

وجاءته امرأة فقالت: زوجي يقوم الليل ويصوم النهار، فقال عمر: لقد أحسنت الثناء على زوجك، فقال كعب بن سوار: لقد شككت، فقال عمر: كيف؟ قال: تزعم أنه ليس لها من زوجها نصيب، قال: فإذا قد فهمت ذلك فاقض بينهما، فقال يا أمير المؤمنين: أحل الله له من النساء أربعاً، فلها من كل أربعة أيام يوم، ومن كل أربع ليال ليلة<sup>(١)</sup>.

#### \* المحافظة على الآداب العامة:

\* وكان ﷺ حريصاً على رعاية الآداب العامة، وحماية المجتمع من الفتنة بينما هو يعسر ذات ليلة فإذا امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمز فأشرها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

فلما أصبح سأل عنه فإذا هو من بني سليم، فأرسل إليه فأتاه، فإذا هو من أحسن الناس شعراً، وأحسنهم وجهاً، فأمره أن يطمَّ شعره ففعل، فازداد حسناً فأمره أن يعتم - أي يصبغه بالسواد -، ففعل، فازداد حسناً، فقال عمر: لا، والذي نفسي بيده لا تجامعني بأرض أنا بما فأمر له بما يصلحه وسيره إلى البصرة، فعل ذلك سداً للذرائع، ودرءاً للفتن، حيث تعلقت به نساء الحي.

وما كان يغيظه شيء أكثر من الرجل الذي يتتهز الفرص، فيصيد في الماء العكر ويلوث بدناءته سمعة الأشراف، أو يفتح عليهم باب شبهة وفتنة، فكان ﷺ إذا علم أن رجلاً دخل على امرأة مغيبة، ضاعف له العقوبة حتى يكون عبرة لغيره.

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٤١، ١٤٢.

فقد روى ابن سعد في طبقاته، أن جعدة من بني سليم كان يدخل على المغيات، فأحضره عمر، وجلده مائة جلدة معقولاً، ونهاه أن يدخل على امرأة مغيبة<sup>(١)</sup>.

ولعمري ما أحوجنا إلى هذا الخزم، وإلى تلك الصحوة - خاصة - في أيام الحروب حينما تخلو البيوت على النساء، وينتهز للفرصة من كان في قلبه مرض، فأين تعنس عمر؟ وأين درته؟

وقد كان عمر يستخدم الدرّة وهو يطوف بين الناس، وفي الأسواق، بل كانت لا تفارقه أبداً يؤدب بها كل مخالف أو شارد، فكان يتفقد الناس في الأسواق، ويؤدب بدرته من يراه غاشياً أو محتكراً، أو عابثاً.

\* وقيل: إن عمر أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس، فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه، فعلاه عمر بالدرّة، وقال: إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض، فأجبت أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك.

وقد ذكرنا من قبل كيف أن درة عمر كانت أهيب في نفوس الناس من سيوف الحكام الذين جاءوا بعده<sup>(٢)</sup>.

وكان ﷺ إذا رأى في عمّشي متموّناً علاه بالدرّة، وقال له ارفع رأسك، فإن المؤمن القوي خير إلى الله وأحب من المؤمن الضعيف.

يروى ابن سعد عن الشفاء ابنة عبد الله، وقد رأت فتياً يقصدون في المشي، ويتكلمون رويداً، فقالت: ما هذا؟ فقالوا نسّاك، فقالت: "كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقاً"<sup>(٣)</sup>.

(١) الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢٠٥.

(٢) الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢٠٦.

## خامساً: العناية بشئون الدين والتشريعات:

لم تكن رعاية عمر قاصرة على تنظيم الجيوش، وبث السرايا، ورعاية الجنود على جبهات القتال، وإنما كان مع ذلك شديد الرعاية والعناية بأمر الدين والتشريعات.

فاهتم بالقضاء ووضع دستور العدالة للقضاة، واهتم بالتعليم وتفقيه المسلمين الجدد في الأمصار المفتوحة، فكان يرسل القراء والفقهاء ليقموا بين أهلها، فيقرؤهم القرآن ويفقههم في الأحكام، وكان يحرص على تولية الولاية الذين يحشون الله ويكونون على فقه بدين الله، حتى يؤموا أقوامهم في الصلاة. وفي الحج، ويفتوهم في أمور الدين، وكان يجتهد لكل نازلة، أو أي أمر استُجد فيها، فيضع له من التشريعات، ويسن له من القوانين ما يضبطه، بل ربما زاد في بعض الزواجر فوق ما كان معتاداً حتى يرتدع الفاجر، ويوقن الكاذب، ويتحقق الأمن في المجتمع، مراعيًا لكل أمر ظروفه وملابساته، إلى غير ذلك من الأعمال الكثيرة التي اهتم بها عمر رضوان الله عليه رعاية للدين، وحفظاً للشريعة.

وستناول بإيجاز بعض هذه الجوانب التي اعتنى بها عمر رضي الله عنه، لتقف بالطالب على حافة هذا البحر الكبير تاركين له الغوص بعد ذلك في الأعماق.

### ١- الإمامة في الصلاة والحج:

كما ذكرنا سابقاً من أن عمر لم يكن معنياً أثناء خلافته بشئون الناس يدبر لهم أمر دينهم فحسب، ولكنه كان معنياً أيضاً بتعليمهم شئون دينهم، وكانت القدوة في ذلك أبلغ من المقال، فكان يوم الناس في الصلاة، وكان يخطب الجمعة والعيدين، ويصلي بهم صلاة الاستسقاء، ويهرع بهم إلى الدعاء وصلاة الكسوف، وكان يتفقد مجالس الذكر ومجالس العلم في المسجد، ويجلس معهم أحياناً ويعظهم، وكان يشترط على الولاية في الأمصار أن يقرموا بإمامة الناس في الصلاة وأن يرفعوا شئون دينهم، وأن يبرزوا للناس في المساجد، حتى لا تحجب حاجات الناس عنهم.

(١) الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢٠٨.

وقد كان هذا هو العهد بالخلفاء الراشدين جميعهم وولاتهم على الأمصار، فكانوا يصلون بالناس ويخطبونهم، ولا يقوم مقام الخليفة أحد في ذلك إلا لعذر، وكان يفعل ذلك في المساجد الكبرى في الأمصار، أو المسجد الجامع، وكان يطلق عليه أحياناً مسجد الخليفة أو الوالي، إشارة إلى أنه هو الذي يوم الناس فيه ويخطبهم ويجلس لهم مجالس العلم والذكر، أما المساجد الصغيرة المختصة بقوم أو محلة، فكان الخليفة، أو الوالي يعين لها من يقوم بالصلاة فيها، كما فعل رسول الله مع أهل قباء وغيرهم.

ولم يكن الأمر قاصراً على إمامة الناس في الصلاة، وإنما كان عمر حريصاً أيضاً على أن يوم الناس في الحج ويشرح لهم مناسكهم كما فعل رسول الله ﷺ، فكان يجيئ بالناس كل موسم طول خلافته، ما عدا السنة الأولى، فإنه أناب عنه عبد الرحمن بن عوف فجعله أمير الحج في هذا العام.

ولم يكن حرص عمر على إمامة الناس في الحج من أجل العبادة. و فقط، وإنما كان حريصاً على أن يلتقي بالناس القادمين من جميع الأمصار؛ ليتفقد أحوالهم ويسمع شكواياتهم، ويتعرف على مطالبهم، فكان موسم الحج فوق أنه موسم عبادة، كان موسم رعاية للرعية، ومحاسبة لعماله وولاته على الأمصار، يفعل ذلك على ملأ ومسمع من الناس جميعاً.

ولهذا كان يكتب إلى وولاته على الأمصار في كل موسم أن يوافوه على رأس حجيجهم، وأن يبينوا للناس مناسك حجهم، ويقدموا كشف الحساب عن ولايتهم أمام رعيته، وبذلك جمع ﷺ بين إمامة الدين وسياسة الدنيا معاً وفي وقت واحد، فحقق بذلك الأمن والعدل، وأظهر الدين والشرع.

## ٢- القضاء والفتيا:

### \* القضاء:

من جوانب عنايته بالدين ورعايته للعدل بين الرعية، أنه أنشأ نظام القضاء، وعممه في الأمصار، وكان يقضي هو بنفسه في شئون المختصمين بالمدينة، فلم يتخذ في المدينة

قاضيًا، وإنما كان هو الخليفة والقاضي، وكان إذا جاءه الخصمان برك على ركبته وقال: اللهم أعني عليهما فإن كلا منهما يريدني عن ديني" (١) إشارة إلى أن كلا منهما يريد الحق لنفسه حتى وإن كان على ظهر عمر ودينه، وقيل: إنه قد ولي أبا الدرداء القضاء معه في المدينة.

وكان ﷺ يختار القضاة بنفسه ويرسلهم إلى الأمصار، ولم يكونوا يخضعون للوالي. فليس لأحد عليهم سلطان إلا سلطان الله عز وجل، وهو بذلك يضمن نزاهة القضاء وعموم العدل حتى على الولاة أنفسهم.

وقد نظم عمر القضاء في الأمصار، ودفع القضاة إليها، فولى أبا الدرداء قضاء المدينة معه لكثرة انشغاله بالجهاد والفتوحات والسياسة العامة - كما ذكر ابن خلدون في مقدمة تاريخه - وولى أبا موسى الأشعري قضاء الكوفة، وولى شريحًا قضاء البصرة، ولم يكنف ﷺ بتعيين من يراه كفوًا لذلك، وإنما كان يضع لهم الدستور، ويخط لهم المنهج الذي يجب أن يسيروا عليه، وكتابه المشهور لأبي موسى الأشعري، يعتبر وثيقة نادرة وأساسية يقوم عليها نظام القضاء، وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس: سلام عليك، أما

بعد:

فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة فافهم إذا أدلي إليك الأمر، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، أس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يبأس ضعيف من عدلك، والبينة على من ادعى واليمين على من أنكرك، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالًا، لا يمتنع قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم،

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٢٠٧.

ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل، المهم الفهم فيما تلحج فيه صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشياء والأشبه والأمثال وقس الأمور عند ذلك، وأعد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإن أحصر بينة أخذ له بحقه، وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى، المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنياً في ولاء أو نسب، فإن الله تولى منكم السرائر، ودرأ بالبينات والأيمان، وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتفكير عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل في عاجل رزقه، وخزائن رحمته والسلام<sup>(١)</sup>.

\* وأما عن الفتيا:

فقد كانت الفتيا في عهده مستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وكان مضئها في الناس قليلاً، حيث كانت أنوار النبوة تسطع على الأمة، والناس قريبة عهد برسول الله ﷺ، ولم يكن بينهم مجال للجدال والخوض في التفرعات والمسائل التي تعد من باب الترف العقلي أو الجدال الفكري، وإنما كان الحق واضحاً أبلغاً، والأحكام ظاهرة مرعية، والناس حريصون على العمل أكثر من القول.

وكان ﷺ يستفتي كبار الصحابة فيما يعرض له من حوادث ومسائل، أمثال علي، وعبد الرحمن بن عوف، وابن عباس، وغيرهم من كبار الصحابة، وكانوا جميعهم يتحررون في الفتيا ويقولون منها إلا ما كان لضرورة أو بيان حكم خيف فيه على الناس.

٣- الفقه والتعليم في الأمصار المفتوحة:

لقد كان عمر حريصاً على رعاية الدين في الأمصار المفتوحة، فكان يوسل إليها المعلمين، ليقرءوا الناس القرآن، ويعلموهم شرائع الإسلام، وعمم عمر هذا النظام في

(١) إمامه: انوعا، في سيرة الخلفاء ص ١٤٠، ١٤١.

عهده، وكان يتخير من بين الصحابة من هو كفو لهذه المهمة، وهو لم يكن في ذلك مبتكراً وإنما كان متأسيًا برسول الله ﷺ حينما كان يعث العلماء والفقهاء إلى الأمصار، فأرسل معاذًا إلى اليمن، وأرسل مصعب بن عمير إلى المدينة قبل الهجرة، وقد كان عمر حريصاً على أن يسير في الرعية، كما سار رسول الله ﷺ، بل كان ﷺ يعتبر تفتيحه الناس وتعليمهم أمور دينهم جزءاً من مهمة الوالي نفسه فكان يقول للرعية، إذا قدم عليه الولاية في المدينة أو في موسم الحج: إني لم أرسل عمالي عليكم ليظلموكم، أو يضربوا بأبشاركم، وإنما أرسلتكم ليعلموكم دينكم، ويقسموا فيكم بينكم.

ولم يكن تعليم الناس وتفتيهم في الأمصار، على غرار دروس الفقه السائدة الآن من الغوص في التفريعات والأحكام المجردة، وإنما كان الفقيه كما وصفه رسول الله ﷺ "ألا أتبعكم بالفقيه كل الفقيه؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه" (١).

إنهم كانوا يركزون في تعليم الناس وتفتيهم على أمور الآخرة وكشف آفات النفوس ومفاسدات الأعمال، وبث الرجاء في الله والخوف منه، والتمسك بالقرآن والسنة في جوهرها الصافي، ونبعها المفعم بالإيمان والتوحيد النقي، وتعريف الناس بروح الإسلام وتعاليمه السامية أكثر من التفريع للأحكام، والخوض في الخلافات بين المذاهب والآراء.

#### ٤- الأحكام والحدود:

لقد كان من مهمة عمر الرئيسية حماية حدود الله وتنفيذ أحكام الدين، وكانت الدولة سائرة على هذا الدرب، فالحدود مقامة والفرائض مؤداة، والفضائل مرعية، والمخارم مصنونة، والمجتمع بأكمله في صورته المثلى مجتمع إسلامي فاضل، غير أنه مع توسع الدولة، واختلاف البيئات، وتغير الأحوال كانت تجد بعض الأمور تحتاج إلى حزم أكثر،

(١) سنن الدارمي المقدمة رقم ٢٩.

وإلى عقوبة أشد، حتى يزجر كل من تسول له نفسه بالخروج على حدود الله وآدابه، وكما يقول الفقهاء، لكل حكم ظروفه وملايساته، وهذا ما رأيناه في خلافة عمر، حينما جلد في الخمر ثمانين، وحينما جلد على الهجاء، وحينما أرجأ قطع اليد في الجماعة وسنعرض لبعض هذه الأمور بشيء من التوضيح.

#### (أ) عقوبة شارب الخمر:

لقد كان النبي ﷺ يجلد في الخمر أربعين، وجلد أبو بكر أيضًا في الخمر أربعين، ولكن عمر رضي الله عنه جلد في الخمر ستين، وجلد ثمانين، وهذه الزيادة التي فعلها عمر إنما أراد بها الزجر؛ لأنه رأى المسلمين قد انساحوا في الأرض، وبعثوا عن مركز الخلافة، واختلطوا ببيئات وأقوام يستحلون الخمر ويحبونها، ورأى أن المال قد كثر في أيدي القاطنين في المدينة والمراكز الأخرى القريبة، وربما جعلهم يستحيون لغرائزهم ويعودون لشرب الخمر، فوجد أنه لا بد من مضاعفة العقوبة حتى يقطع على كل من تسول له نفسه شربها.

- وقد روى البخاري في صحيحه: أن عمر بن الخطاب جلد في آخر إمرته أربعين، حتى إذا عتوا وفسقوا جلد ثمانين<sup>(١)</sup>.

- وروى عبد الرزاق في مصنفه: أن عمر بن الخطاب جلد أربعين سوطاً.

فلما رأهم لا يتناهون جعله ستين سوطاً، فلما رأهم لا يتناهون جعله ثمانين سوطاً، وقال هذا أدنى الحدود.

- وروى مسلم والإمام مالك: أن عمر بن الخطاب استشار في الخمر يشربها الرجل فقال: عبد الرحمن، وفي رواية على: نرى أن تجلد ثمانين سوطاً فإنه إذا شرب هذي، وإذا هذي افتري - وحد الافتراء ثمانين - فجلد عمر في الخمر ثمانين.

(١) صحيح البخاري كتاب الحدود باب الضرب بالجريد والتمال - انظر فتح الباري جـ ١٢ ص ٦٧ طبعة دار الريان للتراث.

- وجاء في سنن الدارقطني: ما يوضح سبب الزيادة التي قام بها عمر في الخمر وهو: أن خالدًا قال لعمر: إن الناس قد اهتمكوا في الخمر، وتحاقروا العقوبة فكانت هذه المقالة سببًا في استشارته في عقوبة الخمر وجعلها ستين ثم ثمانين.

- وروى مسلم في صحيحه: أن علي بن أبي طالب قال: ضرب رسول الله ﷺ أربعين، وضرب أبو بكر أربعين، وضرب عمر ثمانين، وكل سنة، وهذا أحب إلي.

- وما فعله عمر من الزيادة لا يعد لعياً بحدود الله، أو تركاً لها كما حددها رسول الله وإنما بقى حد الخمر كما فعله الرسول أربعين، وتكون هذه الزيادة التي فعلها عمر من قبل التعزير، الذي هو من حق الحاكم يقدره على حسب الظروف والأحوال بما يراه مانعاً وزاجراً للجرائم، وقد ورد أنه رضي الله عنه كان ينقص في بعض الأحيان عن ثمانين، ولهذا قال البيهقي: ويؤخذ منه أن الزيادة على الأربعين ليست بحد، إذ لو كانت حداً لما جاز النقص منه بشدة الضرب إذ لا قائل به<sup>(١)</sup>.

#### (ب) عقوبة قطع اليد في عام الجماعة:

- روى مالك وغيره: أن رقيقاً لحاطب بن أبي بلتعة، سرقوا ناقة لرجل من مزينة فانتحروها، فرفع ذلك لعمر بن الخطاب فأمر عمر كثير بن الصلت أن يقطع أيديهما، ثم قال عمر لحاطب أراك تجيعهم، والله لأغرمنك غرماً يشق عليك، ثم قال للمزني: كم ثمن ناقةك؟ فقال المزني: قد كنت والله أمنعها من أربعمئة درهم، فقال عمر: أعطه ثمانمئة درهم<sup>(٢)</sup>.

- وفي رواية: أنه درأ الحد عنهم، وروى الجوزجاني وغيره: أن عمر بن الخطاب قال: لا قطع في عام سنة<sup>(٣)</sup>.

(١) فقه عمر بن الخطاب ج ١ ص ٣١١ - ٣١٥.

(٢) المغني ج ٩ ص ١١٥.

(٣) المغني ج ٩ ص ١١٤.

وقد أخذ الخنفة والشافعية والحنابلة والمالكية برأي عمر ورأوا أنه لا قطع في عام الجماعة، ولكنهم قالوا: ومحل ذلك إذا لم يعلم استغناؤه عن السرقة، فإن علم أنه لم تكن له ضرورة تدفعه للسرقة قطع: وليس عمر وأصحاب المذاهب الأربعة يشرعون الأحكام بهوهم، أو أنهم يضيفون شيئاً جديداً لم يسبق له مثال في الشرع، وإنما كانوا يستأنسون بأحاديث رسول الله ويقواعد الشريعة ووكليتها الثابتة.

وقد روى أبو داود بسند صحيح عن عبادة بن شرحبيل قال: أصابني سنة فدخلت حائطاً من حيطان المدينة ففركت سنبلاً فأكلت وحملت منه في ثوبي، فجاء صاحبه فضربني وأخذ ثوبي، فأتى به النبي ﷺ فذكر له ذلك، فقال له: ما علمت إذ كان جاهلاً، ولا أطعمت إذ كان جائعاً أو ساغباً، فأمره فرد عليّ ثوبي فأعطاني وسماً أو نصف وسق من طعام<sup>(١)</sup>.

- وليس في صنيع عمر هذا حجة لمن يتلكتون في إقامة الحدود في بلادنا بحجة أن الظروف الاقتصادية لا تسمح بكفاية الناس، وأنه قبل إقامة الحدود لا بد أولاً من إغناء الناس وكفائتهم، ويستشهدون على دعاويهم المغرضة بأن عمر عطل حد السرقة في عام الجماعة.

نقول لهم: ليس الأمر كما توهمتم، وإنما العفو الذي فعله عمر، هو في عام المسغبة، وعلى من لا يجدون لقمة العيش التي يسدون بها الرمق وقد أشرفوا على حافة الهلاك، وإن الغلمان الذين سرقوا الناقة انتحروها؛ لأنهم كانوا لا يجدون ما يأكلونه، وقد فطن عمر إلى ذلك فأضعف العقوبة لحاطب وجعله يغرم غرماً كبيراً، أما وأن المجتمع يعيش في عصر الكماليات، ويعيش ثورة التطلعات، وأنه تخطى مرحلة المسغبة بكثير، فلا تجوز المقارنة لأنه قياس مع الفارق الكبير، ومن هنا فإن عمر لم يعطل الحد، وإنما رأى أن شروط إقامته لم تتحقق.

(١) سنن أبي داود كتاب الجهاد وانظر في هذا البحث ج ١ ص ٢٩٠ من كتاب عمر بن الخطاب.

## فجيرة المسلمين في عمر وذكر وصاياه



### \* عظم العادة:

ليست هناك مصيبة اهتز لها المسلمون في العصر الأول بعد وفاة رسول الله ﷺ، مثل مقتل عمر بن الخطاب، فقد روع حادث مقتله المسلمين أشد ترويع، وكان مثار دهشة الجميع، فكيف بمن حقق العدل، ونشر الأمان في ربوع الأرض لأهل الإسلام والذمة على السواء، وآثر رعيته على نفسه في كل شيء، وقضى فترة خلافته لم يجد عن الطريق السوي قيد شعره، كيف بمن هذا صنيعه، أن يكون مصيره على هذا النحو؟ يقتل غدراً أثناء الصلاة، وهو بين أصحابه، إنه بلا شك أمر الله وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وإذا كانت شدة الضوء تمنع الرؤية فإن شدة العدل، وعظم النصر في الفتوحات، والتمكين لأمة الإسلام في الأرض فوق الأمم كلها، إن مبلغ عمر العظيم في هذه الأشياء جعل القلوب الكافرة يأكلها الحقد، ويعميها الحسد، فكانت المؤامرة الدنيئة التي صنع خيوطها جفينة، والهرمان، ونفذها فيروز المعروف بأبي لؤلؤة، ثلاثتهم من الجوس، الذين أزال عمر سلطاتهم، وقضى على ملوكهم، وغلب الإسلام على ديارهم، فصاروا تحت لواء المسلمين، بعد أن كانوا سادة الدنيا كلها.

\* يروي ابن سعد عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال حين قُتل عمر: قد مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة والهرمان وهم نجوى، فلما بغتُهم ثاروا، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه وسطه، فانظروا ما أختنجر الذي قتل به عمر، فوجدوه الخنجر الذي نعت عبد الرحمن بن أبي بكر<sup>(١)</sup>.

(١) الطبقات ج ٣ ص ٢٥٨.

\* وجاء في رواية أخرى رواها ابن سعد عن أبي الحويرث قال: لما قدم غلام المغيرة بن شعبة، ضرب عليه عشرين ومائة درهم كل شهر، أربعة دراهم كل يوم، قال: وكان خبيثاً إذا نظر إلى السبي الصغار، يأتي فيمسح رؤوسهم ويكي ويقول: إن العرب أكلت كبدي<sup>(١)</sup>.

\* وكان عمر رحمه الله، بعيد النظر في أمر هؤلاء السبي، فكان يكتب إلى أمراء الجيوش يقول: لا تجلبوا علينا من العلوج أحدًا جرت عليه المواصي<sup>(٢)</sup>؛ لأنه كان يخشى منهم ومن طباعهم وحقدهم على المسلمين الخالص في مدينة رسول الله ﷺ، ولكن كان أمر الله قدرًا مقدورًا، وإنما لحكمة المولى عز وجل ومشيئته حتى يتحقق لعمر ما كان يتمناه من الله، فكان كثيرًا ما يسأل الله عز وجل قائلاً: اللهم شهادة في سبيلك، وموتًا في بلد نبيك، فلما قيل له كيف؟ - يعني أنك جالس في المدينة ومحل الشهادة هو ميادين القتال في الشام والعراق - قال: يأتي الله بها أنى شاء، وراه النبي ﷺ، عليه قميص، فقال له: "أجديد قميصك أم ليس؟ قال عمر: بل هو ليس يا رسول الله، فقال له النبي: البس جديدًا، وعش حميدًا، ومت شهيدًا، وليعطك الله قرّة عين في الدنيا والآخرة".

\* ولتتابع إذا هذا الحادث الجلل كما روته كتب الصحاح:

فقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون ما فحواه قال: شهدت عمر يوم طعن، فما معني أن أكون في الصف المقدم إلا هيته، وكان رجلاً مهيباً فكنت في الصف الذي يليه، وكان عمر لا يكبر حتى يستقبل الصف المقدم وجهه، فإن رأى رجلاً متقدماً من الصف أو متأخراً ضربه بالدرّة، فذلك الذي معني منه (أي من الصف الأول) قال عمرو: وإني لواقف ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب، وكان إذا مر بين الصفيين قال: استووا حتى إذا لم ير فيهن خللاً تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف أو

(١) الطبقات ج ٣ ص ٢٥١.

(٢) الطبقات ج ٣ ص ٢٥٢.

التحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فما هو إلا أن كبر فسمعتة يقول:  
 قتلي أو أكلني الكلب، حين طعنه أبو لؤلؤة، فسار العُلجُ بسكين ذي طرفين لا يمر على  
 أحد يمينًا وشمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، فمات منهم سبعة، فلما رأى ذلك  
 رجل من المسلمين - جاء في طبقات ابن سعد. أنه عبد الله بن عوف<sup>(١)</sup> - طرح عليه  
 برنساً فلما ظن العُلج أنه مأخوذ، نحر نفسه، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه،  
 فمن يلي عمر فقد رأى الذي رأيت، وأما نواحي المسجد فإهم لا يدرون غير أنهم فقدوا  
 صوت عمر، وهم يقولون سبحان الله، سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف  
 صلاة خفيفة، فلما انصرفوا، قال: يا ابن عباس انظر من قتلي، فجال ساعة، ثم جاء فقال:  
 غلام المغيرة، قال: الصنَّع، قال: نعم، فقال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله  
 الذي لم يجعل منِّي بيد رجل يدعي الإسلام، وفي رواية: الحمد لله الذي جعل منِّي على  
 يد رجلٍ لم يسجد لله سجدة.

فأتى بنقيع التمر فشربه، فخرج من جوفه، ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جوفه،  
 فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس يشنون عليه، وجاء رجل شاب فقال أبشر يا  
 أمير المؤمنين يبشرى الله لك من صحبة رسول الله، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم  
 وليت فعدلت، ثم شهادة.

قال عمر وددت أن ذلك كفافاً لا لي ولا علي، فلما أدير الرجل، إذا إزاره يمس  
 الأرض.

قال: ردوا الغلام، قال يا ابن أخي: ارفع ثوبك: فإنه أتقى لثوبك - أو أبقى لثوبك  
 - وأتقى لربك، ثم نادى على عبد الله بن عمر وقال: يا عبد الله بن عمر، انظر ما علي  
 من الدين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألف درهم أو نحوها، قال: إن وفي بذلك مال  
 آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم، فسل في

(١) الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢٥٢.

قريش، ولا تعدوهم إلى غيرهم فأدعني هذا المال (وتذكر بعض الروايات أنه قال لعبد الله بن عمر: اضمنها فضمنها) ولم يدفن عمر حتى أشهد بها ابن عمر على نفسه أهل الشورى وعدة من الأنصار، وما مضت جمعة بعد أن دفن عمر، حتى حمل ابن عمر المال إلى عثمان بن عفان، وأحضر الشهود على البراءة بَدْفَعِ الْمَالِ<sup>(١)</sup>.

ثم قال عمر لعبد الله بن عمر انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فسلم واستأذن، ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي ولأثرته به اليوم على نفسي، فلما أقبل: قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، فقال ارفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت، قال: الحمد لله ما كان شيء أهم إلي من ذلك المضحع، فإذا قضيت فاحملوني، ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت فأدخلوني وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين.

ثم قالوا له أوص يا أمير المؤمنين، استخلف، فقال - كما ورد في رواية مسلم "تحمل أركم حياً وميتاً، لوددت أني أحظى منها الكفاف لا علي ولا لي، وإن استخلف فقد استخلف من هو خير مني - يعني أبا بكر - وإن أترككم فقد ترككم من هو خير مني - يعني رسول الله ﷺ.

قال عبد الله بن عمر، فعرفت أنه حين ذكر الرسول ﷺ غير مستخلف؛ لأنه لم يكن يعدل بالرسول شيئاً آخر.

ثم قال عمر: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر، أو الرهط الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض، فسمي علياً وعثمان والزيير وسعداً وطلحة وعبد الرحمن بن عوف.

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٦٢٠.

وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر - على أن يكون له الشورى - وليس له من الأمر شيء: كهيئة التعزية له (وقيل إنه إذا تساوت الكفتان في الاختيار: فمن ينضم إليهم عبد الله بن عمر ترجح كفته، ويكن له الأمر).

ثم قال عمر: فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر، فإنني لم أعزله عن عجز ولا خيانة، ثم قال: ادعوا لي صهيئاً، فقال له: ضل بالناس ثلاثاً، وليخل هؤلاء في بيت.

وفي رواية أنه قال: أمهلهم ثلاثاً - فإن اجتمعوا على رجل منهم، فمن خالفهم فاضربوا رأسه، وإذا لم يتفقوا، فأوصى أبا طلحة الأنصاري وخمسين يختارهم من الأنصار أن يدخلوا عليهم فيضربوا أعناقهم، وهذا يبين لنا حزم عمر حتى وهو في الترع الأخير، فيعزم على الستة أن يبتوا في أمرهم، وأن يتفقوا على واحد، وإلا كانت فتنة، فكان حريصاً على أن يقي المسلمين من شر الفتنة.

### \* وصاياه للخليفة من بعده بالامة:

ثم قال: أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله، وبالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم، وأن يعفو عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً، فإنهم ردة الإسلام، وجباة المال، وغيظ العدو، وألا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، وأن يأخذ من حواشي أموالهم وترد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله ﷺ، أن يوفيهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم<sup>(١)</sup>.

(١) راجع صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عثمان بن عفان وانظر فتح الباري ج ٧

ص ٧٤ - ٧٦ طبعة دار الريان للتراث.

## \* وجاياه قبل الموت لنفسه:

لما حضرته الوفاة، قال لابنه: يا بني إذا حضرتني الوفاة، فاحرفني، واجعل ركبتك في صلي وضع يدك اليمنى على جبيني، ويدك اليسرى على ذقني، فإذا قبضت فأغمضني، واقتصدوا في كفي، فإنه إن يكن لي عند الله خير أبدلني خيراً منه، وإن كنت على غير ذلك سلبني فأسرع سلمي واقتصدوا في حفرتي، فإنه إن يكن لي عند الله خير وسع لي فيها مد بصري، وإن كنت على غير ذلك ضيقها علي حتى تختلف أضلاعي، وإذا خرجتم بي فأسرعوا في المشي، فإنه إن يكن لي عند الله خير فذمتوني إلى ما هو خير لي وإن كنت على غير ذلك كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شراً تحملونه، ولا تخربنَّ معي امرأة ولا تزكوني بما ليس بي، فإن الله هو أعلم بي" (١)

## \* ثناء الناس عليه:

يروى البخاري عن ابن عباس حينما قبض عمر ووضع مع صاحبيه، قال علي رضي الله عنه "رحمك الله، إن كنت لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك، لأن كثيراً ما كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كنت وأبو بكر وعمر، وفعلت وأبو بكر وعمر، وانطلقت وأبو بكر وعمر، فإن كنت لأرجو أن يجعلك الله معهما" (٢).

\* وورد أيضاً أن علياً دخل على عمر وهو مسجى فقال: ما على الأرض أحد ألقى الله بصحيفته أحب إلي من هذا المسجى بينكم.

\* وجاء عبد الله بن سلام، وقد صلّى على عمر فقال: والله لئن كنتم سبقتوني بالصلاة عليه، لا تسبقوني بالثناء عليه فقام عند سريره فقال نعم أخو الإسلام كنت يا عمر، جواداً بالحق، بخيلاً بالباطل، ترضى حين الرضى، وتغضب حين الغضب، عفيف الطرف، طيب الظرف، لم تكن مداحاً ولا مغتاباً.

(١) الطبقات ج ٣ ص ٢٦٠، ٢٦١.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب عمر.

\* ودخل عليه ابن عباس فقال له: يا أمير المؤمنين، والله إن كان إسلامك لنصرًا، وإن كانت إمامتك لفتحًا، والله لقد ملأت إمارتك الأرض عدلاً، ما من اثنين يختصمان إليك إلا انتهيا إلى قولك، فقال عمر لابن عباس أتشهد لي بذلك عند الله يوم تلقاه؟ فقال: نعم، ففرح بذلك وأعجبه.

\* وقد اغتم الناس جميعًا لموته، فما من بيت من بيوت المسلمين إلا ودخله حزن على موت عمر، أو دخله نقص بموت عمر، وبكاه المسلمون جميعًا، ولما اشتد بكاء سعد بن زيد، قيل له ما يبكيك هكذا؟ فقال: على الإسلام أبكي، إن موت عمر تلم في الإسلام تلمة لا ترتق إلى يوم القيامة<sup>(١)</sup>. وهكذا:

انتقل عمر إلى جوار ربه، بعد أن أدى ما عليه تجاه ربه وتجاه الرعية، وقام بواجبه خير قيام فترك الأمة على الجادة، أرسى فيها قواعد العدل، وأطر الناس على الحق أطراً، وحقق لهم الأمن والرخاء، وكما أعزه الله بالإسلام، أعز الله به أيضاً الإسلام، فكان ﷺ نسيجاً وحده، وكان أمة وحده، سار بالأمة سيرة أصبحت مضرب الأمثال، وأمنية كل مصلح ومشتاق إلى البناء والإصلاح.

وقد طعن ﷺ يوم الأربعاء، ومات يوم الخميس لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، وتوفي عن ثلاث وستين سنة، استكمل سن صاحبيه، ودفن بجوارهما، بعد أن أم الناس في الصلاة عليه صهيب في مسجد رسول الله بين القبر والمنبر. فطيب الله ثراه، وجزاه الله أحسن ما يجزي به عباده الصالحين، عما قدم للإسلام والمسلمين والحمد لله رب العالمين.

(١) الطبقات ج ٣ ص ٢٦٨ - ٢٧٠.

## أسئلة التقويم الذاتي

س١: ظهرت مشكلة التاريخ في حياة المسلمين، فما سببها وكيف عالجها عمر بن الخطاب؟

س٢: ديوان العطاء ابتكار إسلامي فريد ونظام لم تصل إليه أي دولة في العالم القديم والمعاصر، وضح ذلك؟

س٣: كان من سياسة عمر بن الخطاب الدقة في اختيار الولاة ومحاسبتهم، وضح ذلك مؤيداً ما تقول بالوقائع التي تؤيد ذلك.

س٤: كان عمر بن الخطاب لا ينام حين تنام الرعية ولكن كان يتعمس بالليل ساهراً للوقوف على أحوال الرعية، ناقش ذلك مع ذكر بعض من المواقف التي حدثت والتي تثير الإعجاب.

س٥: كان لسيدنا عمر بن الخطاب فقهه العميق والسابق لما ظهر الآن تحت ما يسمى بنظريات الضرورة، ظهر ذلك في عام الجماعة، ناقش هذه العبارة.

س٦: كانت وفاة عمر بن الخطاب كما كان يدعو ويتمنى من الله، وضح ذلك.

## الخلاصة

• اسمه: عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي.  
• لقب بالفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل.

• شخصيته في الإسلام:  
- أسلم عمر وأعلن إسلامه وكان هو الوحيد الذي هاجر جهرًا.  
- كان شديد في الحق شديدًا على الشيطان ولكنس كان رقيق القلب شجاعًا.  
- كانت له إلهامات ومواقفات لتزول القرآن وكان قتيها وعالمًا.

• منهج عمر في الحكم:  
١- شديد المحاسبة لنفسه وأهله.  
٢- دائم التعمس وتفقد أحوال الرعية.  
٣- الدقة في اختيار الولاة.  
٤- كثير الاجتهاد والاستنباط.  
٥- الحرص على مواصلة الفتوحات الإسلامية.  
٦- إرسال الفقهاء والقراء إلى الأمصار.  
٧- الأخذ من مال المسلمين ما يحتاجه كفافًا.

ترجمته

ومنهجه

في

الحكم

عمر بن

الخطاب

ثاني

الخلفاء

الراشدين

## تابع الخلافة

<p>* الجبهة الشرقية: معركة النمارق - معركة الجسر - معركة البوب - معركة القادسية - فتح المدائن - فتح حلوان - معركة نهاوند.</p>	<p>الفتوحات الإسلامية في عصر عمر</p>	<p>عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين</p>
<p>* الجبهة الغربية: - معركة فحل - فتح دمشق - فتح حمص - فتح قنسرين - فتح أجنادين وبين المنفس - فتح مصر.</p>		
<p>* مواقف فريدة في الفتوحات الإسلامية: - موقف أبي عبيد الثقفي - موقف ربعي بن عامر. - توجيهات القائد الأعلى بمراعاة الآداب الإسلامية في الحروب.</p>		
<p>* التاريخ الإسلامي اعتباراً من الهجرة: * إنشاء الدواوين وتنظيم بيت المال: ديوان الخند ديوان العطاء. * تنظيم الأمصار وتعيين الولاة: تأسيس المدن - الدقة في اختيار الولاة.. * التمسس ورعاية الآداب العامة. * العناية بشؤون الدين والتشريعات: الإمامة في الصلاة والحج - القضاء والإفتاء - الفقه والتعليم في الأمصار - الأحكام والحدود.</p>	<p>سياسة عمر الداخلية</p>	
<p>وكان ذلك على يد أنجوسي أبي لؤلؤة.</p>	<p>استشهاد عمر بن الخطاب</p>	

## المراجع المساعدة

- الطبقات الكبرى، محمد سعد الوافدي جـ ٣ ص ١٩٤، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٩، ٢١٨، ٢١١، ٢٠٤، ١٤١، ١٤٢، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٧، ٢٥٨، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٨، ٢٧٠.
- التاريخ الإسلامي - محمد شاكر جـ ٢ ص ١١٤، جـ ٣ ص ٢٠٧.
- تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣٠، ١١٥، ١١٦، ١٢٩، ١٢٩، ١٢٢، ١٢٦-١٢٧، ١٥٩، ١٢٠، ١٢١، ١١٩، ١٢٠، ١٣٦، ١٣٧.
- تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢١٩، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٤، ٢٠٧، ٢١٠، ٢٠٤، ٢٠١.
- فتح الباري جـ ٧ ص ٦٢، جـ ١٤ ص ١٨١، ١٦٠٢، ١٧٨.
- الرياض النضرة في مناقب العشرة جـ ٢ ص ٣٨.
- طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٣٩، ٤٠.
- فقه عمر بن الخطاب. - روي بن راجح الزحيلي جـ ١ ص ٤٣، ٣١١، ٣١٥.
- إتمام الوفاء من سيرة الخلفاء ص ١١٨، ١١٩، ٧٤، ٧٥، ٩٥، ٩٦، ١٤٠، ١٤١.
- كتاب الكامل جـ ٦.
- فتاوى ابن تيمية جـ ٢٨ ص ٢٥٦، ٢٥٧.
- سنن الدارمي رقم ٢٩.
- المغني جـ ٩ ص ١١٥، ١١٤.

## الاختبار البعدي للوحدة

- س١: كانت شخصية عمر بن الخطاب شخصية غليظة القلب تتسم بالجلد والفتوة وذلك في الجاهلية فكان ذلك في صالح المسلمين بعد إسلامه، وضح ذلك في ضوء إسلام عمر وهجرته.
- س٢: كان لعمر بن الخطاب موافقات وإهانات وكان له فقه وعلم واسع دلل بمثال واحد على كل من هذه الصفات.
- س٣: اختلفت البيعة لعمر بن الخطاب عن البيعة لأبي بكر الصديق من حيث الأحداث التي مرت بها البيعتان، وضح ذلك والسبب فيه.
- س٤: كان لعمر بن الخطاب منهج في الحكم، اذكر أهم ملامح هذا المنهج مع ربطه بالوقائع والأحداث التي طبق فيها ملامح منهجه الذي أعلن عنه.
- س٥: كان منهج عمر عدم تقسيم الأراضي المفتوحة وتركها مع أهلها، فما الحكمة والهدف من وراء ذلك؟
- س٦: "النصر يغري بالنصر" ناقش هذه العبارة في ضوء معارك المسلمين في الجبهة الشرقية (بلاد العراق وقارس).
- س٧: خاض المسلمون معركة مع الفرس أطلق عليها بعد ذلك (فتح الفتوح)، فما المعركة؟ ومن قائدها؟ وما أثرها العظيم في سيادة المسلمين؟
- س٨: خاض المسلمون معارك على الجبهة الغربية وتم فتح بلاد كثيرة، اذكر البلاد التي فتحها المسلمون بمعاركهم على الجبهة الغربية.
- س٩: "لم تكن فتوحات المسلمين وقاتلم إلا في إطار الأخلاق الحميدة والمبادئ العظيمة التي رباهم عليها الرسول (ﷺ)" ناقش هذه العبارة.
- س١٠: يقول رسول الله (ﷺ): "الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها"، في ضوء هذا الهدى النبوي ناقش إنشاء عمر بن الخطاب للدواوين.
- س١١: كان لعمر بن الخطاب عناية بشئون الدين والتشريعات، وضح مظاهر ذلك الاعتناء.
- س١٢: كانت وصية عمر بن الخطاب بشأن الخليفة الذي يأتي بعده تختلف عن وصية أبي بكر الصديق، فما وجه الاختلاف وما وصية كل منهما؟

# عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين

الوحدة  
الثالثة

## الأهداف الخاصة

\* تتركز الأهداف الخاصة من دراسة الوحدة فيما يلي:

أولاً: التعرف على ترجمة الخليفة الثالث ﷺ.

ثانياً: التعرف على مبايعته بالخلافة وأحداث تلك المبايعه ووقائعها.

ثالثاً: التعرف على أهم أعماله في الداخل والخارج.

أ - في الداخل: جمع الأمصار حول مصحف واحد - عمارة المسجد -  
العطاء والطعام - سماع الشكاوى.

ب- في الخارج: - الفتوحات على الجبهة الغربية:

- الفتوحات على الجبهة الشرقية.

- إنشاء البحرية الإسلامية.

رابعاً: الرد على الشبهات التي أثيرت حوله:

أ - الشبهات الشخصية.

ب- الشبهات الدينية.

ج- الشبهات السياسية.

خامساً: التعرف على حادث استشهاده ووصيته ﷺ.

سادساً: التعرف على دستور حكمه للمسلمين.

## الرسم التوضيحي للوحدة الثالثة

الوحدة الثالثة			
<p>* فجيعة المسلمين في مقتل عثمان بن عفان:</p> <p>- حوادث استشهاده.</p> <p>- دفنه ﷺ.</p>	<p>* الشبهات التي نارت حوله والرد عليها:</p> <p>- الشبهات الدينية.</p> <p>- الشبهات الشخصية.</p> <p>- الشبهات السياسية،</p>	<p>* أعماله في الداخل والخارج:</p> <p>- تولي الخلافة وإعلان السياسة.</p> <p>- الفتوحات في عهد عثمان:</p> <p>١- في الداخل.</p> <p>٢- في الخارج.</p> <p>- أعماله في الداخل:</p> <p>١- جمع الناس حول مصحف واحد.</p> <p>٢- عمارة المسجد.</p>	<p>* ترجمته وبعته بالخلافة:</p> <p>- ترجمته ﷺ.</p> <p>- مبايعته بالخلافة.</p>

## المبحث الأول

### ترجمة عثمان بن عفان رضي الله عنه وبيعته بالخلافة

أولاً: ترجمة عثمان بن عفان رضي الله عنه .  
ثانياً: البيعة لعثمان بالخلافة وما دار فيها .

#### أولاً: ترجمة عثمان بن عفان رضي الله عنه:

\* اسمه:

الخليفة الثالث لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حراسة الدين وسياسة الأمة وفق تعاليم هذا الدين، هو ذو النورين أبو عبد الله عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فهو يلتقي برسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية أبيه بالجد الرابع وهو عبد مناف، كما يلتقي في نسبه برسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً من ناحية أمه، فأم عثمان هي: أروى بنت كرز، وأم أروى هي البيضاء بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكانت ولادته بالطائف - أخصب بقاع الحجاز - لست سنوات مضت من عام الفيل، أي في عام ٤٧ قبل الهجرة، فهو أصغر من الرسول صلى الله عليه وسلم بست سنوات تقريباً.  
\* كنيته: كان صلى الله عليه وسلم يكنى في الجاهلية بأبي عمرو، فلما كان الإسلام ولدت له رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله، فاكتنى به، وقيل كان يكنى في الجاهلية أيضاً بأبي ليلي إشارة إلى رفته ولين خلقه وطيب قلبه.

\* لقبه: كان صلى الله عليه وسلم يلقب بذي النورين، وقد أطلق عليه هذا اللقب الشريف؛ لأنه لا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره، فقد تزوج "رقية" بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - قبل النبوة

وماتت عنده في ليالي غزوة بدر، ودفنت بالمدينة في اليوم الذي جاء به البشير بنصر المسلمين ببدر، فزوجه رسول الله بعدها أختها "أم كلثوم" وتوفيت عنده سنة تسع من الهجرة.

وقد ذكر السيوطي في سبب تلقيب عثمان رضي الله عنه بذوي النورين، ما أخرجه البيهقي في سننه عن عبد الله بن أبان الجعفي قال: قال لي خالي حسين الجعفي: أتدري لم سمي عثمان بذوي النورين؟ قلت: لا، قال: لم يجمع بين بنتي نبي منذ خلق الله آدم إلى أن تقوم الساعة غير عثمان، فلذلك سمي "ذو النورين".

وذكر أيضًا ما أخرجه خيشمة في فضائل الصحابة، وابن عساکر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه سئل عن عثمان، فقال: "ذاك امرؤ يدعى في الملأ الأعلى ذا النورين، كان ختن رسول الله على ابنته"<sup>(١)</sup>.

\* حليته:

كان رضي الله عنه من أجمل الناس خلقه ومن أحسنهم وجهًا، فكان رجلًا ربعة، ليس بالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه، أبيض، مشربًا حمرة، بوجهه نكتات جدري، كثير اللحية، عظيم الكراديس "عظام الكف" بعيد ما بين المنكبين، خدل الساقين، طويل الذراعين، شعره قد كسا ذراعيه. جعد الرأس، أصلع، أحسن الناس ثغرًا، جمته أسفل من أذنيه، يخضب بالصفرة، وكان قد شد أسنانه بالذهب، وقد كان رضي الله عنه أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أخرج ابن عدي عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما زوج النبي ابنته أم كلثوم قال لها: "إن بعلك أشبه الناس بجدك إبراهيم وأبيك محمد"<sup>(٢)</sup>.

\* إسلامه:

كان رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام، فقد ذكر ابن إسحاق: أنه كان أول الناس إسلامًا بعد أبي بكر وعلي وزيد بن حارثة، وقد كانت له همة عالية ونفس مشرقة إلى

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٤٩ الطبعة المحققة على يد الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٥١.

السمو والرفعة وحب الحق والخير، فما أن عرض عليه أبو بكر رضي الله عنه الإسلام وقال له: ويحك يا عثمان إنك رجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل إلا وترقرق قلبه لهذا الدين، فأخذه أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أقبل عليه، قال له النبي: «يا عثمان، أجب الله إلى جنته فإنني رسول الله إليك وإلى خلقه»، قال عثمان: فوالله ما تمالك حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله.

وما أن من الله عليه بهذا الدين إلا وعض عليه بالنواجذ فما مال عنه ولا حاد لحظة واحدة، رغم ما تعرض له من الأذى والإيذاء الشديدين، فقد كان رضي الله عنه من عليّة قريش وصفوة العرب، وكان يجا حياة ناعمة حافلة بالمطاعم الفاخرة وطيبات العيش الرغيد، ولكن ما أن دخل في الإسلام حتى تحمل أعباء دوره الجديد، واستقبل حياة المتاعب والتضحية والعطاء، وكانت أول ضريبة دفعها في هذه الحياة الجديدة هي التعذيب على يد أقرب الناس إليه: وهو عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية، فلما بلغه إسلام عثمان أخذه وأوثقه رباطاً، وقال: ترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث، والله لا أدعك أبداً حتى تدع ما أنت عليه، فقال عثمان: والله لا أدعه أبداً، ولا أفارقه، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه.

#### \* هجرته:

إذا كان رضي الله عنه له فضل السبق إلى الإسلام، فإن له كذلك فضل السبق إلى الهجرة، فحينما اشتد الأذى بالمسلمين، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا طاقة لبعض أصحابه في تحمل هذا الأذى الشديد، أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة وقد كان بها ملك عادل لا يُظلم أحد في جواره - وأسرع عثمان إلى الهجرة بزوجه رقية فكانا أول المهاجرين إلى الحبشة، ووقف النبي يودعهما قائلاً: صحبهما الله، إن عثمان لأول المهاجرين إلى الله بأهله بعد لوط. واستحق عثمان هذا اللقب عن جدارة؛ لأن هجرته إلى الحبشة كانت هجرة خالصة، فلم تكن فراراً من الأذى بقدر ما كانت فراراً إلى الله، ودع فيها حياة الترف والوداعة إلى حياة الكد والتضحية والعناء من أجل مشورة الله ورضوانه.

وحظي ﷺ بشرف المهجرتين إلى الله تعالى هجرته إلى الحبيشة مرتين وهجرته إلى المدينة على ساكنها أزكى الصلاة وأتم السلام.

\* حضوره المشاهد كلها:

لقد شهد عثمان ﷺ المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وعده رسول الله منه البدرين وأسهم له بينهم؛ لأن تخلفه عن غزوة بدر كان بإذن من رسول الله لتمرير زوجته رقية التي ماتت يوم أن جاء البشير بالنصر في هذه الغزوة، كما بايع الرسول ﷺ عنه في بيعة الرضوان، حيث كان محبوساً في مكة فقال رسول الله بعد أن بايع جميع الصحابة: هذه يد عثمان فضرب بها على يده.

وهو ﷺ إن كان لم يبرز في مجال البطولات العسكرية ويلمب اسمه بين أبطال المعارك والحروب، إلا أنه لم يتخلف عن داعي الجهاد في سبيل الله وحضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وبرز اسمه ولمع في مجالات الجهاد بالمال والإنفاق على إعداد الجيوش، بما لم يسبقه أحد في ذلك، وهذا بحق أعظم وأشق أبواب الجهاد في سبيل الله تعالى.

\* ولنسمع إلى عبد الله بن عمر وهو يرد الاتهامات عن عثمان ويزيل الشبهات التي علفت به بسبب تخلفه عن غزوة بدر وعن بيعة الرضوان، وعن فراره يوم أحد.

فقد جاء في صحيح البخاري: عن عثمان بن عبد الله بن موهب قال: جاء رجل من أهل مصر وحج البيت فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القوم؟ قالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر، إني سائلك عن شيء فحدثني عنه، هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال نعم، فقال: هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم، قال الرجل: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهد؟ قال: نعم، قال: الله أكبر، قال ابن عمر: تعالى أبين لك، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له (يقصد ابن عمر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾).

وأما تغيبه من بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز بطن مكة من عثمان لبعته مكانه، فبعث رسول الله عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: هذه يد عثمان فضرب بها على يده - أي اليسرى - فقال: هذه لعثمان، فقال له ابن عمر: اذهب بما الآن معك" (١).

### \* حياؤه وسخاؤه:

\* حياء عثمان بن عفان:

لقد كان ﷺ مثلاً فذاً في هذين الجانبين، بل كان الحياء والسخاء وصفين ملازمين له مقترنين به، فإذا ذكر الحياء والسخاء ذكر عثمان، وإذا ذكر عثمان ذكر الحياء والسخاء؛ وإذا كان لكل واحد من أصحاب رسول الله الكبار مزية ينفرد بها، فقد تميز عثمان بالحياء والسخاء، ولقد زكاه الرسول ﷺ بهذا الوصف فقال "أصدق أمي حياء عثمان"، وقال: "أرحم أمي أبو بكر"، و"أشدها في دين الله عمر" وقال: "ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة"، وأخرج ابن عساکر عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مرّ بي عثمان وعندي ملك من الملائكة فقال: شهيد يقتله قومه، إنا نستحي منه» وأخرج أبو يعلى عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة لتستحي من عثمان كما تستحي من الله ورسوله» (٢).

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: كان رسول الله مضطجعا في بيتي كاشفاً عن فخذه أو ساقه، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عثمان بن عفان وانظر فتح الباري ج ١٤ ص ٢٨ ط مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٥٣ مرّجع سابق.

الله ﷺ وسوى ثيابه، - قال محمد بن أبي حرملة ولا أقول ذلك في يوم واحد - فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك، فقال: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟

وفي رواية سعيد بن العاص بيان السبب الذي من أجله فعل النبي ذلك مع عثمان دون غيره فحينما سأله عائشة: "ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ: "إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إلي في حاجته"<sup>(١)</sup>.

\* سخاء عثمان بن عفان:

وأما عن سخاء عثمان ﷺ فحدث عنه ولا حرج، فمنذ أن من الله عليه بالإسلام وكأنه تنازل عن ماله لله، وأصبح المال في يده، وخرج المال وحب الدنيا من قلبه، فلم يصبح للمال ولا للجاه، بل ولا للدنيا كلها سلطان على قلبه النقي رضي الله تعالى عنه، ولو رأيتاه وهو يعطي أمواله بغير حساب للدعوة التي آمن بها، لحكمتنا بأنه الممول الوحيد أو الأساس للأمة الناشئة الجديدة، وعز علينا ألا نجد له نظيراً في ذلك، وما أروع الأمثلة والوقائع التي ترجمت عملياً سخاء عثمان طول حياته.

١- فعندما هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة لم يكادوا يستقرون بها حتى فاجأهم مشكلة المياه، وكان بها عين تفيض بماء عذب طيب المذاق، وتدعي "بئر رومة"، وملكها يهودي يبيع ماء القرية بمد، وتمنى رسول الله لو يجد من بين أصحابه من يشتريها حتى تفيض ماؤها على المسلمين بغير ثمن، فقال «من يحفر بئر رومة فله الجنة»، وسارع عثمان إلى تحقيق رغبة الرسول ﷺ فعرض على اليهودي أن يبيعها له فأبى، فساومه عثمان على نصفها، واشترى النصف بأثني عشر ألف درهم، على أن تكون لليهودي يوماً ولعثمان

(١) صحيح مسلم شرح النووي كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عثمان ج ٥ ص ٢٦١ طبعة الشعب.

يوماً، فكان المسلمون يستقون في يوم عثمان ما يكفيهم يومين، وهكذا وجد اليهودي نفسه، وقد خسر سوقه التي كانت رائجة فعاد يعرض على عثمان أن يشتري منه النصف الآخر، فاشتراه عثمان، وفاضت البئر بمائها العذب تروي أهل المدينة بغير ثمن وبغير حساب.

٢- وعندما ضاق مسجد رسول الله بالمسلمين غمى رسول الله لو يجد من بين أصحابه من يشتري الرقعة المجاورة له كي تضم إلى المسجد، ويزداد بها رحابة واتساعاً، وسارع عثمان إلى تحقيق رغبة النبي ﷺ فاشتراها بثمن باهظ قدره الرواة بخمسة وعشرين ألف درهم.

٣- وحينما دعا النبي إلى تجهيز جيش العسرة وقال: "من جهز جيش العسرة فله الجنة" سارع عثمان ﷺ إلى تجهيز هذا الجيش الكبير حتى لم يتركه بحاجة إلى خطام أو عقال، يقول ابن شهاب الزهري: قدّم عثمان لجيش العسرة في غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بعيراً، وستين فرساً أمّ بها الألف، ويقول حذيفة: "جاء عثمان إلى رسول الله ﷺ بعشرة آلاف دينار صبها بين يديه فجعل رسول الله ﷺ يقلبها بيده ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما أسرت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة»، وفي رواية: أنه جاء بملء حجره ذهباً فأفرغه في حجر النبي ﷺ.

وأخرج الترمذي عن أنس والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره، فجعل رسول الله ﷺ يقلبها ويقول: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم، مرتين» وشهد له الرسول بذلك على البراءة من النار يوم القيامة، ولا تناقض بين الروايات إذ هي دليل الكثرة وكل راوٍ قدّر المال على حسب ما رأى وشاهد، ولقد تكرر فعله هذا أكثر من مرة على ما جاء في جمهرة الأخبار<sup>(١)</sup>.

(١) انظر فتح الباري ج ١١ ص ٢٥١، ٢٥٢ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية باب الوقف.

٤- ولم يكن سخاء عثمان ظاهرًا في حياة الرسول فقط، ولكنه كان خلقًا ملازمًا له حتى مات، رأيناه حينما قحط الناس في زمان أبي بكر، فقال الخليفة لهم: إن شاء الله لا تمسون غدًا حتى يأتيكم فرج الله، فلما كان صباح الغد، قدمت قافلة لعثمان، فغدا عليه التجار فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه، وسألوه أن يبيعهم قافلته، فسألهم كم تربحونني؟ قالوا: العشرة اثني عشر، قال: قد زادني، قالوا فالعشرة خمسة عشر، قال: قد زادني، قالوا: من الذي زادك ونحن تجار المدينة؟ قال: إنه الله، زادني كل درهم عشرًا، فهل لديكم أنتم مزيد؟ فانصرف التجار عنه، وهو ينادي: اللهم إني وهبتها فقراء المدينة بلا ثمن وبلا حساب<sup>(١)</sup>.

وهكذا نرى أن الحياء والسخاء كانا له طبعًا ملازمًا أبرزتهما أعماله وأقواله طول حياته، وما أكثر ما كان يدعو إلى الزهد في الدنيا والتجافي عنها في خطبه الكثيرة، ومن ذلك قوله في إحدى خطبه "إن الله أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتتركوا إليها، إن الدنيا تفتني، وإن الآخرة تبقى، فأثروا ما يبقى على ما يفنى، إن الدنيا منقطعة والمصير إلى الله رحده".

### \* فقهه في الدين وسعة علمه :

\* فقهه في الدين:

لقد جمع عثمان رضي الله عنه بين نقاء الفطرة وقوة النفس، وبين رجاحة العقل وقوة الفهم وسعة العلم، فكان بحق فقيهًا محدثًا عالمًا، بكل ما تحمل هذه الكلمات من معاني، لقد كان رضي الله عنه من أفضه المسلمين في أحكام الدين وأحفظهم للقرآن والسنة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قرابة مائة وخمسين حديثًا، وقد قال محمد بن سيرين عنه: كان أعلم الصحابة

(١) خلفاء الرسول ص ٢٩٦ الأستاذ خالد محمد خالد - الطبعة الثامنة دار ثابت ١٩٨٦م.

بالمناسك عثمان، وبعده ابن عمر" وقد استفاد من ملازمته لرسول الله - شأنه في ذلك شأن بقية الأربعة من الخلفاء الراشدين - ما لم يتوفر لغيره، فمنذ أن أسلم ترك تجارته الواسعة لمن يتولاها عنه من وكلائه وذوي قرباه، ولازم النبي ﷺ في مقامه وسفره، ولم يفارقه إلا للهجرة بإذنه، و في مهمة من المهام التي يندب لها ولا يعني أحد فيها غناؤه، وقد آتت هذه الملامة ثمارها أعظم ما تكون، وأوضحها النبي ﷺ في كلمة أضحت كالغرة في جبين عثمان مدى الدهر، فقد أخرج ابن عساكر عن أبي هريرة أن النبي قال: «عثمان من أشبه أصحابي بي خُلُقًا»<sup>(١)</sup>.

\* سعة علم عثمان ﷺ:

وكان ﷺ على علم بمعارف العرب في الجاهلية، ومنها الأنساب والأمثال وأخبار الأيام، وساح في الأرض فرحل إلى الشام واليمن والحيشة، وعاشر أقوامًا غير العرب، فعرف من أطوارهم وأحوالهم، ما ليس يعرفه كل عربي في بلاده.

وكان كاتبًا يجيد الكتابة فاعتمد عليه النبي في تدوين الوحي، وكان ممن حظي بشرف كتابة الوحي عند نزوله، وكان عليه الصلاة والسلام يداعبه متحياً ويقول له وهو يملئ عليه: «اكتب يا غثيم»<sup>(٢)</sup>، بل كان ﷺ يساره بالحديث لا يدره أحد غيره، حتى نستطيع أن نقول إنه كان أمين سر النبي وكاتبه الخاص، وقد اعتمد عليه أيضاً أبو بكر الصديق في كتابة الوثائق الهامة، ومنها الوثيقة التي عهد فيها بالأمر لعمر بن الخطاب من بعده.

وقد كان ﷺ محل ثقة الجميع ومخزن أسرارهم، وجمع بين الأمانة وبين حسن الحديث وعفة اللسان، حتى وصفه عبد الرحمن بن حاطب فقال: "ما رأيت أحداً من

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٥٣ الطبعة المحققة من الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٢) الأغثم: الأورق، والغثمة: أن يغلب بياض الشعر سواده.

أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا حدث أُم حديثًا، ولا أحسن، من عثمان بن عفان؛ إلا أنه كان رجلاً يهاب الحديث<sup>(١)</sup>.

وما يوصف بذلك إلا كل رجل حي متواضع.

### \* فضائله ﷺ:

فضائل عثمان أكثر من أن نحصيها، وكفاه فضلاً أن الرسول توفى وهو عنه راضٍ، وكفاه شرفاً وفضلاً أن الرسول بشره بالجنة أكثر من مرة، وكفاه فضلاً أن زوجته الرسول بتيه، ولندع الروايات تحدثنا وتخبرنا عن فضيلة عثمان ﷺ:

١- أخرج البخاري عن أبي موسى الأشعري "أن النبي دخل خائطاً وأمرني بحفظ باب الحائط، فجاء رجل يستأذن، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فإذا أبو بكر، ثم جاء آخر يستأذن، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فإذا عمر، ثم جاء آخر يستأذن، فسكت هنيهة ثم قال: ائذن له وبشره بالجنة على بلوى ستصيبه فإذا عثمان بن عفان".

٢- وأخرج البخاري أيضاً عن أنس قال: "صعد رسول الله ﷺ أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم فقال: اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان".

٣- وأخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي لا نفاضل بينهم".

٤- وأخرج البخاري من حديث عبید الله بن عدي الخيار في قصة الوليد بن المغيرة، حينما أكثر الناس في شأن الوليد قال: أما بعد، فإن الله بعث محمداً بالحق، فكنت ممن استجاب لله ولرسوله، وآمنت بما بايعت به، وهاجرت المجرتين، وصحبت رسول الله وبايعته، فوالله ما عصيته ولا غشته حتى توفاه الله، ثم أبو بكر، ثم عمر

(١) ذر التورين العقاد ص ٤٠، مرجع سابق.

مثله، ثم استخلفت، أفليس لي من الحق مثل الذي لهم؟ قلت بلى، قال: فما هذه الأحاديث التي تبلغني عنكم..<sup>(١)</sup>

٥- وأخرج ابن عساكر عن أبي ثور الفهمي قال: دخلت على عثمان - وهو محصور - فقال: لقد اختبأت عند ربي عشرًا، إني لرابع أربعة في الإسلام، وجهزت جيش العسرة، وأنكحني رسول الله ابنته ثم توفيت فأنكحني ابنته الأخرى، وما تغنيت، ولا تميت ولا وضعت يميني على فرجي منذ بايعت بها رسول الله ﷺ، وما مرت لي جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة إلا أن لا يكون عندي شيء فأعتقها بعد ذلك، ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام قط، ولا سرق في جاهلية ولا إسلام قط، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup> يقصد حفظه كله، وأما قوله "اختبأت عند ربي عشرًا" فإنما يقصد به حبس المشركين له في مكة عشرة أيام في عام الحديبية عندما أرسله النبي إلى أهل مكة ليتفاوض معهم وليخبرهم بأنه ما أتى إلا للعمرة ﷻ وأرضاه.

### ثانيًا: البيعة لعثمان بالخلافة وما دار فيها:

\* ترشيح أبي بكر عمر للخلافة بعده:

لقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما حريصين أشد الحرص على وحدة الأمة الإسلامية في حياتهما وبعد وفاتهما، ولقد عملا ما وسعهما الجهد على تحقيق ذلك في حياتهما، وبعد وفاتهما، وما فعله أبو بكر في تولية العهد من بعده لعمر: إنما كان يهدف إلى وحدة الأمة، وسد باب الفتن في أمر الولاية من بعده، وقد أبرأ الذمة أمام الله تعالى فاجتهد ما وسعه الجهد في اختيار أكفأ المسلمين لقيادة الأمة من بعده، وقد استشار واستشار واستقر الأمر على عمر بن الخطاب، ويروي في ذلك محمد بن سعد: أن جماعة من الصحابة دخلوا على أبي بكر لما عزم على استخلاف عمر، فقالوا له: ما أنت قائل

(١) راجع هذه الروايات في صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عثمان وانظر فتح الباري جـ ١٤ ص ١٩٤، مرجع سابق.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦١، مرجع سابق.

لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علياً وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسوني ثم جلس فقال: أبا الله تخوفوني؟ خاب من تزود من أمركم بظلم، أقول: "إني قد استخلفت عليهم خير أهللك، أبلغوا عني ما قلت لكم من وراءكم".

وقبل عمر العهد، وما كان ليتحى عن الأمانة وقد اختير لها، وهو يعلم أنه أقدر الناس عليها، وقبلها وهو يقول: "لو علمت أن أحداً أقوى على هذا الأمر مني لكان أن أقدم، فتضرب عنقي أحب إلي من أن ألي هذا الأمر دونه".

### \* ترشيح عمر عثمان للخلافة بعده:

ولما حضرت عمر الوفاة أبى أن يعهد لأحد من بعده، وأشفق أن يتحملها حياً وميتاً، وظل يتردد بين خوفه من تبعة هذا الأمر، وبين حرصه على وحدة الأمة من بعده - خاصة - وأن جند الله مرابطون على الثغور في الشرق والغرب، وأن العدو يترصب بهم منتظراً لحظة وهن واحدة. في حياة الأمة؛ لينقض على المسلمين فيسترد مجده، الذي سلب منه، وراجع عمر نفسه، وروجع في الاستخلاف مرة بعد مرة، وبلغه حديث الناس إذ يقولون: إنه غير مستخلف، ولو كان له راعي إبل أو راعي غنم ثم ترك رعيته كان قد فرط في أمانته.

وأخذ عمر يسأل نفسه: "من أستخلف؟ آه، لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته، وقلت لربي إن سألتني: سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته، وقلت لربي إن سألتني: سمعت نبيك يقول: إن سالمًا شديد الحب لله تعالى، فقال له المغيرة بن شعبة: أدلك عليه، عبد الله بن عمر، فنهزه عمر قائلاً: فأتلك الله، والله ما أردت الله بهذا، ويحك، كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته، لا أرب لنا في أموركم، فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، وإن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فقد صرف عنا، بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل

واحد ويسأل عن أمر أمة محمد، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، فإن نجوت كفافاً  
لا وزر ولا أجر، إني لسعيد" (١).

ثم قطع عمر هذا التردد في نفسه، وحسم هذا الأمر بقوله: ما أجد أحق بهذا الأمر  
من هؤلاء نفر أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فسمي: علياً  
وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له  
من الأمر شيء - كهيئة التعزية له - فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك وإلا فليستعن به  
أيكم ما أمر، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة (٢).

وفي رواية الطبري: أنه لما أصبح دعا بهم فحضروا إلا طلحة كان نائباً، فقال لهم:  
"إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض  
رسول الله وهو عنكم راض، وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكني أخاف  
عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس"، ووضع رأسه وقد نزفه الدم، فتناجوا بينهم  
حتى ارتفعت أصواتهم، وقال عبد الله بن عمر: سبحان الله، إن أمير المؤمنين لم يمت بعد،  
فسمعه، فاتبه وقال: اعرضوا عن هذا، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصل بالناس  
صهيب، ولا يأت اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا  
شيء له من الأمر، وطلحة شريككم في الأمر، فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضره أمركم،  
وإن مضت الأيام الثلاثة فامضوا، والتفت سائلاً: وَمَنْ لي بطلحة؟ قال سعد بن أبي  
وقاص: أنا لك به، ولا يخالف إن شاء الله تعالى.

ثم قال عمر لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة إن الله طالما أعز بكم الإسلام،  
فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم، ولا

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٢٨ طبعة دار المعارف الطبعة الرابعة.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عثمان بن عفان.

تمهلهم لحظة بعد ثلاثة أيام، وقال لصهيب: صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل هؤلاء الرهيط بيتًا وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبي واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة وأبي اثنان فاضرب رؤوسهما، وإن اختار اثنان واحدًا، واختار اثنان واحدًا آخر فحكموا عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقيين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس<sup>(١)</sup>.

على هذا الوجه المحكم أبرأ عمر ذمته من قضية الاستخلاف، فاختار الرجال، وقلب الأمر على جميع وجوهه، ووضع الخطط على كل احتمال من إحسان أو إساءة، ومن وفاق أو شقاق، فعل كل ذلك وهو يعالج سكرات الموت بين جراحاته القاتلة، حرصًا منه رضي الله تعالى عنه على وحدة الأمة وسد باب الفتنة من بعده.

### \* الأساس الذي اختار عليه عمر أهل الشورى:

إن هناك سؤالاً يطرح نفسه في هذه القضية - هو: على أي أساس اختار عمر الستة الذين رشحهم للخلافة من بعده.

هل اختارهم جزافًا كما شاء؟ أو كما يحلو له؟

حاشا لعمر أن يفعل ذلك، وهو من هو في حكمته وعقله، وفي شعوره بالتبعية الثقيلة لهذا الأمر من بعده، إن أقل صحابي لا يفعل ذلك فما بالنا بعمر وهو على القمة! أم هل اختارهم من بيوت الرئاسة في قريش ليكون كل واحد منهم نائبًا عن قبيلة منها؟

أيضًا حاشا لعمر أن يفعل ذلك وكيف يفعله فيحي العصبية بعد أن أماتها الإسلام، إن الهدف الذي كان من أجله الشورى هو مصلحة الأمة وليس إرضاء القبائل والأشخاص.

أم يكون قد اختارهم من البدرين وذوي السوابق في الإسلام والجهاد.

(١) تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٢٩ مرجع سابق.

لقد كان من هؤلاء عند وفاة عمر نفر غير قليل لو جمعهم كلهم لكثروا، ولو فاضل بينهم لما وضحت له أسباب المفاضلة، ومنهم من هو ذو فضل وليس يذري رئاسة تتبع، ومنهم من ذوي الفضل والرئاسة من لو اجتمعوا لاختل ميزان الترجيح وبطل معنى الاختيار<sup>(١)</sup>.

في الحقيقة لم تكن تلك الموازين السابقة هي التي اختار عمر على أساسها أهل الشورى الستة، وإنما كان الميزان الذي اختار على أساسه، هو ذلك الميزان المعصوم الذي وضعه الصادق المصدوق عليه السلام، وهو إخباره عليه السلام عن هؤلاء الستة في حجة الوداع أنه عنهم راض، وقد ذكر النبي في خطبته عشراً من الصحابة هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة الخليل بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة عامر بن الجراح.

فإذا نظرنا في هذه الأسماء، ونحينا منها عمراً، وأبا بكر، وأبا عبيدة لوفاقم بقي سبعة، ولكن عمر رضي الله تعالى عنه استثنى من بينهم ابن عمه سعيد بن زيد لقربته منه، وقال: لا أرب لي في أموركم فأرغب فيها لأحد من أهلي.

وبذلك يكون الأمر قد انحصر في الستة الذين ذكرهم عمر، وما كان يخفى عليه فضيلة في واحد من هؤلاء الستة ولا نقيصه؛ فكان يرى في ابن عوف أن إيمانه يرجح بنصف إيمان الأمة، وقال عنه لابن عمر: نعم المرء، ذكرت رجلاً صالحاً إلا أنه ضعيف، وهذا الأمر لا يصلح له إلا الشديد من غير عتف، اللين من غير ضعف، الجواد من غير سرف، المسك من غير بخل.

وكان يرى في الزبير أنه مؤمن الرضا كافر الغضب، وقد صارحه برأيه فيه فقال له: لعلها لو أفضت إليك ظلتت يومك تلاطم البطحاء على قد من شعير.

(١) ذو النورين للعقاد ص ٨٣.

وكان يرى في سعد أنه أهل لها، وقال: فإن تولوه فهو أهل، وإلا فليستعن به الوالي فلاني لم أعزله من ضعف ولا خيانة، وكان يقول: إذا روي سعد حديثاً فلا تسألوا عنه غيره لصدقه وأمانته.

وكان يرى في طلحة تطلعه لهذا الأمر، ولذلك أشركه مع الستة رغم غيابه عن المدينة، وكان في الخمسة الباقين كفاية لهذا الأمر، ولكنه ﷺ كان بعيد النظر؛ فأشركه في الأمر، حتى لا تحدث فتنة عند حضوره، بل واحتاط لذلك فقال: من لي بطلحة؟ فتكفل به سعد بن أبي وقاص.

وكان يرى مع هذا أنه لا يليها إلا أحد هذين الرجلين: علي وعثمان وقال: إن ولي عثمان فرجل فيه لين، وإن ولي علي ففيه دعاية وأحرى به أن يحملهم على الحق.

كما كان ﷺ بعيد النظر في اختيار ضهيب للصلاة، فهو الإمام الذي لا يخشى له دعوى من تقديمه للصلاة، فليس له تطلع إلى الخلافة، ولا يأبي الناس أن يأتموا به، وقد أمهم قبل ذلك.

ومن بعد نظره أيضاً أنه أقام أبا طلحة الأنصاري على رأس خمسين ممن يختارهم لقمع الفتنة في مهبها إذا اختلف المشاورون، فكان أبو طلحة عند ظنه حزمًا وفهمًا، قال للقوم وقد تنازعوا الرأي: لقد حسبتكم تتدافعونها ولا تنافسوها، ثم أقسم لا يمهلم لحظة بعد الأيام الثلاثة، ثم هو ضائع بهم ما أمر به أمير المؤمنين<sup>(١)</sup>.

حقاً لقد كان هذا الاختيار المحكم لأشخاص هذه الملحمة في ذلك الوقت العصيب، لم أكر دليل على حكمة عمر وإلهامه، فقد كانت معضلة: وليس لها غير عمر، وضع الأمور في نصابها الصحيح على نحو يفوق عباقرة الدنيا كلها في هذا الزمان.

(١) ذو النورين عثمان بن عفان للمرحوم العقاد ص ٨٢، ٨٣ طبعة دار تحفة مصر بالفحالة.

## \* ذكر ما تم بين أهل الشورى:

\* لما مات عمر وأخرجت جنازته، تصدى علي وعثمان، أيهما يصلي عليه، فقال عبد الرحمن بن عوف: كلاكما يجب الإمرة، لستما من هذا في شيء، هذا إلى صهيب، استخلفه عمر يصلي بالناس ثلاثاً حتى يجتمع الناس على إمام، فصلى عليه صهيب، فلما دفن عمر، جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة، ويقال في بيت المال، ويقال في حجرة عائشة بإذنها، وكان أول من تكلم عبد الرحمن بن عوف فقال: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان (وفي هذا دلالة على حضور طلحة بعد أن مات عمر وقبل أن يتم أمر الشورى وهذا هو الأصح<sup>(١)</sup>)، وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن بن عوف، أيكما تبرأ من هذا الأمر، فنجعله إليه، والله عليه وكذا الإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه؟ فأسكت الشيخان؟ فقال ابن عوف: أتجعلونه إلي، والله على أن لا آلو عن أفضلكم؟ قالوا: نعم.

\* وفي رواية الطبري عن عمر بن ميمون الأودي: أن عبد الرحمن بن عوف قال: أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحد، فقال: أنا أنخلع منها، فقال عثمان: أنا أول من رضي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أمين في الأرض أمين في السماء، فقال القوم: رضينا - وعلي ساكت - فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال أعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألو الأمة، فقال أعطوني موثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير، وأن ترضوا من اختر لكم، علي ميثاق الله ألا أحص ذا رحم لرحمه، ولا آلو المسلمين، فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله، فقال لعلي: إنك تقول: إني أحق من حضر بالأمر لقرايتك وسابقتك وحسن أترك في الدين،

(١) انظر فتح الباري جـ ١٤ ص ٢١٢. طبعة المكتبة الأزهرية.

ولم تبعد ولكن رأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر، فمن كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق؟

قال: عثمان، وخلا بعثمان، فقال: شيخ من بني عبد مناف، وصهر رسول الله، وابن عمته، لي سبقة وفضل، ولم تبعد، ولكن لو لم تحضر فأبي هؤلاء الرهط أحق به.

قال: علي، ثم خلا بالزبير، فكلمه بمثل ما كلم به عليًا وعثمان، فقال: عثمان، ثم خلا سعد، فكلمه فقال: عثمان، وأخذ عبد الرحمن بن عوف يسأل من يلقاه من أصحاب رسول الله، ومن وافى المدينة من أمراء الجند وأشرف الناس يشاورهم، ولا يلو برجل إلا أمره بعثمان أو عني ولم يدخر ابن عوف جهدًا طول الثلاثة أيام لبلياليها في سؤال الناس عن بيروته كفؤوا لهذا الأمر وقد كان بحق أمينًا في الأرض أمينًا في السماء، فقد بذل ما في وسعه، حتى أدى الأمانة كاملة لم يخن فيها الله ولا رسوله ولا المؤمنين، فلما حان انتهاء المدة التي حددها عمر قيل أن يموت كان ابن عوف قد حزم أمره، فلما صلوا الصبح جمع الرهط، وبعث إلى من حضر من المهاجرين، وأهل السبقة والفضل من الأنصار، وإلى أمراء الأجناد، فاجتمعوا حتى التح المسجد بأهله، فقال: أيها الناس: إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم.

\* وفي رواية المسور بن مخزوم عند الطبري أيضًا قال: وخرج عبد الرحمن بن عوف وعليه عمامته التي عممه بها رسول الله ﷺ، متقلدًا سيفه، حتى ركب المنبر، فوقف وقوفًا ضويلاً، ثم دعا بما لم يسمعه الناس، ثم تكلم فقال: أيها الناس: إنني قد سألتكم سرًا وجهراً عون إمامكم، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين: إما علي وإما عثمان، فقم إلي يا علي فقام إليه علي، فوقف تحت المنبر، فأخذ عبد الرحمن بيده، فقال: هل أنت مايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، (ولا يفهم من إجابة علي هذه: أنه تنكر للشرط الذي اشترطه ابن عوف عليه، ولكنه ﷺ أراد أن يحاط لنفسه، وأن يتحمل الأمانة على قدر جهده وطاقته

حتى لا يخون الله ورسوله والأمة التي بايعته)، فأرسل ابن عوف يده، ثم نادى: قم يا عثمان، فأخذ بيده، وهو في موقف على الذي كان فيه - فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم نعم، قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد، ويده في يد عثمان، ثم قال: اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقة عثمان، قال: وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه عند المنبر، فقعد عبد الرحمن مقعد النبي من المنبر، وأقعد عثمان على الدرجة الثانية، فجعل الناس يبايعونه.

وفي رواية البخاري: فلما أخذ الميثاق قال: "ارفع يدك يا عثمان، فبايعه فبايع له علي، وولج أهل الدار فبايعوه"<sup>(١)</sup>.

وهكذا تم أمر البيعة لعثمان بسلام ورضا من الجميع، ولم يتخلف عن بيعته أحد، وكان الإمام علي أول المبايعين لعثمان رضي الله عنهما، ورضي الله عن عمر فقيدهم فحسب الخطط، فأحسن التخطيط، ورضي الله عن عبد الرحمن بن عوف فقد نفذ الخطة على أحسن ما يكون، فضيق دائرة الاختيار فحصرها في ثلاثة ثم نزع نفسه بعد ذلك، حتى انحصر الأمر في الشيخين، ثم لم يأل جهداً في السؤال عنهما ومشاورة أهل الفضل فيهما، حتى استقر أمر الناس على عثمان، وتحقق ما أراه عمر قبل وفاته من وحدة الأمة الإسلامية على إمام لها تختاره بلا فتن أو خلافات.

\* أقول: تم الأمر بسلام، وحسنت المسألة في هدوء ورضا، يتناسب مع أخلاق هذا الجيل الفذ من أصحاب رسول الله ﷺ، والذين وصفهم القرآن بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

(١) انظر في أمر الشورى صحيح البخاري - كتاب فضائل الصحابة - باب مناقب عثمان، وكذا تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ مرجع سابق.

ولا يلتفت إلى ما سوى ذلك من الروايات الأخرى التي جاءت فيها الصور الموحشة عن هؤلاء الستة في أمر الشورى، ولا إلى زوائد الأقاويل والروايات عن خداع علي وعمن خدعه، أو أنه بايع وهو يقول: "خدعة وأما خدعة" قد خدعني عمرو بن العاص حينما قال لي: إن ابن عوف رجل مجتهد، وأنت إن أعطيتَه شرطه زهد فيك، ولكن تقبل على الجهد والطاقة" ويزعم أصحاب هذه القصة أيضًا أن ابن العاص لقي عثمان فقال له: إن عبد الرحمن رجل مجتهد، وليس والله يبايعك إلا بالعزيمة لشرطه، فاقبل منه عزمك يبايعك عليها.

إن هذه القصة من ضروب المخترعات المألوفة، وما كان لمثل عمرو أن يفعل ذلك، ولا لمثل عثمان أن يقبل من عمرو أن يحدّثه عن سر ابن عوف.

بل والأدهى من ذلك أن تأتي بعض الروايات، والتي تخيلها بعض المستشرقين - فتقول: إن أصحاب الشورى خصوا عثمان باختيارهم له، لأنه شيخ يدلّف إلى منيته، فكلهم يطعم فيها بعد موته... إلى غير ذلك من الروايات التي تقلل من شأن هؤلاء الرهط الكرام.

يا الله! ألا ما أبعد هذا الزيف، وذلك الركام عن حقيقة أهل الفضل من الستة الذين تم ترشيحهم، بل وعن هذا الجيل الفذ من أصحاب رسول الله قاطبة؛ وصدق رسول الله حينما قال يحدّثنا من الخوض بالباطل في شأن أصحابه: "الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضًا يعدي فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبيًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه".

وهكذا: آلت الخلافة إلى عثمان على نحو يتفق مع أخلاق هذا الجيل، كما أوضحنا، فيما صح من روايات ذكرها البخاري وغيره، بلا أدنى نقیصة تذكر لأحد منهم رضي الله عنهم أجمعين، وكانت بيعته ﷺ في الأيام الأخيرة من شهر ذي الحجة إلى غرة الحرم من السنة الرابعة والعشرين من هجرة رسول الله ﷺ.

وذكر الطبري في تاريخه: أنه ببيع لعثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة  
سنة ثلاث وعشرين، فاستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين من هجرة النبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٤٢ طبعة داز المعارف الطبعة الرابعة.

## أسئلة التقويم الذاتي

- س ١: لقب عثمان بن عفان رضي الله عنه (بذي النورين)، فما السبب وراء ذلك؟
- س ٢: اشتهر عثمان بن عفان رضي الله عنه بالسخاء والإنفاق، وضح ذلك واذكر ما يؤيده.
- س ٣: وردت أحاديث كثيرة توضح فضل هذا الصحابي، اذكر بعضاً منها.
- س ٤: كان عثمان رضي الله عنه فقيهاً واسع العلم، اذكر ما يؤيد ذلك.
- س ٥: كان عثمان بن عفان رضي الله عنه شديد الحياء وكان الرسول صلى الله عليه وسلم والملائكة تستحي منه، اذكر ما يؤيد ذلك.
- س ٦: كانت لعثمان رضي الله عنه هجرتان - وضح ذلك.

## أعماله في الخلافة ﷺ



أولاً: تولي عثمان الخلافة وإعلان سياسته.  
ثانياً: الفتوحات في عهد عثمان:  
- الجبهة الغربية.  
- الجبهة الشرقية.  
ثالثاً: نظرة فاحصة للفتوحات في عهد عثمان.  
رابعاً: أعماله في الداخل.

### أولاً: تولي عثمان الخلافة وإعلان سياسته:

\* لقد حمل عثمان رضي الله عنه أثقال الخلافة وهو على وشك أن يستقبل السبعين من عمره، وقد تلقى البيعة وهو يرتجف من تبعات هذا الأمر في ذلك الوقت العصيب من عمر الدولة الإسلامية، وتوجه إلى المنبر وعلى محيآه اكتئاب، ولعل هذه الخشية لجلال المسئولية هي التي أمسكت لسانه عن الإفاضة في أول خطبة ألقاها، فكان - على ما ذكره السيوطي - أول من ارتج عليه في الخطبة فقال: أيها الناس: إن أول مركب صعب، وإن بعد اليوم أياماً، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها، وما كنا خطباء وسيعلمنا الله" (١).

\* لقد أعطى عثمان العهد والميثاق على أن يسير بالأمة على سنة رسول الله ونهج صاحبيه أبي بكر وعمر، وبدأ على الفور يباشر تبعات البيعة في الداخل وفي الخارج؛ وبادئ ذي بدء فقد أعلن عن سياسته، حتى يعلم القاصي والداني الخط الذي سيسير عليه

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٤.

في خلافته، ذكر الطبري في تاريخه عن السري قال: «خطب عثمان الناس بعدما بويع فقال: "أما بعد: فإني قد حملت وقد قبلت، ألا وإني متبع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليّ بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ثلاثاً: اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وستتم، وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملاء، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم، ألا وإن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس، ومال إليها كثير منهم فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها"»<sup>(١)</sup>.

وبدأ على الفور بالكتابة إلى ولاة الأقاليم وأمراء الحرب والأئمة على الصلوات والأمناء على بيوت المال، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحثهم على طاعة الله وطاعة رسوله، ويحضهم على اتباع السنة وترك الإحداث في الدين والابتناع، وكان عمر ﷺ قد أوصى الأمير بعده أن يترك ولاة الأمصار الذين رشحهم عمر في حياته، يتركهم سنة بدون تغيير، ثم يفعل بعد ذلك ما شاء بهم، وقد التزم عثمان بما أوصى به عمر ﷺ في شأنهم، فأبقاهم حين ولايته وكتبهم ينصحهم ويحثهم على الطاعة<sup>(٢)</sup>.

\* وفي الحقيقة: كان عهد عثمان مليئاً بالإنجازات الرائعة في الداخل والخارج - خاصة - الفتوحات في البر والبحر، فأتم عثمان ما كان على عهد عمر من الفتوحات، واستمرت الفتوحات طيلة عشر سنين من خلافته، إلا أن ما حدث في العامين التاليين لها من فتن حجب الإنجازات، حتى حسب الناس أن عهد عثمان لم يكن سوى فتن وخلافات نشأت منذ بيعته واستمرت حتى استشهاده، ولكن الأمر غير ذلك، فقد حدث من الإنجازات والفتوحات في عهد عثمان ما يبهز العقول، بل تفرد عهد عثمان بتزول المسلمين البحر، وبناء الأسطول الإسلامي البحري، ومنازلة الرومان في البحر مرات

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٤٢٢.

(٢) تاريخ الطبري ج٤ ص٤٢٢.

عديدة، مما أكسب الدولة الإسلامية السيطرة على البر والبحر في آن واحد، وكتب لها  
السيادة شرقاً وغرباً.

وسيكون حديثنا - بمشيئة الله تعالى - عن أعمال عثمان في خلافته منقسماً إلى  
قسمين رئيسين: الأول: أعماله في الخارج، ونعني بذلك الفتوحات التي تمت في عهده على  
الجهتين الشرقية والغربية، والثاني: أهم أعماله في الداخل ونعني بذلك أهم الإنجازات  
والأعمال التي تحققت في عهده على الصعيد الداخلي لشئون الدولة، من نسخ المصحف،  
ومراقبة الولاة، وبعض الأعمال والتشريعات الجديدة في عهده إلى غير ذلك - مما  
سنذكره.

### ثانياً: الفتوحات في عهد عثمان:

فقد فتح المسلمون مناطق واسعة في عهد عمر رضي الله عنه، وكان عدد الجند قليلاً بالنسبة  
إلى تلك الأراضي الشاسعة، مما اضطر قواد الجيوش إلى ترك أعداد قليلة في المناطق التي  
يصالحوها أو يفتحونها عنوة، وما أن مات عمر، حتى تمردت قوى وقلول الأعداء في بلاد  
فارس والرومان، ونقضوا الصلح الذي أبرموه مع المسلمين، وظنوا أن قوة المسلمين قد  
انتهت بموت عمر، - خاصة - وأن الذي ولي الأمر من بعده هو شيخ يناهز السبعين من  
عمره، وليس له من البطولات والحزم والقوة مثلما كان لعمر بن الخطاب، ونظر عثمان  
إلى أرجاء الدولة الإسلامية، فوجد أن الانتفاضات المسلحة قد انقضت على الدولة من  
كل جانب، فتمرد الفرس في "أذربيجان" و"أرمينية" وأغار الروم بأسطوهم على  
"الإسكندرية" و"فلسطين"، وعلى الفور أصدر عثمان أوامره بإطفاء النار وقهر المتمردين،  
واختار بنفسه قواد الجيوش التي تذهب لتأديب هؤلاء وتلقينهم درساً لن ينسوه على مر  
الزمان، حتى لا يعاودوا الكرة مرة أخرى، ولم يكتف في هذا الصدد بتأديب المتمردين في  
تلك البقاع فقط، ولكنه أصدر أوامره أن يجاوز الفتح تلك البقاع المتمردة إلى حدود

أبعد، حتى لا تبقى أطرافاً للدولة يسهل عليها التمرد كلما تشاء، وستتبع مسيرة هذه الفتوحات في كل جبهة على حدة.

### (١) الجبهة الغربية:

\* نقضت الإسكندرية عهدها عام ٢٥هـ فسير إليها عثمان أمير مصر "عمرو بن العاص" فقاتل أهلها وأجبرهم على الخضوع والعودة إلى عهدهم.

\* وكان عمر بن الخطاب قد منع عمرو بن العاص من الانسياح في إفريقية بعد ما فتح طرابلس، إلا أن عثمان بن عفان قد سمح بذلك، وأرسل عبد الله بن سعد بن أبي سرح، على رأس قوة، فاجتازوا "طرابلس"، واستولى على سفن الروم كانت راسية هناك على الشاطئ، ثم واصل سيره في إفريقية، والتقى بجيوش الليزنطيين عام ٢٧هـ في موقع يقال له "سبيلطة" في جنوب غربي "القيروان" التي لم تكن قد أسست بعد، وقد قتل عبد الله بن الزبير القائد البيزنطي "جرجير" وأحرز المسلمون النصر على البيزنطيين، إلا أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد اضطر إلى عقد معاهدة للصلح معهم مقابل جزية سنوية يدفعونها على أن يخلي إفريقية، وكان ذلك الاضطرار بسبب سيره إلى مصر لمواجهة "التوبة" والذين هددوا مصر من ناحية الجنوب.

\* وفي أيام عمر بن الخطاب ألح أمير الشام معاوية بن أبي سفيان على الخليفة في غزو البحر وقرى الروم من "حمص" وقال: إن قرية من قرى "حمص" ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم، حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه، فكتب إليه عمرو: إن رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير؛ إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا يرق، فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية: "لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً"، فلما ولي عثمان لم يزل به معاوية، حتى وافق على ذلك، وقال: "لا تنتخب الناس ولا تفرع بينهم،

عيرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه"، ففعل واستعمل عنى البحر عبد الله بن قيس الجاسي حليف بني فزارة، وقد كانت له مهارة فائقة في الغزو في البحر، حتى إنه غزا خمسين غزاة بين شامية وصائفة ولم يغرق فيه أحد، ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وألا يتليه بمصاب أحد منهم.

غزا معاوية قبرص، وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار يؤدونها إلى المسلمين كل سنة وذلك عام ٢٨ هـ، وأمد الخليفة معاوية في هذه الغزوة بجيش مصر تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فلما وصل إلى "قبرص" كان معاوية على الناس جميعاً، وكان بين الغزاة من صحابة رسول الله ﷺ: عبادة بن الصامت، والمقداد بن عمرو، وشداد بن أوس، وأبو ذر الغفاري، وكان مع عبادة بن الصامت زوجه "أم حرام بنت ملحان" وتحققت في هذه الغزوة نبوءة النبي ﷺ، فقد كان يقبل يوماً في دار عبادة بن الصامت، ونهض من نومه وهو يضحك، فسألته "أم حرام" عما أضحكك، فقال الرسول: "ناس من أمي عرضوا علي يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة" فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال لها الرسول: أنت منهم".

وقد ذاعت هذه الرؤية بين الصحابة، وكانوا يتعجبون، كيف يركبون البحر مثل الملوك على الأسرة، حتى جاءت غزوة "قبرص" هذه، فركبوا ثبج البحر لأول مرة، وكانوا فوق سفنهم الكبيرة الظافرة كالملوك فوق أسرتهم وعروشهم وتحققت نبوءة النبي حيث كانت معهم "أم حرام" زوجة عبادة بن الصامت، وماتت بعد انتهاء معركة "قبرص" ودفنت هناك وعرف قبرها فيما بعد باسم "قبر المرأة الصالحة".

وفي عام ٣١ هـ جرت معركة بحرية حاسمة بين المسلمين والروم عرفت "بذات الصواري" وقد تأكد في هذه الغزوة صلابة الدولة الإسلامية تحت خلافة عثمان بن عفان، حيث جمع "قسطنطين" إمبراطور الروم جيوشاً كثيفة، لم يلتق المسلمون من قبل بمثل أكثرها عدداً وعتاداً.

خرج "قسطنطين" بجيشه الجرار على ظهور خمسمائة سفينة، زاحفًا على بلاد المغرب ليلاقى بها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وجمع عبد الله جيشه، ونزلوا بسنفتهم إلى البحر، والتقى الجمعان في معركة تتحدى ضراوتها كل وصف، ودعاهم قائد المسلمين ليخرجوا إلى البر، ويتقابل الجيشان فوق الأرض الصلبة، فأبوا ذلك، عندئذ أسرع فرقة من جيش المسلمين فربطت سفنهم بسفن الروم، بعد أن أدنوها منها، ثم راحلوا يجتلدون بالسيوف والخنجر، وكان ضحايا المسلمين من الكثرة بمكان، بيد أن قتلى الروم كانوا أضعاف أضعافهم، وانتصر المسلمون انتصارًا حاسمًا، وهرب قسطنطين بجسده الذي أدمته السيوف وأتختته الجراح.

وفي عام ٣٣هـ غزا أمير الشام معاوية حصن المرأة من أرض الروم قرب ثغر ملاطية.

وفي عام ٣٣هـ نقضت إفريقية العهد، فسار إليها أمير مصر عبد الله بن أبي سرح ففتحها ثانية، وأجبر أهلها على الخضوع والعودة إلى دفع الجزية بعد أن منعوها وتمردوا على المسلمين.

## (٢) الجبهة الشرقية:

\* نقضت مقاطعة (أذربيجان) و(أرمينية) العهد الذي كانتا قد أبرمته مع حذيفة ابن اليمان أيام عمر بن الخطاب، فسار إليهم عثمان جيشًا بقيادة (الوليد بن عقبة)، وكان على مقدمة جيش الوليد (سليمان بن ربيعة الباهلي)، فردوهم إلى صوابهم، واضطروهم إلى المصالحة من جديد على نفس الشروط السابقة مع حذيفة بن اليمان من قبل.

وبينما كان الوليد وجيشه راجعين إلى الكوفة، جاءهم الأنباء بأن الروم تتحرش بالشام، وجاءت هذه الأنباء مشفوعة بأمر الخليفة إلى الوليد أن يجهز عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة رجل أمين كريم شجاع، وأنجز الوليد أمر الخليفة، فاختر الجيش ووضع على رأسه قائدًا شجاعًا سمحًا هو (حبيب بن مسلمة الفهري)، وتحرك حبيب نحو أرمينية من

الغرب، فقابله الروم والترك في جيش قوامه ثمانون ألفاً، فطلب المدد فأمدّه الوليد بثمانية آلاف رجل بقيادة سليمان بن ربيعة الباهلي، والتقى الجيشان، وكان زوجة حبيب بن مسلمة مع الجيش، فقالت لزوجها قبل بدء القتال: أين ألقاك إذا حمى الوطيس وهاجت الصفوف؟ قال: في خيمة قائد الروم، أو في الجنة، والتقى الجيشان وانتصر المسلمون، والتقت به زوجته في خيمة قائد الروم، وأوغل حبيب بن مسلمة بعد هذه الجولة الظافرة في بلاد الروم يفتح الحصون حصناً بعد حصن، ويفتح أبواب الإسلام والحرية أمام جماهير عريضة طالما انتظرت أيام الخلاص.

\* وفي عام ٢٩ هـ - سار أمير (خراسان) عمير بن عثمان بن سعد غازياً حتى وصل إلى (فرغانة).

\* كما سار في العام نفسه أمير (سجستان) وعبد الله بن عمير اللثبي فوصل إلى (كابل).

\* وانطلق أمير (كرومان) عبد الله بن معمر التميمي فوصل إلى نهر السند.

\* وانطلق أمير (البصرة) عبد الله بن عامر بن كريز إلى أهل (اصطخر) فجمع انتفاضتهم.

\* وسار أمير (الكوفة) سعيد بن العاص إلى (خراسان) ومعه الحسن والحسين ابنا علي وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، إلا أن أمير (البصرة) عبد الله بن عامر قد سبقه نحو خراسان، الأمر الذي جعل سعيداً يسير إلى (تومس) وهي لاتزال على الصلح الذي أعطته لحذيفة بن اليمان بعد معركة (هاوند)، ومن (تومس) سار إلى (جرجان) فصالحه أهلها على مائتي ألف، وسار نحو الشمال حتى وصل إلى الصحراء ولكن أهل جرجان لم يلبثوا أن كفروا واستمروا في قطع الطريق حتى تولى أمر خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي.

\* وسار عبد الله بن عامر إلى فارس بعد أن انتفضت، فافتتحها وهرب (يزدجرد) إلى (كرمان) فأرسل في أثره مجاشع بن مسعود السلمى، ففر يزيدجرد إلى خراسان، وطلب المال من (مور) فمنعه، ثم التحأ إلى رجل على شاطئ نهر مور كان يعمل في نقل أحجار الرحي فقتله.

ووصل عبد الله بن عامر إلى خراسان، وكانت قد انتفضت، وكان الأحنف بن قيس على مقدمته ففتح طوس وأبيورد، ونساء، وبلغ سرخس وصالح أهل مرو، وأعاد فتح خراسان.

وفي عام ٣٢هـ كتب عثمان إلى أمير الكوفة سعيد بن العاص أن أرسل سليمان ابن ربيعة الباهلي للغزو في منطقة الباب، فذهب إليها، وأمهه بجند الشام في أرمينيا بإمرة حبيب بن مسلمة.

وعادت خراسان فانتفضت من جديد فبعث إليها عبد الرحمن بن عامر الأحنف ابن قيس، فصالح أهل (مرو السرد) واجتمع عليه أهل (الطالقان) و(فارياب) و(الجوزجان) و(طخارستان) فانتصر عليهم بإذن الله، وصالح أهل (بلخ)، وأرسل الأقرع بن حابس إلى (الجورجان) ففتحها، ثم عاد الأحنف إلى خراسان مرة ثالثة في عام ٣٣هـ<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: نظرة فاحصة للفتوحات في عهد عثمان:

١- بالنظر في سير الفتوحات وحركة الجيوش في عهد عثمان نجد أن أغلبها كان لتأديب المتمردين من أهل المناطق المفتوحة في عهد عمر، وخرجت الجيوش في عهد عثمان؛ لقمع هذه الانتفاضات شرقاً وغرباً، وعودة أهلها إلى حظيرة الإسلام.

(١) انظر الفتوحات الإسلامية في عهد عثمان: في التاريخ الإسلامي لمحمود شاکر ج٣ ص ٢٣٠ / ٢٣٥.

خلفاء الرسول لخالد بن محمد خالد ص ٣١٩ / ٣٢٤ تاريخ الطبري ج٤ ص ٣٤٦ / ٣٦٥.

٢- إن هذه الانتفاضات لم تكن كرهاً في الإسلام من أبناء تلك البلاد المفتوحة، فطلما انتظرت تلك الشعوب المغلوبة على أمرها الفتح الإسلامي لبلادها وتشتقت إليه، وإنما كانت حركات التمرد من الأشخاص ذوي السلطان والرئاسة في القديم، لقد كان التمرد من فلول القوى التي كانت تملك وتسود قبل الإسلام، وهي لم تكن تستطيع ذلك وحدها، ولكنها عيأت الجماهير وأشاعت بينها أن الإسلام قد انتهى بموت عمر، وأن عليهم إعادة مجدهم المسلوب وعزهم المفقود.

٣- إن كبار الصحابة الذين كان عمر قد حبسهم في المدينة وأبقاهم بجواره، وخشي عليهم أن يفتنوا بالدنيا، أذن لهم عثمان في الاشتراك في هذه الفتوحات وبرزت أسماء كثيرة من أصحاب النبي في هذه الفتوحات أمثال عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، والزبير بن العوام، وأبو ذر الغفاري، وعبادة بن الصامت، والحسن والحسين ابنا علي وغيرهم.

٤- شهد عهد عثمان شيئاً جديداً في فنون الحرب وهو ميلاد (البحرية الإسلامية) لأول مرة في تاريخ المسلمين، وقد أثبتت كفاءتها المنقطعة النظير في معركة (ذات الصواري) وفي فتح قبرص.

٥- لم تكن حركة الجيوش في عهد عثمان قاصرة على قمع حركات التمرد فقط، ولكنها تحركت نحو الأطراف وواصلت مسيرة الفتح الجديد في إفريقيا، وقبرص، وأرمينيا، وأضافت بقعاً جديدة إلى حدود الدولة الإسلامية في بلاد الهند وكابل وفرغانة، ورأينا كيف تحرك عبد الله بن أبي سرح حتى وصل إلى سببلة في جنوب غربي القيروان، وتقدمت الجيوش الإسلامية في عهد عثمان شرقاً حتى وصلت إلى حدود الهند والصين، وشمالاً إلى ما وراء بحر الخزر وغرباً إلى أبواب القسطنطينية ونجوم الأندلس وجنوباً إلى السودان وبلاد الحبشة.

٦- لقد أثمرت هذه الفتوحات في عهد عثمان، وأظهرت قوة المسلمين أمام أعدائهم وقضت على حركات التمرد، وأعدت الأمن والاستقرار في زبوع الدولة الإسلامية وبينت أن المسلمين هم في عهد عثمان كما كانوا في عهد عمر، قادرين على مواصلة الفتح وقمع أية انتفاضة في أي مكان.

٧- لقد أثمرت الغنائم وتدفقت الأموال على المسلمين من كل صوب وأصبح الخليفة الكهل رابضاً في المدينة ينعم بفتح الله عليه وعلى جيوشه، وتأتيه الغنائم من كل صوب، حتى فاض المال وعم الخير وزاد العطاء، ونعم المسلمون بالرخاء وطيبات العيش بما لم يتحقق لهم من قبل، وعاشت الأمة الإسلامية في عهد عثمان سنوات سمان، ونعم المسلمون بسنوات عظيمة متألقة كانت محل الفخار والرضا عن الخليفة الذي أساء أعداء الإسلام به الظنون، وطغت الفتنة في السنتين الأخيرتين من عهده، فنهجت الرؤية المشرقة لهذا الخليفة العظيم ﷺ.

### رابعاً: أعماله في الداخل:

لم يشغل ذلك الجهاد الموصول، وتلك الغزوات المتلاحقة، سيدنا عثمان ﷺ عن مهامه الداخلية، وتنظيم شئون الدولة، وعلاج المشاكل وحسم القضايا التي تواجه المجتمع في الداخل، وستناول أهم ما واجهه عثمان في الداخل بصورة موجزة فيما يأتي:

#### ١- مشكلة قتل عبيد الله بن عمر للهرمزان:

لقد كان أول شيء واجهه الخليفة على صعيد الجبهة الداخلية هو حادثة قتل عبيد الله بن عمر للهرمزان وجفينية، وابنة أبي لؤلؤة، وقد فعل عبيد الله ذلك عندما أخبر أن الخنجر الذي قتل به عمر رآه رجل مع الهرمزان، دفعه إلى فروروز، صحيح أن الحادثة التي قتل فيها عمر هي جريمة سياسية اشتركت فيها أطراف متعددة من الجوس واليهود والنصارى، بعضهم كان يظهر الإسلام وبعضهم على غير دين الإسلام كان لهم دور في التخطيط

للقتل، إلا أن القصاص من القتل متروك لأمر الخليفة، وليس من حق فرد أن يتولى القصاص بنفسه وإلا انقلبت الأمور فوضى، فإقامة الحدود من اختصاص الحاكم وليس من اختصاص الأفراد مهما كانت الأمور.

لذا فقد حبس عبيد الله بانتظار رأي الخليفة الجديد، وواجه عثمان أول مشكلة في خلافته، فلا بد من إقامة الحد على عبيد الله، ولا بد أيضاً من تقدير الظروف التي حملت عبيد الله على ذلك، وهل يقتل عمر بالأمس بأيدٍ قذرة ويقتل ابنه اليوم، وانقسم المسلمون إلى فريقين: فريق يقول بالقصاص من عبيد الله وعلى رأسهم علي بن أبي طالب، وفريق يرى دفع الدية لأنهم يشكون في إسلام الهرمزان، والمسلم لا يقتل بغير المسلم، واقترح هؤلاء على عثمان أن يكون هو ولي هؤلاء القتلى بصفتهم غرباء، وأن يدفع الدية من بيت المال، أو أن يدفعها من ماله الخاص.

ولكن عثمان رضي الله عنه ما كان ليدع حقاً من حقوق الله، أو يتهاون في إقامة حكم الله، فحكم بإسلام الهرمزان؛ لأن المسلم ليس له من غيره إلا الظاهر، وكان الهرمزان في ظاهره مسلماً، وعلى الفور رفض عثمان التحايل في هذه القضية وسلم عبيد الله إلى "القماذبان" بن الهرمزان ليقيم عليه الحد، ويروي الطبري في تاريخه عن السري أحداث هذه المشكلة عن أبي منصور قال: سمعت "القماذبان" يحدث عن قتل أبيه، قال: كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض، فمر فيروز بأبي، ومعه خنجر له رأسان، فتناول منه وقال: ما تصنع بهذا في هذه البلاد؟ فقال: آنس به، فأراه رجلاً، فلما أصيب عمر، قال: رأيت هذا مع الهرمزان؛ ودفعه إلى فيروز، فأقبل عبيد الله فقتله، فلما ولي عثمان دعاني فأمكنني منه، ثم قال: يا بني، هذا قاتل أبيك، وأنت أولى به منا، فاذهب فاقتله، فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي، إلا أنهم يطلبون إلي فيه، فقلت لهم: ألي قتلته؟ قالوا: نعم، فقلت: أفلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا، فتركته لهم، فاحتملوني فوالله ما بلغت المنزل إلى على رؤوس الرجال وأكفهم<sup>(١)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٣.

وقد أئمتي القمادبان بفعله هذه المشكلة، وقام عثمان عندها بدفع الدية من ماله الخاص وحلت المشكلة بطريقة سلمية أراحت الجميع، على عدم تضييع حق من حقوق الله فيها.

## ٢- مشكلة اختلاف الأمصار حول قراءة القرآن:

لقد اتسعت الفتوحات في عهد عمر، وبلغت آفاقاً أرحب في عهد عثمان، ودخلت في الإسلام أمم وشعوب كثيرة اختلفت في عاداتها، وتباينت في لهجاتها، وفي بعض الغزوات التي اشترك فيها الصحابي الجليل "حذيفة بن اليمان" راعه هذا الخلاف المفرع بين أهل الشام وأهل العراق حول قراءة القرآن، فقد كان أهل العراق يقرءون على قراءة عبد الله بن مسعود وأبي مسعود الأشعري، وكان أهل الشام يقرءون على قراءة المقداد بن الأسود وأبي الدرداء، وليس في اختلاف القراءات ما يفرع أو يخيف. بل إن القرآن - كما نعلم - نزل على سبعة أحرف، ولكن الذي أفرع حذيفة بن اليمان هو تعصب كل من الطائفتين لقراءته؛ واختلافهم فيما بينهم حتى كاد أن يكون هذا الخلاف صداماً، وعلى الفور ذهب حذيفة إلى أمير المؤمنين عثمان، بعد أن فرغ من تلك الغزوة، ووضع المشكلة ملخصة في تلك الكلمات: "يا أمير المؤمنين: أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها كما اختلف الذين قبلهم في كتبهم" ولم يتوان الخليفة لحظة، فأرسل من فورهِ إلى من كان بالمدينة من أصحاب رسول الله وشاورهم في الأمر، ثم استقر الأمر على كتابة المصحف على حرف واحد، وأن يجمع المسلمين في عصره على مصحف واحد. واستدعى إليه زيد بن ثابت، الذي قام بجمع القرآن في عهد أبي بكر، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وشرح لهم مهمتهم، وأوصاهم إذا اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة قريش، وأحضر لهم المصحف الأول من عند حفصة رضي الله عنها ليكون دليلهم وأساس عملهم، وعندما أنجزت تلك اللجنة عملها الجليل، أمرهم بنسخ عدد من المصاحف، وأرسل لكل إقليم من أقاليم الدولة مصحفاً.

ولم يكن لهذا العمل الضخم نتيجته الكاملة، ما لم يعرج عثمان على المصاحف الأخرى وعلى الألواح التي كانت بأيدي بعض الصحابة، فيجمعها ويحرقها، مفسحاً مكانها للمصحف الواحد الجامع، الذي تلتقي حول سائر الأمة، تثبت بكتاب ربها على نحو واجد لا اختلاف فيه ولا تنازع حوله، والذي عرف بـ"مصحف عثمان" أو "مصحف الإمام".

وبهذا القرار الحاسم والشجاع أنقذ عثمان الأمة من مظنة الخلاف والتنازع حول كتاب الله، وقد كتبه على نحو يسهل الأحرف السبعة، والتي تحوي بدورها القراءات المعتمدة والصحيحة وهي:

١- أن توافق الرسم العثماني ولو احتمالاً.

٢- أن توافق اللغة العربية ولو من وجه.

٣- أن تكون لها سند صحيح متصل برسول الله ﷺ.

وبهذا الجمع الذي تم في عهد عثمان، وعلى هذا النحو الذي كتب به المصحف انتهت مشكلة القرآن إلى الأبد، والتقى المسلمون حول كتاب الله تعالى بلا خلاف ولا نزاع إلى أن تقوم الساعة.

فجزى الله عثمان عما قدم في هذا الأمر للأمة الإسلامية خير ما يجزي به عباده الصالحين.

٣- سياسته مع العمال والولادة على الأمصار:

\* لم يكن لين عثمان وشفقته بمجازين له عن الحزم حينما يحتاج الأمر إلى حزم خاصة مع عماله، وأمراء الجند، وعمال الخراج، فقد كان يكتب إلى الأمصار أن يوافيه العمال في كل موسم من الحج، وأن يحضر إلى الموسم كل من له شكاية، وكان يأخذ لكل ذي حق حقه، وإذا رأى اعوجاجاً قومته حتى ولو أدى إلى عزل الوالي، وكان دائم النصح لهم، ويكتب إليهم مبيئاً لهم واجباتهم نحو الرعية، ومن ذلك ما ذكره الطبري في تاريخه: قال: وكان أول كتاب كتبه عثمان إلى عماله: أما بعد (فإن الله أمر الأئمة أن

يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا حباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، لم يخلقوا حباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا حباة ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع أحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظر في أمور المسلمين فيما عليهم فتعظوهم ما هم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تنثروا بالذمة فتعظوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء".

\* وكان أول كتاب كتبه إلى أمراء الأجناد في الثغور: أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملاءمنا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل، فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون! فإن أنظر فيما أُرْمِي الله النظر فيه، والقيام عليه.

\* وكان أول كتاب كتبه إلى عمال الخراج: أما بعد، فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق، وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم.

\* وكان كتابه إلى العامة: أما بعد، فإنكم إنما بلغت ما بلغت بالافتداء والاتباع، فلا تفتنكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداء بعد اجتماع؛ ثلاث فيكم: تكامل النجم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فإن رسول الله ﷺ قال: "الكفر في العجمة" فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا"<sup>(١)</sup>.

٤- عمارة المساجد:

لم يشغل عثمان ذلك الجهاد الموصول والغزو المتلاحق عن اهتمامه بالعمارة، فراح يحمل المدينة، ويزيد في بناياتها وعمارتها، مبتدئاً بمسجد رسول الله، ففي سنة تسع

وعشرين من الهجرة، زاد عثمان في مسجد رسول الله ﷺ ووسعه، وكانت القصّة (الحجارة من الحصى) تحمل إلى عثمان من بطن نخل، ربناه بالحجارة المنقوشة، وجعل عمدته من حجارة فيها رصاص، وسقفه ساجاً، وجعل طوله ستين ومائة ذراع، وعرضه مائة وخمسين ذراعاً، وجعل أبوابه على ما كانت عليه على عهد عمر، ستة أبواب<sup>(١)</sup>. وكان أول من خلق المسجد (يعني طيبه بالخلوق وهو نوع من الطيب) رضي الله تعالى عنه.

#### ٥- العطاء والطعام :

نقد أهمرت الغنائم والأموال على بيت المال في عهد عثمان كالسيل الجارف، وما كان عثمان ليضيق على الناس، وهو المعروف بسخائه وجوده ولذلك فاضت يده بالعطاء على الناس، فكان أول خليفة زاد الناس في أعطيتهم مائة، وكان عمر يجعل لكل نفسة منفوسة (مولودة) من أهل الفياء في رمضان درهماً في كل يوم، وفرض لأزواج النبي درهمين، فليل له لو صنعت لهم طعاماً فجمعتهم عليه، قال عمر: أشبه الناس في بيوتهم فأقر عثمان الذي كان صنع عمر، وزاد فوضع طعام رمضان، وقال: للمتعب الذي يتخلف في المسجد وابن السبيل، والمعتزين من الناس في رمضان (يعني الفقراء)<sup>(٢)</sup>.

#### ٦- إمارة الحج :

كان ﷺ حريصاً على أن يؤم الناس في الحج، وقد كان أعلم الناس بالمناسك، فمنذ أن ولي الخلافة لم يتخلف عن الحج إلا في السنة التي حوضر فيها فأناب عبد الله بن عباس أن يحج بالناس في هذه السنة، وكان يحج بأزواج رسول الله كما كان يصنع عمر، فكان عبد الرحمن بن عوف في موضعه، وجعل في موضع نفسه سعيد بن زيد، هذا في مؤخر القطار، وهذا في مقدمه، وقد أمن الناس في حجهم، وكان ﷺ حريصاً على أن يوافيه

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص ٢٦٧.

(٢) تاريخ الطبري ج٤ ص ٣٤٥.

---

العمال والولاية في موسم الحج؛ ليحاسبهم ويسمع منهم، ويستمع إلى شكايات أهل  
الموسم من عمائم، فيؤخذ الحق ويعطي الحق، وكان يكتب إلى الأمصار أن اتمروا  
بأنعروف وتاهوا عن المنكر، ولا يذل المؤمن نفسه، فإني مع الضعيف على القوي ما دام  
مطوباً إن شاء الله تعالى، فكان الناس بذلك.

## أسئلة التقويم الذاتي

س ١: ما الأساس الذي أعلنه عثمان بن عفان رضي الله عنه لمسيرة خلافته؟

س ٢: تكلم عن فتوحات عثمان بن عفان رضي الله عنه على الجبهة الغربية.

س ٣: تكلم عن فتوحات عثمان بن عفان رضي الله عنه على الجبهة الشرقية.

س ٤: ضع علامة (✓) أو علامة (x) أمام العبارات:

- ( ) (أ) كانت حركة الجيوش في عهد عثمان بن عفان أغلبها لتأديب المتمردين.
- ( ) (ب) كانت حركة المتمردين نتيجة كره أصحابها للإسلام.
- ( ) (ج) سمح عثمان رضي الله عنه لكبار الصحابة بالاشتراك في الحروب.
- ( ) (د) في عصر عثمان بن عفان رضي الله عنه ظهرت البحرية الإسلامية.
- ( ) (هـ) تدفقت الغنائم في عصر عثمان بن عفان رضي الله عنه.

س ٥: اهتم عثمان بن عفان رضي الله عنه بعمارة المسجد وإمارة الحج... وضع ذلك.



## الشبهات التي ثارت حول عثمان نقدها وإرجاع الأمر إلى أسبابه الحقيقية

المبحث  
الثالث

- أولاً: الشبهات الشخصية وتفنيدها.
- ثانياً: الشبهات الدينية.
- ثالثاً: الشبهات السياسية.
- رابعاً: رد الأمر لأسبابه الحقيقية.

لقد كان عثمان رضي الله عنه ضحية التطبيق الخاطئ لمبدأ "حق الأمة في محاسبة الحاكم"، هذا المبدأ الذي أرست قواعده العقيدة الإسلامية، وكان بحق فتحاً جديداً في حياة المسلمين على أعقاب الجاهلية، وعلى مسمع من طغيان الأكاسرة والقيصرة والتبابعة: في الشرق والغرب والشمال والجنوب.

ولقد استغل المناهضون لعثمان هذا الحق أسوأ استغلال، فلبسوا مسوح الدين، وباسم حماية الأمة من خطأ الحاكم، وباسم حماية المال العام من ظم الحاكم، وباسم فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحت شعار "الساكت على الحق شيطان أخرس"، باسم هذه الشعارات قام المغرضون بالتشنيع على عثمان، وتشويه صورته والصاق التهم به، وتآليب الناس عليه في الأمصار، قاموا بذلك الافتراء على الشيخ الجليل باسم الحق، وهم في الحقيقة أبعد ما يكونون عن الحق والحقيقة، فقد كانوا أصحاب هوى ومآرب خاصة، فقد كان من بينهم من أقام عليه الخليفة الحد، وكان من بينهم من حبس الخليفة أباه في جرمية، وكان من بينهم من فرق الخليفة بينه وبين حليمة تزوجها على غير

الشرعية، وكان من بينهم من أبى الخليفة عليه الولاية، ومنهم من كان منطوي النية على الفساد والإفساد بوحدة الأمة ودينها.

لقد تجمعت هذه النفوس الدنيئة على هدف مشترك وهو التشهير بعثمان والتخطيط للتخلص منه، وراحوا في كل مصر يؤلبون عليه الأمة، ويعددون "جرائم عثمان" كما ادعوا، وهم المجرمون في الحقيقة، حتى جاوز السيل الزبي، وبلغ الحزام الطيبين، وفوجئ المسلمون بالنهاية المروعة لشيخ الإسلام عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وسنحاول في هذا المبحث - بمشيئة الله تعالى - أن نحصر تلك الشبهات وأن نفلدها واحدة تلو أخرى، متلمسين في ذلك تبرئة الشيخ الشهيد من كل تهمة، وإرجاع الأمر إلى أسبابه الحقيقية التي أهدت حياة الخليفة الثالث على هذا التعر المروع، وكانت الفجعة الكبرى في حياة الأمة والتي صعب عليها بعد ذلك أن تلتئم شروخها، أو يلم شعنها الممزق لفترات طويلة.

والشبهات التي أثارها المغرضون حول عثمان يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أنواع:

- النوع الأول: شبهات شخصية "أي تتعلق بشخصه الكريم وتصرفاته الخاصة به".
- النوع الثاني: شبهات دينية "أي تتعلق بتصرفاته ببعض النواحي التعبدية في الدين".
- النوع الثالث: شبهات سياسية "أي تتعلق بمواقفه السياسية من الرعية والولاية والمال العام وغير ذلك.

وستتناول كل نوع على حدة، مبينين في ذلك موطن الشبهة، ووجه الحق فيها، سائلين الله العون والسداد فيما نصل إليه حول هذه القضية الشائكة.

### أولاً: الشبهات الشخصية وتفنيدها:

١- قالوا: إن عثمان كان به ضعف واستسلام لمن حوله وعلى رأسهم ابن عمه

مروان بن الحكم.

والقول بضعف عثمان، قول يجافي الحقيقة، وقد خلط القائلون بين سماحة عثمان وحيائه المنقطع النظر، وبين انعكاسات ذلك الطبع على تصرفاته في حينها وعندما تتطلبها الظروف والأحوال.

وكيف يوصف بالضعف رجل كان إسلامه تحدياً لكل قوى الطغيان وعلى رأسهم خاصة أهله، وهو عمه الحكم بن العاص، الذي حبسه وأذاقه صنوف العذاب، ولكنه أصر على إسلامه حتى أبأس عمه منه!

وكيف يوصف بالضعف رجل سمح حيي، والسماحة الحياء طبعان لا تقوى عليهما النفس الضعيفة الخائرة!

وكيف يوصف بالضعف رجل استطاع أن يفعل ما لم يفعله عمر، وهو حوض المسلمين لغمار البحر، وإنشاء البحرية الإسلامية، ومنازلة الأعداء في البحر لأول مرة في تاريخ المسلمين.

وكيف يوصف بالضعف رجل كان له من قوة الشخصية والتأثير، ما جعل زوجه السيدة نائلة بنت الفرافصة، وهي من هي في جمالها وكياستها وذكائها وحسن قولها وعزة أهلها، جعلها عثمان بحسن عشرته وقوة شخصيته تنسى نفرتها، واختلاف عقيدتها وبيئتها. وتحنفت على سنة زوجها وأسلمت لله رب العالمين، وتثبتت بالوفاء لعشرة زوجها الراحل، فرفضت الزواج بعده.

إننا لن نعي هذه القوة في شخصية عثمان إلا إذا قارنا بين هذه الحالة وبين حالة تشبهها بل تفوق عنها، وهي حالة "ميسون بنت بجدل الكلبيّة من قبيلة نائلة بنت الفرافصة" فقد تزوجت معاوية، ولكنها سُميت مقامها، وعافت القصر الذي تسكنه زوجة لأمر المؤمنين وأماً للأمر بعده، ولم تستطع شخصية معاوية أن تجذبها للمقام معه، رغم الفارق بين سن معاوية وسن عثمان، وبين ما ترجوه زوجة الخليفة بعد موته، وما ترجوه زوجة معاوية وأم يزيد، وقد نظمت ميسون هذه أبياتاً تشير فيها إلى زوجها:

وخرق من بين عمي نجيف      أحب إلي من علج عليف  
فما أبغى سوى وطني بديلاً      فحسبي ذلك من وطن شريف<sup>(١)</sup>

وكيف يوصف بالتبعية والاستسلام لغيره رجل قال مروان بن الحكم الذي عيروه بالتبعية له، قال له عثمان حينما أراد أن يثيره على زوجته نائلة: مه يا مروان لئن تعرضت لأسودن وجهك، والله لفي أنصح لي منك!

لقد كان اختيار عثمان لمروان ليعمل له عمل الكاتب، لم يكن عن ضعف استسلام، وإنما هو اختيار له أسبابه عند عثمان، قد لا يأبه بها من يصر على نقده هاجته.

٢- وإن عاب المغرضون على عثمان في تصرفاته الشخصية أمر زواجه من نائلة الفرافصة، فلم يكن عثمان بدعاً في هذا، بل أصبح الزواج من العقائل والجواري من ج الجزيرة أمراً شائعاً خاصة بعد الفتوحات في العراق والشام، وكان زواج الصحابة غير المسلمات خارج الحجاز أمراً عادياً ولا يمنع منه الإسلام، وقد تزوج من قبل بن العاص والي الكوفة من أخت نائلة "هند" وبلغ عثمان حديث الناس عن كياسة وحسن عشرتها وقيامها على أمور بيتها، فأرسل عثمان في زواج أختها نائلة، وكان بن الفرافصة قد أسلم، فزوج عثمان إياها، والمعول عليه هنا هو: ماذا أحدث هذا ج في حياة وسلوك عثمان، هل رده عن خلق كريم، هل تأثر عثمان بها أم هي التي ت به، وهل نزل على دينها، أم هي التي نزلت على دينه، لقد غلبت شخصية عثمان عادتها وعقيدتها، فتأثرت بإيمان عثمان وطباطعه الزكية، فنسبت بيتها وعقيدتها، ست مع عثمان لله رب العالمين.

## ثانياً: الشبهات الدينية:

من المآخذ التي تشبث بها المغرضون أن عثمان أحدث في الدين، وابتدع فيه ما لم يحدثه الخليفةان قبله أبو بكر وعمر، فقالوا: إنه زاد النداء في الأذان لصلاة الجمعة، وأتم الصلاة في منى وعرفة وكان النبي والخليفةان الأولان يقيمونها على القصر، وقد جمع القرآن في مصحف واحد وأمر بإحراق ما عداه في المدينة والأمصار.

١- وبداية نقول: إن مثل عثمان كان له من الورع في دينه، والحرص على نهج النبي وصاحبيه ما لا شك فيه أحد، بل أعلن ذلك في خطبته قائلاً: إني متبع ولست بمبتدع، ومسألة زيادة الأذان كانت لعلة مقبولة، ووافقها عليها الصحابة، فقد كثر عدد الناس، واتسعت المدينة، وشغل الناس بالتجارة والتكالب على الدنيا، فكان لا بد من تنبيه فيقهم من غفلتهم ويسمعهم بقرب دخول الوقت، ولذلك جعل الأذان الزائد على مكان مرتفع قرب السوق يسمى الزوراء حتى يتنبه الغافلون، ويسرع الناس إلى الجمعة قبل أن تفوتهم.

٢- ومسألة إتمام الصلاة في الحج، فقد صلى عثمان قصرًا في أول خلافته، ولكنه حينما تأهل بمكة ونوى الإقامة بها، تخرج أن يصلي صلاة المسافر، وقد أحاب عن هذا الإمام عليّ وهو يحاور المتمردين فقال: إن الخليفة كان قد تأهل بمكة ونوى الإقامة بها فآتم صلاته، بل إن مسألة القصر في ذاتها رخصة، فإذا تخطاه الإنسان إلى العزيمة فآتم، فلا حرج عليه وعلى رأي من قال بوجوبها، فإن عثمان حينما آتم لم يكن من أهل السفر؛ لأنه تأهل ونوى الإقامة بمكة، فجاز له الإتمام على رأي من يرى أن القصر بسبب السفر وليس بسبب النسك.

٣- وأما مسألة جمع القرآن في مصحف واحد، فهذا بلا شك من أعظم الأعمال التي قدمها عثمان للأمة، ولم يكن عثمان أول من فعلها، فقد سبق وجمع القرآن في عهد

أبي بكر، ولم يعترض أحد على ذلك، وحينما قام عثمان بتحريق الصحف الأخرى التي في أيدي الصحابة، إنما كان ذلك من أجل توحيد الأمة على كتاب واحد، ولم يمانع الصحابة في ذلك، بل وافق الجميع وأيدوا عثمان على هذا الجمع، وشكروا لعثمان هذا الصنيع، وقد ذكرنا من قبل أن هذا العمل كان من أبرز أعمال عثمان في سياسته الداخلية.

٤- ومن الشبه التي ذكروها أيضاً: أن الخليفة لم يقم الحد على عبيد الله بن عمر، وقد فصلنا هذه المسألة في الحديث عن سياسة عثمان الداخلية، وبيننا أنه ﷺ حكم بإسلام الهرمزان وسلم عبيد الله إلى القماذبان ليقم عليه الحد، ولكن صاحب الحق عفا، ودفع عثمان الدية من ماله الخاص.

٥- ومن الشبه التي أثاروها أيضاً: أن عثمان رد إلى المدينة الحكم بن العاص وكان النبي ﷺ قد نفاه منها.

والحقيقة في هذه المسألة: أن عثمان كان قد شفع له عند النبي ووعده الرسول بالعفو عنه بعد حين، كما أنه تاب وحسنت توبته، وذهبت الأسباب التي من أجلها كان النفي.

وما أكثر أن قالوا وقالوا، ونسجوا الأقوال على هواهم، وزيفوا الحقائق واخترعوا الأكاذيب ليؤلبوا الرعية على الخليفة، ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

ولقد أوضحنا فيما سبق حديث الرجل من أهل مصر لعبد الله بن عمر في شأن عثمان، قائلاً له: أليس عثمان فر يوم أحد؟ أليس عثمان تخلف عن بدر؟ أليس عثمان تخلف عن بيعة الرضوان؟ ورأينا كيف كان رد ابن عمر على هذه الشبهات المغرضة.

### ثالثاً: الشبهات السياسية:

يمكن أن نلخص المآخذ في هذا الجانب إلى ثلاثة أمور:

أولها: تولية عثمان بعض أقاربه ونحطى خيار الصحابة ممن قدم وسبق في الإسلام.

ثانيها: إسراف عثمان في بيت المال.

ثالثها: سوء معاملة عثمان لبعض أصحاب النبي ﷺ، وستناول كل واحد من هذه الثلاثة على حدة حتى نتبين وجه الحق في كل منها.

### ١- الولاية:

من الأمور البديهية أن من حق الخليفة أن يختار الرجال الذين يتعاونون معه على حمل مسئوليات الحكم، ما دام هذا الاختيار مترهاً عن الهوى، قائماً على اختيار الأكفاء، وما فعله عثمان من تغيير بعض الولاة، وإحلال الآخرين محلهم، إنما هو أمر عادي يفعله كل حاكم يرى المصلحة في ذلك.

وما كان هذا الأمر يثير قلقاً لولا أن نفخ فيه المغرضون سمومهم واتخذوه ذريعة لإيقار الصدور على عثمان، متهمين إياه بأنه فعل ذلك محاباة لأقربائه، وإذا رجعنا إلى الوراء قليلاً في عهد عمر لرأيناه وهو يعزل والي الكوفة عمار بن ياسر، واستعمل عليها مكانه أبا موسى الأشعري، وقد فعل ذلك نزولاً على رغبة أهل الكوفة، ثم شكوه إلى عمر فعزله عنهم وصرفه إلى البصرة.

والذي نريد إبرازه هنا هو: أن نزوة التشهير بالأمرء كانت ميداناً قديماً لبعض الأقاليم، ولبث عمر مهموماً مغموماً بأمر هذه الشكايات، حتى اضطلع يوماً بجانب المسجد وهو يفكر في هذا الأمر، واستيقظ وهو مكروب، فقال له المغيرة بن شعبة: ما فعلت هذا يا أمير المؤمنين إلا من عظيم، فقال: وأي شيء أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير، ولا يرضى عنهم أمير، وقد استفحل أمر الشكايات من الولاية في عهد عثمان، حتى أصبح أمر الولاية مرهوناً بأهواء الأقاليم، وكأنه مخطط مرسوم؛ لتخريب الدولة وتجريدها من سلطاتها حتى فاض الأمر بعثمان، فقال للمتمردين: "وأى شيء لي من الأمر، إذا كنتم كلما كرهتم أميراً عزلته، وكلما رضيتم عن أمير وليته".

وللنظر في وضع الأقاليم على عهد عثمان وما نالها من تغيير الولاية:

لقد كان أول إقليم ناله التغيير هو إقليم الكوفة، وكان واليه المغيرة بن شعبة، ولقد رغب أهل الكوفة في تغييره، فعزله عثمان، وولي مكانه سعد بن أبي وقاص، ثم نشب خلاف بين سعد وبين ابن مسعود الذي كان خازنًا لبيت المال فيها، فعزل الخليفة سعدًا، وولي مكانه الوليد بن عقبة، وقد أبلى الوليد بلاء حسنًا في غزو أذربيجان وأرمينية، ولكن ثارت تائرة القوم: كيف يولي قريه؟

وفي الحقيقة أن الوليد هذا كان مولى من قبل عمر بن الخطاب، فلم تكن تولية عثمان له ابتداء وإنما ولاه عمر على عرب الجزيرة، وحينما أوشى به المغرضون إلى الخليفة وأتبتوا عليه شرب الخمر، أقام عليه عثمان الحد، وعزله، وولى مكانه سعيد بن العاص. وأما البصرة: فقد أرسل أهلها وفدًا إلى المدينة يطلبون من الخليفة عزل أبي موسى الأشعري، فاستجاب لهم عثمان، وولى مكانه عبد الله بن عامر، وهنا - مرة ثانية - ثارت تائرة المغرضين.

لقد ولي عثمان عبد الله بن عامر وهو ابن خال عثمان، إنه لم يوله ابتداء، ولكنهم هم الذين طلبوا التغيير، ولكن ماذا تقول لقوم كل هدفهم إثارة الفتن والقتل؟

وأما مصر: فقد تكرر إلحاح الوفود القادمة إلى المدينة في عزل عمرو بن العاص، فعزله الخليفة عن الحرب وأجراه وأبقاه على الصلاة، وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح على الخراج والحرب، وعبد الله هذا هو صاحب البطولات والفتوحات في إفريقية، ولما نشب الخلاف بينه وبين عمرو بن العاص، استدعى الخليفة عمرًا إلى المدينة، وتفرد ابن أبي سرح بولاية مصر كلها، لكن تائرة المغرضين لم تهدأ، وقالوا إن عثمان قد ولي عبد الله بن أبي سرح لأنه أخوه في الرضاع، مع العلم بأنه كان من أكفأ الرجال في قيادته وولايته.

وأما ولاية الشام: فكان عليها معاوية، وكان والياً عليها من أيام عمر، فليس عثمان هو الذي ولاه ابتداءً، وقد أثبت معاوية كفاءته الكبرى في ولايته.

إن عثمان لم يول أحداً لقربته فقط، ولكن كان في المقام الأول لكفائته وقدرته على الولاية، وإذا كان البعض قد أخذ على عثمان أنه تحطى الصالحين الورعين من الصحابة ومن لهم سبق وقدم في الإسلام إلى غيرهم من الطلقاء، فإن هذا الأمر لا يعد بدعاً من عثمان، وإنما فعله عمر من قبل ولم يعتب عليه أحد، المقام مقام ولاية تحتاج إلى الرجل الحازم القادر على تصريف أمر الولاية.

وقد قال النبي ﷺ لأبي ذر: يا أبا ذر: إنك ضعيف وإها ولاية.. "أي أن الولاية لا يصلح لها الضعيف حتى وإن كان ذا تقوى وورع.

وهذا عثمان مع واحد من أقربائه - وقد ولع الشاكون والمغرضون بالحديث عن محابة عثمان لأقربائه - ها هو عثمان مع محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، قريب عثمان وربيه في داره، أقام عليه عثمان الحد؛ لأنه شرب خمرًا، وجاءه يطلب منه ولاية فرفض وقال له: لو كنت أهلاً لذلك لوليتك، فكان هذا زعيم الثائرين عليه في مصر ومعه نفر من ذوي قرياه.

وعثمان ﷺ كان حريصاً على رعاية حدود الله، وراذعاً لكل خارج عليها، فما بلغه عن أحد من أقاربه أو من ولاته أنه ارتكب خطأ إلا وحقق معه وأخذ الحق منه، أو أقام الحد عليه، وكان أشد ما يؤلمه: أن يترع مع أحد من ولايته بلا موجب للعزل، لمجرد أنهم من ذوي قرياه، وحرصاً منه ﷺ على تحري الدقة عن ولاته، اختار نفرًا من أصحاب النبي الذين لا يشك في نزاهتهم، ولا يختلف في أمانتهم وورعهم اثنين.

اختار "محمد بن مسلمة" الذي كان أمير المؤمنين "عمر" يأتمنه على محاسبة ولاته، والتفتيش على الأقاليم، وتقصي أحوال الناس في كل بلد، واختار "عبد الله بن عمر" البقية الصالحة من آل الخطاب والإمام الفقيه الورع الذي عرضت عليه الإمارة أكثر من مرة

فرفضها، واختار عمار بن ياسر واختار أسامة بن زيد، وأرسلهم على رأس جماعة ليتحروا أمر كل والي وحال كل إقليم، إنها لجنة تقصي حقائق، حتى يكون الخليفة على بينة لكل ما يجري في الأمصار، وجاء هذا الوفد بعد جولته في الأقاليم، وقدموا للخليفة تقاريرهم وما شهدوه وما سمعوه، فما كان هناك خطأ واحد يستوجب عزل أمير<sup>(١)</sup>.

ماذا يراد من عثمان بعد ذلك؟ أيقال: إنه ولي أقاربه محابة، أو أنه كان متعصباً لذوي رحمه على حساب الحق ومصالح المسلمين؟ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾

٢- المال العام :

بادئ ذي بدء نود أن نذكر بقول النبي ﷺ: "والله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكنني أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم. كما أهلكتهم". ومما لا شك فيه أن للمال ضراوة كضراوة الخمر - على حد تعبير عمر رضي الله عنه - ولذلك كان عمر حريصاً على فطم الأنفس في استشرافها إلى المال والثراء، خاصة ولاته على الأمصار، فلا يكاد يسمع عن والي ترفه في ملبسه أو في مطعمه حتى يستدعيه على الفور إلى المدينة ويزجره، فإن عاد أقصاه وعزله، وكان لا يعييه أحد في ذلك؛ لأنه بدأ بنفسه فقمعها عن الاستمتاع، وألزم نفسه شطف العيش هو وأهل بيته وعشيرته، وكان يرى أن الرعية مؤذية إلى الإمام فإذا رتع الإمام رتعوا، ولذلك كان حريصاً على أن يجد عامة الناس في ولائهم القدوة التي تعينهم على عدم الاستسلام لمغريات الحياة وأطياب العيش، وإذا كان هذا هو نهج عمر فإن عثمان كان يرى في المال غير ذلك، فما دام الثراء حلالاً، والاستمتاع مشروعاً، فليكن للناس حظوظهم من طيبات الحياة ونعيمها، لا فرق في ذلك بين الولاة وعامة الناس، وكان يتحرج من عزل والي رغد عيشه، وترفعت حياته،

(١) انظر: خلفاء الرسول لخالد محمد خالد ص ٣٤٧ - ٣٥٧.

ما دام في ذلك لا يرتكب إثماً، ولا يظلم أحداً، ولعل هذه النظرة من عثمان، توافق ما فطر عليه من السخاء والكرم، وما نشأ فيه من النعيم والرفاهية.

وقد فاض المال في عهد عثمان، وانهمرت الثروات على بيت المال من كل صوب، وكثرت الغنائم والفيء والحراج، مما جعل عثمان يزيد في عطاء الناس، وينفق بسخاء من بيت المال على مصالح الأمة، وقد استغل المقرضون سخاء عثمان، وظنوا به الظنون، وروجوا الإشاعات الكاذبة حول أعطياته من بيت المال، وقالوا: إنه يخص ذوي قرباه بمزيد من الأعطيات تفوق الخيال، وازدادت شائعاتهم أكثر حينما عزل عبد الله بن أرقم أمين بيت المال، وولى مكانه زيد بن ثابت، وقالوا: ما عزل ابن أرقم إلا؛ لأنه عارض إسرافه وتصرفاته، وما أشد حماقة هؤلاء، أيعقل أن يكون زيد بن ثابت الذي اتتمنه أبو بكر وعمر وعثمان على جمع القرآن، أن يخون الله ورسوله، ويتواطأ مع عثمان على نهب بيت المال!

وعندما نتبع هذه الشائعات التي نسجت خيوطها حول أعطيات الخليفة لأشخاص معينين من ذوي قرباه نجدها تتلخص فيما يأتي:

(أ) زعموا أن عثمان نقل مروان بن الحكم خمس غنائم إفريقية التي أرسلها ابن أبي السرح، وهذا غير صحيح، وإنما الصحيح أن ابن أبي السرح أخرج الخمس من الذهب وهو خمسمائة دينار فأنفذها إلى عثمان، وبقي من الخمس أصناف من الأثاث والماشية يشق حملها إلى المدينة، فاشتراها مروان من حر ماله، وبقيت من ثمنها بقية في ذمته، فلما جاء مروان إلى الخليفة وبشره بفتح إفريقية، وكانت الناس على وجل من ضراوة الحرب فيها، فرح عثمان فرحاً شديداً ووهب لمروان البقية التي بقيت عنده شكراً لله على نعمة البشارة بالنصر، والهبة على البشارة شيء كان يفعله النبي ﷺ في حياته وفعله كعب بن مالك حينما جاءه البشير بتوبة الله عليه، وكان من الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

(ب) زعموا أن عثمان عندما رد الحكم بن العاص من الطائف إلى المدينة وصله من بيت المال بمائة ألف درهم، وهذا لم يصح، وإنما الذي صح: أنه زوج ابنه من ابنة الحارث بن الحكم وبذل لها من مال نفسه مائة ألف درهم، وزوج ابنته أم أبان من ابن مروان بن الحكم وجعلها من خالص ماله بمائة ألف درهم، وهذا شيء لا يمنع منه الإسلام، والمعروف أن عثمان كان من كبار الأثرياء، فقد كان ذا مال في الجاهلية وفي الإسلام.

(ج) وزعموا أنه وصل عبد الله بن خالد بن أسد بثلاثمائة ألف درهم من بيت المال، والحقيقة أن هذا المبلغ الذي أخذه عبد الله بن خالد، لم يكن صلة، وإنما كان قرضاً من بيت المال، وكان يحتسب لبيت المال ذلك من نفسه حتى وفاه، وكان من حق المسلمين يومئذ أن يقترضوا من بيت المال.

(د) وزعموا أن عثمان ولي الحارث بن الحكم أمانة سوق المدينة يأخذ عشور ما يباع فيه، وهذا قول غير صحيح، وإنما الصحيح: أنه جعل إليه سوق المدينة ليراعي أمر الموازين، فاستغل وظيفته وتسلط يومين أو ثلاثة على باعة النوى، فكان يشتريه لنفسه ويحتكره، ولم يكد الخليفة يعلم بذلك حتى استدعاه إليه وسفّفه ثم عزله من فورده، وقال لأهل المدينة: إني لم أمره بذلك وإنما فعل من تلقاء نفسه.

(هـ) وزعموا أنه اقتطع الأرض لأقربائه، والحقيقة غير ذلك: فقد كان عثمان حريصاً على تعمير الأرض الميتة، ورأى الأرض البوار تملأ سواد العراق، فراح يقطعها لمن عندهم القدرة على تعميرها واستثمارها، وهذا عمل مشروع يبحث عليه الدين، وكان النبي يقطع لأصحابه ما يمكنهم إصلاحه، بل كان يشجع هذا اللون من التعمير فيقول: "من أحيا أرضاً موأناً فهي له".

إن هذه المزاعم وغيرها هي من قبيل الافتراءات كما قلنا، فما كان المغرضون يدعون فرصة ينفذون منها إلى التشهير بالخليفة إلا واستغلوها، حتى رأيناهم حينما زاد عثمان في الحمى لإبل الصدقة وخيل المسلمين، قالوا: إنما فعل ذلك كي يسمن إبله

وماشيته، إنما الإثارة واختلاق الأكاذيب حول هذا الشيخ النقي التقي، الحسي السخي، الذي لا يشك أحد في نزاهته وطهارة ذمته، وعظم نفسه وخلقه ﷺ وأرضاه.

وكما قال الأستاذ خالد محمد خالد: "والحق الذي نستخلصه من استكناه الوقائع التاريخية عن ذلك العهد، أن خصوم الخليفة من أتباع ابن سبأ والمتآمرين معهم، كانوا في حملة التشهير بالخليفة لا ينتظرون وجود أخطاء ينسجون منها بجاتهم، فلقد كانوا مصممين على هذا التشهير وقادرين عليه، ولو برئت تصرفات الخليفة المالية من المفوات، لما رضوا أن يدعوا صفحتها بيضاء من غير سوء.

ولسنا ننفي أو نستبعد وقوع أخطاء، إنما ننفي بيقين كامل أن تكون هذه الأخطاء ناجمة عن أدنى قصور في ذمة الخليفة العظيم وأمانته، الأمر الذي أراد المتآمرون أن يصلوا إليه"<sup>(١)</sup>.

### ٣- معاملة عثمان لبغض أصحاب النبي ﷺ:

ما يظن أحد أن عثمان ﷺ يحدد قدر صحابي - خاصة - إذ كان من السابقين الأخيار أمثال أبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وهؤلاء هم الثلاثة الذين نسجت حولهم الاتهامات لعثمان، وأنه أساء معاملتهم؛ لأنهم وقفوا في وجهه ينصحونه ويعييون عليه بعض تصرفاته.

وبداية لا بد أن نوضح أمراً هاماً، وهو أن حياء عثمان وأناته المفرطين أطمعا الكثيرين فيه، وجرءا العديد من الناس عليه، حتى ما أصبحت هيئة السلطان تحجزهم عن فعل أو قول، مما جعل عثمان نفسه يضيق بهذه النظرة المغلوطة إلى شخصية الكريم، حتى أفصح عن ذلك في إحدى خطبه للمتمردين فقال: "أما والله لقد عبتم عليّ بما أقرتم لابن الخطاب، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم

(١) خلفاء الرسول ص ٣٥٩، ٣٦٠ طبعة دار ثابت الطبعة الثامنة ١٩٨٦م القاهرة.

أو كرهتم، أما أنا، فلتت لكم، وأوطأت لكم كفي، وكففت يدي ولساني عنكم،  
فاحترأتم علي".

ولسنا ننسى ونحن في هذا المقام أن نذكر بما فعله عمر مع سعد بن أبي وقاص،  
حينما كان عمر يقسم مالا، وجاء سعد يخترق الصفوف غير مبال بحمية السلطان، فقام  
إليه عمر وعلاه بالدرة، فقال له سعد: ولم؟ قال عمر: أقبلت لا تهاب سلطان الله في  
الأرض، فأردت أن أعلمك بأن سلطان الله لا يهابك.

وإذا كان قد أخذ على الخليفة الثالث أنه وقف من بعض فضلاء الصحابة موقفاً  
يتسم بالعنف فإنما هو خلاف في الرأي بين الخليفة وبين إخوانه من الصحابة، ولكن  
المعرضين لم يحل لهم أن تمر فرصة بدون اغتنامها، فجعلوا من خلاف الرأي نارا أشعلوها  
على عثمان، وقالوا: إنه لا يتقبل نصحا، ولا يتحمل نقد أحد، وإنما يستبد برأيه، ولا يترل  
على رأي فضلاء الصحابة، وهذا محض افتراء لا أساس له من الصحة عند التمحيص.

### وابعاً: رد الأمر إلى أسبابه الحقيقية:

لقد بينا فيما سبق ما أثير حول سيدنا عثمان من شبهات سواء منها ما تعلق  
بشخصه، أو ما تعلق بتصرفاته في بيت المال، أو ما كان مع ولاته، وناقشناها شبهة شبهة،  
وبينا وجه الافتراء فيها، وأن هذه الشبهات التي استند إليها الجناة في مقتل سيدنا عثمان  
كانت واهية إلى أبعد حد، بل إذا تجوزنا في شأنها، فإنه ما من شيء في الغالب أخذ على  
عثمان إلا وفعل مثله في عهد عمر، وما أدى ذلك إلى فتنة، فقد اجتهد عمر في أمور دينية  
كما اجتهد عثمان، فأوقف سهم المؤلف قلوبهم، وأرجأ الحد في عام المجاعة، ومنع تقسيم  
الأرض على الفاتحين وأبقاها في أيدي أصحابها يزرعونها مقابل حصة من خراجها، ومع  
ذلك لم تتألب عليه الناس، ولم تقم الدنيا وتقعده ضده، كما فعل مع عثمان، وما فعله  
عثمان من السخاء في توزيع المال يتألف به قلوب بعض الناس، قد فعله النبي في غزوة  
حين مع أهل مكة يتألف قلوبهم بالعطاء، وقد فعله معاوية بعد ذلك، فكان بذل المال

الذي يتألف به قلوب الخصوم، من أقوى الأسباب في تدعيم سلطانه وتثبيت عرشه، واستتباب الأمن في فترة حكمه، ونحن نقول هذا على سبيل التجوز، ولكن قد رأينا أن عثمان لم يعث أبداً ببيت المال، وما نسب إليه من نفل بعض الناس من بيت المال، أو وصلهم بالمال لقرابتهم، هو من باب الافتراء، ولبس الحق بالباطل كما اتضح لنا فيما سبق، وما أخذ على عثمان من عزل الولاة، أو تولية أقاربه وتخطي أهل الفضل من الصحابة، هو قول يجافي الحقيقة في أغلبه، فما كان عثمان بالذي يجابي على حساب دينه ومصالح المسلمين، ومن طعنوا في ولايتهم لقرابتهم من الخليفة، كان عمر قد ولاهم من قبل مثل معاوية والوليد، بل وجدناه رفض تعيين ربييه محمد بن أبي حذيفة لعدم صالحته لهذا الأمر.

وما أخذ عليه من غلظته وسوء معاملته لبعض كبار الصحابة، فقد بينا أنه كان مجرد خلاف في الرأي، لم يصل إلى حد الإهانات أو المهاترات بين أهل الفضل، وإنما كان عثمان حريصاً على إبقاء هيبة الخلافة، وقد فعل عمر ذلك من قبل فضرب سعد بن أبي وقاص بالدرة قائلاً: لقد أقبلت لا تماب سلطان اله في الأرض، فأردت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك، ولم يعترض أو يثور الثوار على عمر.

إذن المسألة ليست مسألة أخطاء أو شبهات، وإنما هي رياح التغيير التي هبت على المجتمع الإسلامي في الفترة التي حكم فيها عثمان وهي لم تظهر في ضراوتها إلا في نهاية خلافته، كما ذكر ابن شهاب الزهري فقال: ولي عثمان الخلافة اثني عشرة سنة يعمل سب سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً، وإنه لأحب إلى قريش من عمر بن الخطاب، لأن عمر بن الخطاب، كان شديداً عليهم، فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم، ثم تواني في أمرهم واستعمل أقرباءه وأهل بيته في الست الأواخر...<sup>(١)</sup>.

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٥٦.

ولعل ذلك مرجعه إلى أن الفترة الأولى من خلافته شغل الناس فيها بالجهاد والفتوحات فحينما حمدت ثورات التمردين وتثبتت أركان الدولة، واستروح الناس من الجهاد، فضلاً عما نعموا به من العطايا، وكثرة الأموال من الفبيء والغنائم، شغلهم الترف، وجمعتهم بمجالس السمر، وأصبحوا لا شاغل لهم، وتفتحت أعينهم، وانطلقت ألسنتهم في أمر الخلافة وأعمال الخليفة.

\* يقول الأستاذ العقاد - رحمه الله -: "ولهذا قلنا: إنما أسباب لا أسباب، وإنما بين أسباب مزعومة يراد بها غير ظاهرها، أو أسباب ولكنها لم تفعل فعلها إلا لاقرانها بأحوال تلك الفترة، ولو جاءت في فترة أخرى، لما كان لها ذلك الأثر".

لقد كان العهد فيما سبق أن تقوم العلاقة بين الحاكم والرعية على مبدأ الثقة، فالخليفة يعمل ما يشاء في ظل الثقة به والاطمئنان إليه، يعزل من يشاء ويولي من يشاء، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ينقض اليوم ما عمله بالأمس ولا يلومه أحد، ولا يشور عليه أحد؛ لأنهم على ثقة بأنه يفعل ذلك للمصلحة العامة، وليس لمصلحته الشخصية، إنما رعية تتق بخليفتها، وخليفة لا يألو رعيته النصح لها، وقد وصلت الخلافة إلى عثمان وهو أحوج ما يكون إلى هذه الثقة، وهي أعصى ما تكون عليه، لقد أصبح الناس في عهد عثمان منافسين ونظراء، ويرصدون كل فعل له، وكان الخليفة أصبح فريسة يختبئ لها الصياد ليعرف أين ومتى تكون الضربة القاضية؟ لقد فرغ الناس في عهد عثمان للجدل والملاحاة وتصيد الأخطاء، وأصبحوا لا حديث لهم إلا القيل والقال، وانعدم أهم ركن من أركان الخلافة وهو عنصر الثقة بين الحاكم والرعية<sup>(١)</sup>.

لقد ارتفع المجتمع الإسلامي في عهد رسول الله، وفي عهد أبي بكر وعمر إلى درجة الأوج الذي لا تقوى النفوس البشرية على مداومة البقاء عليه، ثم أخذ في التدنّي في عهد

عثمان، حتى أصبح الخليفة في مأزق من كثرة الشاكين والساخطين ووشاية الموتورين، وماذا يصنع في مجتمع هبت عليه ربح التغيير، فنفر في عصر الخلافة، واستناخ في عصر الملك والترف.

وفي خضم هذا التطور الاجتماعي الذي طرأ على المجتمع الإسلامي بعد الفتوحات والثراء الذي عم أفرادَه كانت مشاغبات الدهماء التي حيكت خيوطها ونسجت نخططها وسط هذا الجو المضطرب، فكانت الوشايات بعثمان وولاته، وتأليب الناس عليه في الأمصار، من أجل القيام بثورة ضد الخليفة، وقد لبسوا مسوح الدين، وراحوا ليكون على ما آلت إليه أحوال الأمة في عهد عثمان، وما أصاب المجتمع من ظلم على يد ولاته في الأمصار، وجعلوا من أنفسهم شهداء الواجب في نصره الحق ومقاومة الباطل، وهم في الحقيقة أصحاب هوى ومآرب خاصة، فحينما نتفحص رعوس هؤلاء الثوار نجدهم من الموتورين في عهد عثمان، وكأنهم أرادوا أن يثاروا لأنفسهم من الخليفة الذي وترهم، فهذا "حكيم بن جبلة العبدي"، كان يقيم في البصرة وكان قاطع طريق يصاحب الجيش ثم يخنس عنه ويفر على أهل الذمة، فشكاه أهل الذمة ورؤساء المسلمين إلى عثمان، فكتب إلى ابن عامر والي البصرة أن يجسه ومن كان مثله، فلا يخرجون من البصرة، حتى تأنسوا منهم رشداً، فنجسه وتعقب خبره. وما هو أيضاً "جهران بن إبان" بمصر، رجل موتور من عثمان، كان قد تزوج امرأة في عدتها، ففرق عثمان بينهما وضربه وسيره إلى البصرة، فسعى هناك في وقية بين الوالي ورجل من النساك، وافتضح كذبه عليه، فأخرج من البصرة، وذهب يتردد بين الشام والحجاز ومصر، وما هو "محمد بن أبي حذيفة" زعيم الثائرين في مصر، أقام عليه عثمان الحد؛ لأنه أصاب شراً، وجاءه يطلب منه ولاية فرفض عثمان، وقال له: لست لها أهلاً، رغم أنه قريبه وربيه في داره، وما هو "محمد بن أبي بكر" سئل سالم بن عبد الله عنه: ما دعاه إلى إثارة الناس على عثمان؟ قال: الغضب والطمع، كان محمد من الإسلام بمكان، فغره أقوام فطمع - أي في الخلافة - وكانت له دالة - أي شهرة - فلزمه حق، فأخذ عثمان من ظهره، فاجتمع

الغضب والطمع، ففعل ما فعل، وها هو "كعب بن ذي الحبة" كان يلعب "بالتارنجبات" فبلغ عثمان، فكتب إلى الوليد أن يوجعه ضرباً، فعزّره، وأخبر الناس خبره، فغضب كعب، فكان مع الذين خرجوا على عثمان فحبسه وهاهو "ضايح بن الحرث البرجمي" استعار كلباً من قوم من الأنصار من أجل أن يصيد به الطباء، فطمع فيه فحبسه عنده، فانتزعه الأنصاريون منه قهراً، فهجاهم، فشكوه إلى عثمان، فعزّره وحبسه فمات في الحبس، فغضب ابنه، وصار سيئاً، وخرج على عثمان.

ولقد كان بجوار هؤلاء الموتورين رجل ملاً الحقد على الإسلام والمسلمين قلبه، وهو "عبد الله بن سبأ" كان يهودياً من أهل اليمن، أمه سوداء، فأطلق عليه ابن السوداء، تصنع هذا الرجل الإسلام وانطلق كالسهم في ربوع المجتمع يتنقل بين الأمصار، يريد أن يفسد الدين، ويؤلب المسلمين على الخليفة ويوغر صدور الناس فيثوروا على الخليفة، وتقوض دعائم الدولة الإسلامية التي أذاقته هو وبنى جنسه الهوان، وأخذ يجوب الشام ومصر والبصرة والكوفة، ويلتقي هؤلاء الموتورين، وينفث فيهم السموم حتى أشعلها ناراً تحرق، هذا فضلاً عن إضلاله الناس في أمر دينهم، وتخريبه لمعتقداتهم، فقال بالرجعة لرسول الله، وقال للناس: عجباً وأي عجب ممن يصدق أن عيسى يرجع، ويكذب أن محمداً يرجع، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ وقبلها منه بعض الناس، ثم قال بعد ذلك بالوصاية لعلي، وأظهر التشيع لآل البيت، وقال للناس: إن لكل نبي وصياً، وعليّ وصي محمد، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله، ووثب على عليّ فأخذ منه حقه، يقصد بذلك عثمان بن عفان.

وهكذا تجمعت قوى الشر، ونسجت خيوط المؤامرة على عثمان، وتحرك الثوار إلى المدينة، وتحرك من مصر ستمائة على رأسهم عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر، وعمرو الخزاعي، وتحرك من الكوفة مائتان على رأسهم مالك الأشتر النخعي، وقدم من البصرة مائة رجل على رأسهم حكيم بن جبلة العبدي، أقبلوا جميعهم وكانوا يبدأ واحدة في الشر، يريدون عزل الخليفة أو قتله، فكان الحصار، ثم كانت الفجعة التي روعت الأمة الإسلامية.

## فجيعة المسلمين في مقتل

عثمان بن عفان ؓ

المبحث

الرابع

إذا كان قتل عمر بن الخطاب صدمة هزت كيان الأمة، فإن قتله كان غيلة وبأيدي أئيمة من غير المسلمين، ولكن قتل عثمان كان فجیعة تدمي لها القلوب، فقد قتل على مسمع ومرأى من أصحاب رسول الله ﷺ وقتل بأيدٍ تدعي الإسلام وتلبس مسوح الدين، وأحاط الثوار بالدار من كل جانب، وانتشر خبر الحصار في كل الأمصار، ومع ذلك لم يُمنع عثمان من هؤلاء الأشرار، ولم يرجم أحد شيخوخته، ويا للهول ويا للفجيعة التي زلزلت كيان الأمة، وأصبح مقتل عثمان على هذا النحو وصمة في جبينها مدى الدهر.

لقد صارت المؤامرة في طريقها، وتحرك الثوار نحو المدينة، وتقدموا بمطالبهم، ووجدت الخليفة بالاستجابة إلى مطالبهم ما دامت على الحق، وأرسل في عزل ابن أبي السرح في مصر وتولية من ارتضوه وهو محمد بن أبي بكر، وتوسط الإمام علي، ووعدهم بالنظر فيما طلبوا، وأخذ عليهم العهد بالرجوع إلى أمصارهم في طاعة وهدوء، ولكن يبدو أن الأمر بُيِّتَ بليل، فبعد أن تفرقوا رجعوا مرة ثانية إلى المدينة بحجة أن الخليفة غرر بهم، وأرسل إلى والي مصر كتاباً يأمره فيه بقتل زعمائهم، وجعلوا من هذا الكتاب الشرارة الأولى التي يوقدون بها النار، مع أن عثمان أقسم أنه لم يكتب ذلك الكتاب ولا علم له به، وأرجح الظن أنهم هم الذين فعلوا ذلك وادعوه على عثمان أو علي كاتبه مروان بن الحكم، وقد فعلوا مثل ذلك من قبل فزوروا كتباً على ألسنة عائشة وطلحة والزبير يهاجمون فيها عثمان، ويدعون الناس للخروج عليه، ولم تفلح وعود الخليفة ولا وساطة علي هذه المرة في إرجاعهم، وضمموا على مطالبهم: إما أن يسلم لهم مروان، وإما أن يعزل نفسه من الخلافة وإما القتل، ولم يضعف عثمان، ورفض تسليم مروان؛ لأنه يعلم

أَنَّهُمْ يُزِيدُونَ قَتْلَهُ، وَلَمْ يَتَرَ عَمِيصَ الْخِلَافَةِ الَّذِي أَلْبَسَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، وَرَأَى عَثْمَانَ أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ دَمَهُ لَا مَحَالَةَ، وَأَرَادَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ قِتَالَ هُوْلَاءِ وَمَنْعَهُمْ، وَتَحَمَّسَ كَثِيرٌ مِنْ أَوْلَادِ الصَّحَابَةِ وَوَقَفُوا عَلَى بَابِ الدَّارِ أَمْثَالَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ابْنَيْ عَلِيٍّ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ، وَغَيْرَهُمْ، وَلَكِنْ عَثْمَانٌ رَفَضَ أَنْ تَرِاقَ قَطْرَةٌ دَمٍ بِسَبِيهِ، وَآثَرَ أَنْ يَجُودَ بِنَفْسِهِ عَلَى أَنْ تَرِاقَ قَطْرَةٌ دَمٍ وَاحِدَةً، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ فِي أُمَّتِهِ بِسَفْكِ الدَّمِ، وَبَدَأَ يَلْحَقُ عَلَى كُلِّ مَنْ حَمَلَ السَّلَاحَ مِنْ أَجْلِ نَصْرَتِهِ أَنْ يَلْقَى سِلَاحَهُ قَاتِلًا لَهُمْ: أَنَا شَدَّكُمْ اللَّهُ أَلَا تَهْرَقُوا بِسَبِيٍّ دَمًا، إِنْ أَعْظَمَكُمْ عَنِّي غَنَاءٌ: رَجُلٌ كَفَّ نَفْسَهُ وَسِلَاحَهُ، أَقْسَمَ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا رَجَعْتُمْ لِدِيَارِكُمْ.

وَدَارَتْ مَرَاثِلَاتٌ وَمَنَاطِرَاتٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الثَّوَارِ بَيْنَ لَهُمْ عَظِيمٌ حَزَنُهُ عَلَيْهِمْ، وَخَطُورَةٌ مَا هُمْ مُقَدِّمُونَ عَلَيْهِ وَيَقُولُ لَهُمْ: فَوَاللَّهِ لَنْ قَتَلْتُمُونِي، لَا تَحَابُّونَ بَعْدِي أَبَدًا، وَلَا تَصَلُّونَ جَمِيعًا بَعْدِي أَبَدًا، وَلَا تَقَاتِلُونَ بَعْدِي عَدُوًّا جَمِيعًا أَبَدًا، وَكَثُرَتْ هَذِهِ الْمَنَاطِرَاتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَمَا تَرَكَ شِبْهَةً يَتَعَلَّقُونَ بِهَا إِلَّا بَيْنَ لَهُمْ وَجْهَ الْحَقِّ فِيهَا، وَوَعَدَ أَنْ يَتُوبَ وَيَتَرَكَ عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ الْحَقُّ مِنْ قَوْلِهِمْ، وَلَكِنْ هِيَهَاتَ هِيَهَاتَ، فَالْقَوْمُ مَتَعَطِّشُونَ لِلدَّمِ، وَعَثْمَانٌ رَفَضَ أَنْ يَتَعَطَّشَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ لِيَفْطِرَ مَعَهُ فِي الْجَنَّةِ؛ فَفِي لَيْلَةِ الْيَوْمِ الَّذِي قَتَلَ فِيهِ رَأَى فِي مَنَامِهِ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ لَهُ: (أَفْطِرُ عِنْدَنَا غَدًا يَا عَثْمَانُ) وَيَدْعُو أَنْ الْأَمْرَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى إِهْمَالٍ فِي نَظَرِ هُوْلَاءِ، فَلَا يَدُ مِنَ الْإِنْتِهَاءِ مِنْ مَهْمَتِهِمْ قَبْلَ أَنْ تَرْحَفَ جِيُوشُ الْأَمْرَاءِ مِنَ الْأَمْصَارِ لِنَجْدَةِ الْخَلِيفَةِ، وَرَغِمَ إِنْ جَاحَ عَثْمَانُ عَلَى مَنْ أَرَادُوا نَصْرَتَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى بَيْتِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ وَقَفُوا عَلَى بَابِ الدَّارِ يَمْنَعُونَهُ، وَتَسَلَّقَ الْأَشْرَارُ دَارًا مُجَاوِرَةً لِبَيْتِ عَثْمَانَ، وَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَهُوَ يَتْلُو قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، وَانْدَفَعَ الْجِنَاةَ نَحْوَهُ لِيَقْتَرِفُوا حَرِيمَتَهُمُ الْبَشْعَةَ وَالْمُضْحَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَمَدَّ يَدَهُ لِيَحْمِيَ بِهَا الْمَصْحَفَ فَأَصَابَتْهُ ضَرْبَةٌ أَطَاحَتْ بِكَفِّهِ، فَقَالَ: (وَاللَّهِ إِنَّمَا لِأَوَّلِ يَدٍ خَطَّتِ الْمَقْصَلَ) وَلَكِنَّهَا قُلُوبٌ نَزَعَتْ مِنْهَا الرَّحْمَةُ، فَلَمْ تَرَعُوهَا

لهيئته، ولم ترحم شيخوخته وتلطخ المصحف بدمائه الزكية، وتمدد الجسم الفاني، وصعدت الروح النقية وكانت على موعد مع النبي لتفطر معه في الجنة..

واستراح الشيخ الذي تعب طويلاً، وتحمل من أعباء الأمة في هذه الفترة التي هبت عليها رياح التغيير لطباع الناس وظروف المجتمع، ما تنوء بحمله الجبال، ظل ﷺ صامداً لم يسلم الراية لهؤلاء الأوغاد، حتى لقي الله وهو مرفوع الرأس عالي الهامة، فلم يزع القميص الذي ألبسه الله إياه إلا في الجنة؛ ليستبدل به الفردوس الأعلى، ألا رحمة الله عليك أيها الشيخ الجليل، ليق للأرض جسداً المتخن بالجراح يحتفظ بدم الشهداء وترفرف روحك مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

مات عثمان واستحلوا دمه وذهبوا ثروته، وكان لا بد لهذا الجسد أن يوارى، فدفنوه في "حش كوكب" وهو مكان اشتراه عثمان قبل موته على مقربة من البقيع؛ وكان يستأجر لرجل من الأنصار اسمه كوكب وكان عثمان أول من دفن فيه، قتل يوم الجمعة لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين بعد العصر، ودفن ليلة السبت بين المغرب والعشاء، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة على الأرجح، وتقدم للصلاة عليه جبير بن مطعم، وحمله إلى قبره: نيار بن مكرم، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وأبو جهم بن حذيفة العدوي، وكانت معهم نائلة بنت الفرافصة وأم البنين بنت عيينه، وأنزلوه القبر فألحدوه وتفرقوا.

ألا رحمة الله عليك يا ذا النورين، ألا رحمة الله عليك يا مجهز جيش العسرة، ألا رحمة الله عليك يا من اشترت بئر رومة وجعلتها تفيض على المسلمين ماء عذباً فرائداً، وقد حرموك الماء وأنت محصور، ألا رحمة الله عليك يا من كانت تستحي منك الملائكة، ألا رحمة الله عليك يا مفرج كرب المسلمين حينما جذت عليهم في وقت المسغبة بقافلة كاملة ساومك عليها التجار فأبيت إلا أن تريح ثمنها من الله عز وجل، فجعلتها هي وأحلاسها وأفتابها وما حملته فوق ظهرها صدقة للمسلمين، ألا رحمة الله عليك يا شهيد

الأمة ويا ضيف الجنة، يا من قال لك الرسول: اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض، ألا  
فاخلدي أيتها الروح الشهيدة الزكية في جوار الله راضية مرضية، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ  
الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ ، وسلام  
عليك يا سيدي عثمان في الملأ الأعلى إلى يوم الدين، وجزاك الله عنا وعن ما قدمت  
للإسلام والمسلمين أفضل ما يجزي به عباده الصالحين.

## أسئلة التقويم الذاتي

س١: كان عثمان بن عفان رضي الله عنه ضحية التطبيق الخاطئ لمبدأ (حق الأمة في محاسبة الحاكم) وذلك من ذوي النفوس المريضة، وضح ذلك.

س٢: ضع علامة (✓) أو علامة (x) أمام العبارات:

- ( ) (أ) كان عثمان بن عفان رضي الله عنه به ضعف واستسلام لمن حوله.
- ( ) (ب) زاد عثمان بن عفان رضي الله عنه النداء في الأذان لصلاة الجمعة.
- ( ) (ج) أتم عثمان بن عفان رضي الله عنه الصلاة في الحج:
- ( ) (د) جمع عثمان بن عفان رضي الله عنه الأمصار على مصحف واحد.
- ( ) (هـ) كان لعثمان بن عفان رضي الله عنه معاملة سيئة لبعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

س٣: تكلم عن واقعة استشهاد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

## الخلاصة

\* اسمه: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية  
بن عبد شمس بن عبد مناف - كنية أبي عمرو  
- لقب بذي النورين.  
\* أسلم وهاجر مع الرسول (ﷺ) وحضر  
الشاهد كلها.

\* اشتهر ﷺ بالجلود والسجاء والحياء فكانت  
تستحي منه الملائكة.  
\* كان فقيهاً وعالمًا وله في الإسلام فضل كبير  
جاء في الكتب بعض منها.

\* البيعة لعثمان بالخلافة: رشح عمر عثمان  
للخلافة من بعده، وبايعه الصحابة الكرام  
بالإجماع وتمت له البيعة برضاء المسلمين وبسلام  
دون أي نزاع.

عثمان بن

عفان

ثالث

الخلفاء

الراشدين

ترجمة

عثمان

وبيعته

بالخلافة

## تابع الخلافة

<p>* سياسته: السير بالأمة على سنة رسول الله (ﷺ) ونهج صاحبه أبي بكر وعمر.</p>	<p>ترجمة عثمان ويعتبه بالخلافة</p>	<p>عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين</p>
<p>° الفتوحات في عهد عثمان: (أ) الجبهة الغربية: الفتوحات في إفريقيا - فتح قبرص - فتح حمص. (ب) الجبهة الشرقية: أذربيجان - أرمينية - خراسان سجستان - كرمان - البصرة -</p>		
<p>* نظرة في فتوحات عثمان: ١- تأديب المتفردين. ٢- السماح لأصحاب النبي بالاشتراك في الحرب. ٣- ميلاد البحرية الإسلامية. ٤- فتح إفريقية. ٥- الهمار الغنائم.</p>		
<p>* أعماله في الداخل: ١- حل مشكلة قتل عبيد الله بن عمر للهزمزان. ٢- توحيد المسلمين على مصحف واحد. ٣- الحسم مع العمال والولاة على الأمصار. ٤- عمارة المسجد. ٥- العطاء والطعام.</p>		

## المراجع المساعده

- تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ١٤٩، ١٥١، ١١٣، ١٦١، ١٦٤، ١٥٦.
- فتح الباري ج ١٤ ص ٢٨، ج ١١ ص ٢٥٢، ج ١٤ ص ١٩٤، ٢١٢.
- صحيح مسلم ج ٥ ص ٢٦١.
- خلفاء الرسول. أ. خالد محمد خالد ص ٢٩٦، ١٩: ٣٢٤، ص ٣٤٧ - ٣٥٧، ٣٥٩: ٣٦٠.
- ذو النورين، العقاد ص ٤٠، ٨٣، ٨٢، ٦٥، ٢١.
- تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٤٢، ص ٢٢٧ - ٢٣٨، ص ٤٢٢، ص ٣٤٦.
- ٣٦٥، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٦٧.
- التاريخ الإسلامي. أ. محمود شاكر ج ٣ ص ٢٣٠: ٢٣٥.

## الاختبار الجدي للوحدة

س١: يقول البعض أن عمر عين بعضاً من الأسماء التي تصلح لأمر هذه الخلافة وذلك يشكل نوعاً من الانفراد بالقرار، ناقش هذا الكلام في ضوء ترشيح عمر بن الخطاب لعثمان بن عفان رضي الله عنه ضمن غيره للخلافة، موضحاً الأساس الذي تم عليه هذا الترشيح.

س٢: كان لعثمان بن عفان رضي الله عنه منهج وسياسة مع العمال والولاة على الأمصار، وضع ملامح هذه السياسة.

س٣: كان لعثمان بن عفان موقف عظيم بشأن اختلاف الأمصار حول قراءة القرآن فما هذا الموقف.

س٤: اتهم بعض الحاقدين عثمان بن عفان بأن فيه ضعفاً واستسلاماً لمن حوله، ناقش ذلك.

س٥: وضع مدى صحة الشبهات الدينية التي أثارها البعض حول عثمان، واذكر الرد عليها.

س٦: اتهم البعض عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه كان يولي أقاربه، وضع ذلك تفصيلاً بما ينفي ويدفع هذه الشبهة عنه رضي الله عنه.

س٧: كان لعثمان بن عفان رضي الله عنه منهج يختلف عن منهج عمر بن الخطاب فيما يتعلق بالمال العام، والذي جعل منه بعض الحاقدين شبهة أثاروها حول عثمان، وضع ذلك.

- أذكر هذا الاختلاف بين المنهجين، ولماذا أثرت الشبهات حول أحدهما دون غيره؟



علي بن أبي طالب عليه السلام رابع الخلفاء  
الراشدين

الوحدة  
الرابعة

الأهداف الخاصة

\* تتركز الأهداف الخاصة من دراسة الوحدة فيما يلي:

- أولاً: التعرف على ترجمة الخليفة الرابع عليه السلام.
- ثانياً: الوقوف على الجوانب العظيمة في شخصيته وأهمها الشجاعة والعلم والفقہ.
- ثالثاً: التعرف على بيعته بالخلافة وكيف تمت له هذه البيعة.
- رابعاً: التعرف على أعماله في الخلافة وسياسته الداخلية.
- خامساً: الرد على الاتهامات الموجهة إليه عليه السلام.
- سادساً: التعرف على الفتن في عهده والتفسير الصحيح لها:
  - أ - فتنة واقعة الجمل.
  - ب - فتنة واقعة حطين.
  - ج - فتنة النهروان.
- سابعاً: التعرف على استشهاده ووصيته عليه السلام.

## الرسم التوضيحي للوحدة الرابعة

### الوحدة الرابعة

* فجيعة المسلمين: في مقتل علي بن أبي طالب	* الشبهات التي ثارت حوله والرد عليها:	* أعماله في الخلافة:	* ترجمته وبعثه بالخلافة:
- حادث قتله.	- فتنة الجمل.	- سياسة الإمام الداخلية.	- اسمه ولقبه وكنيته.
- وصيته <small>عليه السلام</small> .	- فتنة صفين.	- الاتهامات الموجهة إلى الإمام ونقدها.	- شجاعته ومروءته.
	- فتنة النهروان.		- علمه وفقهه وحكمته.
			- زهده وورعه.
			- بيعته بالخلافة.

# ترجمة الإمام علي عليه السلام وبيعته بالخلافة

المبحث  
الأول

أولاً: ترجمة الإمام علي.  
ثانياً: بيعة الإمام علي عليه السلام.

أولاً: ترجمة الإمام علي:

\* مناقب الإمام علي:

حينما نتحدث عن علي بن أبي طالب إنما نتحدث عن العظمة في أمي صورها؛ لأننا نتحدث عن روعة الجليل الفذ الذي رباه النبي بنفسه وصنعه على عينه، وإذا لم تكن العظمة كما عرفها بنو الإنسان في ربيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وابن عمه سليل بني هاشم أبا وأما، وزوج سيدة نساء أهل الجنة، وحامل الراية يوم خيبر لأن الله يحبه ورسوله، ومن هو من النبي بمترلة هارون من موسى، إذا لم تكن في علي بن أبي طالب ففي من إذن تكون؟، إذا لم تكن فيمن تفجرت ينابيع الحكمة من ثناياه ومن تاه على فرسان العرب بشجاعته ومروءته، ومن كان نموذجاً فذاً في زهده وورعه، فجاءته الدنيا راغمة، فقال لها إليك عني، يا دنيا غري غري، ومن كان يتبه على أقرانه بفقته القرآن والسنة حتى قال عمر: معضلة ولا أبا حسن لها: إذا لم تكن في علي بن أبي طالب ففي من إذن تكون؟ إنه حقاً: علي بن أبي طالب بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، ابن عبد مناف، فهو أول هاشمي من أبوين هاشميين.

إنه سليل بني هاشم، وما أدراك ما بنو هاشم، إن أباه هو أبو طالب، شيخ قريش وسيد جيله، فكان الكل يحبه ويوقره لما بين طياته من نفس كريمة وخلق رفيع، وكان بالنسبة لرسول الله هو المعول الذي تحطم به صلف قريش ضد النبي ودعوته، لقد كان بالنسبة للنبي هو الحصن من أذى قريش، حتى قال النبي ﷺ: ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه، حتى مات أبو طالب (وهو الذي قال للنبي يوماً يشد أزره: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لهم أبداً) إنه أبو طالب عم النبي وكافله، ومريه، وهو أعرف الناس بصدقه وأمانته وطهره، ولذلك حينما رأى علياً يصلي مع النبي لأول مرة، وتقدم علياً لأبيه يخبره بالأمر ويقول له: يا أبت: لقد آمنت بالله وبرسوله، وصدقت ما جاء به واتبعته فأجابه أبوه إنه لا يدعوك إلا إلى خير فالزمه (ليس ذلك فحسب، بل إنه رأى النبي يوماً يصلي، وقد وقف علياً على يمينه، ولح من بعيد ولده (جعفراً) فناداه وقال له: صل جناح ابن عمك وصل عن يساره)، إنه أبو طالب الذي إذا أردنا أن ننفذ إلى عمقه أكثر فما علينا إلا أن نستمع إلى هذه الكلمات التي قالها وهو على فراش الموت يوصي أهله وبنه، وكألفها وثيقة يعاهدهم عليها، فهي نصيحة شيخ يودع الحياة، جمع فيها خيرة الزمن وحكمة القول، وصدق الشعور، فقال لهم: (يا معشر قريش: أوصيكم بتعظيم هذا البيت فإن فيه مرضاة الرب، وقوام العيش، صلوا أرحامكم ولا تقطعوا، فإن صلة الرحم منسأة في الأجل، اتركوا البغي فقد أهلك القرون من قبلكم، يا معشر قريش: أجيئوا الداعي، وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة وشرف الممات، وعليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، ألا وإني أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصادق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، ولقد جاءنا بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان، مخافة الشنآن، وأتم الله لكبي أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل الأطراف، والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، ولكأني به وقد محضته العرب دارها، وأعطته قيادها، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد،

ولا يهتدي بهديه إلا سعد، ولو كان في العمر بقية، لكففت عنه المراهز، ولدفعت عنه الدواهي، ثم التفت إلى بني هاشم وقال: وأنتم يا معشر بني هاشم: أجيوا محمداً وصدقوه، تفلحوا وترشدوا"<sup>(١)</sup>.

إنما حقاً كلمات من نور، سمعه عليّ من أبيه وهو على فراش الموت، ترق بها القلوب، وكأنه يخلع الأمانة من عنقه ويضعها في عنق قومه وبنيه على أن ينصروا محمداً ما كتبت لهم الحياة.

وإذا كان هذا هو والد علي بيهر الأبصار وملاً ذكره الآفاق، فقد كان جده عبد المطلب مضرب الأمثال في السجايا والخير. حتى دعاه الناس "شبية الحمد"، فهو الرجل الذي حفر زمزم، وهو الرجل الذي كان يطعم الناس في السهول، والرحوش في الجبال، وهو رئيس مكة وملازمها، إذا انقطع الغيث استسقوا به، وإذا ضربهم أمر فزعوا إليه، فكان عنده الرأي والأمان، إنه الرجل الذي كان يرى في أفق الغيب بنور الله، فكان يقول لأبي طالب: سيكون لابني هذا شأن فاحفظه، ولا تدع مكروهاً يصل إليه "يقصد بذلك رسول الله ﷺ"، وقد حفظ أبو طالب وما ضيّع، ووعد أباه فوفى علي خير ما يوفى أصحاب السجايا الحميدة.

من هذا الجد وذاك الأب جاء علي بن أبي طالب أول هاشمي من أبوين هاشميين، جاء فأخذ عنهم الفضائل كلها، وورث المكرّمات جميعها، إنه علي بن أبي طالب، الذي إذا ذكر اسمه، ذكر الخير في بوتقته، وذكر المعدن الرضاء في نفاسته، وذكر النقاء والطهر أنقى وأطهر ما عرف بنو البشر بعد رسول الله ﷺ.

وحينما نترجم للإمام علي رضي الله عنه فإنما هي سياحة في روضات نقطف فيها على قدر طاقتنا وليس بقدر ما يستحق الإمام ويوقر، فإن ذلك فوق طاقة الغواص الماهر،

(١) خلفاء الرسول ص ٤٠٢ الأستاذ خالد محمد خالد.

فما بالكم بالفقير العاجز، إنما رحلة قصيرة نعيشها مع الإمام نعتق من رحيقها، ونستشق من نسماؤها الندية مثلاً يحتذى ونوراً يقتدى، أولئك الذين هدى الله بآياتهم اقتده.

### \* نسب الإمام:

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن نضر بن كنانة، وأمه: فاطمة بنت أسد بن هاشم، وقد أسمته أمه باسم أبيها أسد، فسمته "حيدرة" والحيدرة هو الأسد، ولكن أباه غيره، وسماه "عليًا" وبه اشتهر وعرف.

### \* كنيته:

كان يكنى بأبي الحسن أكبر أبنائه من فاطمة بنت النبي ﷺ.

وكناه النبي بأبي الريحانين وهما الحسن والحسين، ذكر جابر بن عبد الله أن النبي قال لعلي: "سلام عليك يا أبا الريحانين، فغن قليل يذهب ركنك، والله خليفتي عليك" فلما قبض رسول الله ﷺ قال علي: هذا أحد الركنين، فلما ماتت فاطمة قال: هذا الركن الآخر.

وكناه النبي بأبي تراب، وكان أحب الأسماء إليه، روى البخاري في الأدب عن سهل بن سعد، قال: إن كان أحب أسماء علي ﷺ إليه "أبا تراب"، وإن كان ليفرح أن يدعى به، وما سماه أبا تراب إلا النبي ﷺ، وذلك أنه غاضب يوماً فاطمة، فخرج، فاضطجع إلى الدار في المسجد، فجاءه النبي ﷺ، وقد امتلاً ظهره تراباً، فجعل يمسح التراب عن ظهره، ويقول: "اجلس أبا تراب"، وفي رواية البخاري ومسلم في الصحيحين: فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه؛ ويقول: قم أبا تراب، قم أبا تراب<sup>(١)</sup>.

(١) صحيح البخاري - فضائل الصحابة - مناقب علي - ج ١٤ من فتح الباري طبعة مكتبة الكليات

## \* لقبه:

إذا كان أبو بكر لقب بالصديق، وعمر لقب بالفاروق، وعثمان لقب بذي النورين، فإن علياً عليه السلام لقب بـ "الإمام" صحيح أن هذا اللقب مستحدث بعد عصر النبوة، وقد يرجعه الكثير إلى قول الشيعة القائلين بالإمامة، لكن علياً أية حال: فقد جرى هذا اللقب على عليّ وذاع وشاع على ألسنة الناس، حتى اختص به علي في التمييز بين الخلفاء الراشدين، فإذا أطلق لفظ الإمام فلا ينصرف إلا إليه.

وهو بحق: إمام في علوم الفقه والشريعة، وإمام في علوم اللغة والأدب، وإمام في علم التوحيد والعقائد، وإمام في القضاء ومعضلات الموارث، بمعنى أن له الهداية الأولى في تقعيد هذه العلوم والمعارف الإسلامية في الصدر الأول.

يقول الأستاذ عباس العقاد - رحمه الله تعالى - في هذا الصدد: "فقل أن سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية، أو العلوم القديمة لم ينسب إليه، وقل أن تحدث الناس بفضيل لم ينحلوه إياه، وقل أن توجه الثناء بالعلم إلى أحد من الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه.. مما يجوز لنا أن نسميه أساساً صالحاً لموسوعة المعارف الإسلامية في جميع العصور، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الإسلامية كلها في الصدر الأول من الإسلام"<sup>(١)</sup>.

## \* حليته:

قال واصفوه وهو في تمام الرجولة: إنه كان عليه السلام ربعة، أميل إلى القصر، آدم - يعني أسمر - شديد الأدمة، أصلع، مبيض الرأس واللحية، طويلها، ثقيل العينين في دمع وسعة، حسن الوجه واضح البشاشة، أعيد كأنما عنقه إبريق فضة، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش السبع الضاري - أي رأس العظم - لا يتبين عضده من ساعده، قد أدبجت إدماجاً، وكان أجرد - أي كبير البطن - ولما عير بذلك قال: إن أعلاه علم وأسفله طعام،

(١) عبقرية علي ص ١٢٤ - ١٢٧ طبعة دار لمحة مصر ١٩٨٩م.

يميل إلى النمنمة في غير إفراط، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها، شثن الكفين، يتكفأ في مشيته على نحو مشية النبي، ويقدم في الحرب، فيقدم مهرولاً، لا يلوي على شيء، كانت له قوة جسمية بالغة الصلابة، فرمى رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا خافل، ويمسك بذراع الرجل، فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس، وكان يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه إلا رجال، ويحمل الباب الكبير يعيي بحمله الأشداء، كما حدث في فتح خيبر حينما حمل باب الحصن وحده، ويصيح الصيحة فتخلع لها قلوب الشجعان<sup>(١)</sup>.

### \* إسلامه:

كان إسلامه ﷺ وهو ابن عشر سنين على الأرجح، فقد ولد في سنة ٢٣ قبل الهجرة، وضمه الرسول إلى حجره وهو ابن ست سنين تقريباً حيث أصاب القحط قريش، وكان أبو طالب فقير الحال كثير العيال، فكلم رسول الله ﷺ أعمامه في معاونة أبي طالب، واقترح عليهم أن يأخذ كل واحد ولدًا من أولاده، لعل ذلك يخفف عنه مؤنة العيش، فلما ذهبوا إليه قال لهم: خذوا من شئتم ودعوا عقيلًا، فأخذ العباس طالبًا، وأخذ حمزة جعفرًا، وأخذ النبي عليًا، وعوضه النبي بحبه له وتعهد له عن حب أبيه ورعايته، فلما بعث النبي ﷺ كان أول من استجاب لدعوته من أهل القبلة هي خديجة بنت خويلد، ثم كان علي من الصبيان، وأبو بكر من الرجال، ثم زيد بن حارثة، فهؤلاء هم أهل السبق في الإسلام ﷺ.

وترعرع علي في بيت النبوة، ولحل من آدابها، ووصقله القرآن وهو يتزل على قلب النبي فيقرأه غصًا طريًا في الصلاة، وخلفه على يشرب ويرتوي، وينمو ويكبر مع القرآن، وكان ابن الوحي، أو ربيب القرآن، فما سمع منذ أن وعي سوى القرآن، ونأت به الأقدار

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ١٦ - وعقبية علي للعقاد ص ٨.

عن لوثات الجاهلية، وصخب الحياة الالهية، فما سجد لصنم قط، ولا شئف أذنه يلهو أو صخب كعادة الغلمان في الجاهلية، وإنما ادخر الله أذنه للقرآن منذ أن نزل حتى انتهى، فكان بحق: الخبير به، العالم بما فيه حتى قال: سلوني عن أي شيء في القرآن، فوالله ما من آية فيه، إلا وأنا أعلم أين نزلت ومتى نزلت؟ في ليل أو نهار، في سهل أو جبل.

ولم يجد على معاناة في إسلامه، فحينما رآه أبوه يصلي خفية وراء الرسول قال له أبوه: أما إنه لا يدعوك إلا إلى خير فالزمه، وأقره أبوه على إسلامه بلا خوف ولا ضرب، فقد كان الرجل صادق الحس، نقي الفطرة، يعلم أن ما جاء به ابن أخيه هو الحق.

وإذا جائز لنا أن ننسى فيجب ألا ننسى ذلك الموقف لابن العشر سنين حينما دعا النبي قومه إلى طعام صنعه وعرض عليهم الإسلام وطلب منهم النصرة على تبليغ دعوته وقال لهم: من ينصرتني حتى أبلغ دعوة ربي؟ وما أجاب أحد، وعلا المجلس وجوم وصمت مطبق، وفي الحال انطلق صوت يدوي بالصدق والحماس، إنه صوت علي، صوت ابن العشر سنين فقال: أنا نصيرك يا رسول الله، فضحك القوم ضحك الجهل والاستكثار، وما علموا، ولا دروا أنه كذلك، وأنه نصير النبي ونصير دعوته، فدا النبي بروحه، وفدا الدعوة بشجاعته وبطولته المنقطعة النظير، ﷺ.

### \* شجاعته وهروءته:

\* لقد كان ﷺ مضرب الأمثال في الشجاعة والتزال، فلم يصارع أحدًا إلا صرعه، ولم ينازل أو يبارز أحدًا إلا قتله، وما أصدقه من وصف، بل وما أعظمه من وسام يضعه النبي الكريم على صدر علي حينما يقول: لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي".  
وما أكثر الوقائع والأحداث التي تسجل البطولات النادرة لعلي بن أبي طالب ﷺ.  
\* لقد رصدته النبي ليلة هجرته لمهمة دوئها الموت، حيث أمره أن يبيت في فراشه حتى الصباح ثمويهاً على المشركين، وقبلها البطل. رغم كل النتائج المتوقعة، ومن أولها

الموت حثيًّا وغيظًا لفرار النبي من قبضتهم وعمويه عليّ عليهم، نام الفتي وكله ثقة وشجاعة واطمئنان لقول النبي له: لن يخلص إليك منهم شيء تكبره، وقد كان.

\* حينما كان يوم الخندق، وجاءت قريش ومعها قبائل العرب بحافلها وفرسانها الأوتاد، ولما أعياهم الخندق عن الهجوم، وقف فارس الجزيرة العربية "عمرو بن عبد ود" والذي كان يقوم أو يوزن بألف رجل عند أصحابه وأعدائه، يم هذا الفارس وجهه نحو ثغرة في الخندق ينفذ منها، وصاح بأعلى صوته: من يبارز؟ فصاح علي: أنا له يا نبي الله، قال له النبي: إنه عمرو، اجلس، ثم عاد عمرو ينادي: ألا رجل يبارز؟ وأخذ يسخر منهم قائلاً: أين جتكم التي زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم؟ أفلا تبرزون إليّ رجلاً؟ فقام علي مرة بعد مرة وهو يقول: أنا له يا رسول الله.

وما أحد غيره يجرؤ على القيام، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة اجلس، إنه عمرو، وعلي يجيئه: وإن كان عمراً، حتى أذن له، فمشى إليه فرحاً مهرولاً، لا يألو علي شيء، ووقف علي أمامه وجهًا لوجه، وقال يا عمرو: إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، فأجابه عمرو: أجل، قال علي: فإني أدعوك إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام، قال عمرو: لا حاجة لي إلى ذلك، قال علي: إذن، فأنا أدعوك إلى التزال، نظر إليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه، وأقبل يسأله: من أنت؟ قال: أنا علي، قال: ابن عبد مناف؟ قال: ابن أبي طالب، فأقبل عمرو عليه يقول: يا ابن أخي، من أعمامك من هو أسن منك، وإني أكره أن أهريق دمك، فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك، فغضب عمرو وأخذته حمية الجاهلية، ونزل من علي فرسه فعقره، وأهوى عليّ بضربة سيف، كانت كما قال الواصفون: كأنها شعلة نار، واستقبل علي الضربة بدرقته، فقدّها السيف وأصاب رأسه، ثم ضربه علي علي حبل عاتقه، فسقط ونهض وسقط ونهض، وثار الغبار، فما انجلى إلا عن عمرو صريعاً، وعلي يجأر بالتكبير.

لقد كانت شجاعة علي من النوع النادر، كان البعض يراها من القضاء المبرم، وكانت ضربته من المصائب التي لا راد لها، ولا يملك الإنسان لها دفعاً، بل ولا يعاب منازلها إلا يدفعه عن نفسه، ولهذا رأينا أخت عمرو تقول بعد موته على سبيل التأسى:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله      بكيته أبداً ما دمت في الأبد  
لكن قاتله من لا نظير له      وكان يدعي أبوه بيضة البلد

تشير إلى أنما كانت ستعير بقتل أخيها لو كان قاتله غير علي، أما والقاتل علي، فلا سببة، بل هو من الشرف الذي يحوزه المقتول، لأنه نازل علياً قبل موته<sup>(١)</sup>.

\* وفي يوم خيبر بعد أن ردت كتائب المسلمين كتيبة تلو كتيبة أمام حصن خيبر المنيع، ولكن الرسول ﷺ لم يأس أو يجزع، فإذا كانت معضلة فأبو الحسن لها قال الرسول: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، هذا التصريح الذي يغوي كل مسلم فيلهث وراءه: رجل يحبه الله ورسوله حتى قال عمر: والله ما تمنيت الإمارة قط إلا ذلك اليوم، رجاء أن أكون من يحبه الله ورسوله، وتلفت الجميع حينما أصبح الصباح والتقوا برسول الله، كلهم شوق على معرفة ذلك الرجل الذي يحبه الله ورسوله، وكلهم أمل أن يكونوا هو، ولكن الملحمة لها رجالاتها، والمفازة لها بطلها المغوار، نادى النبي على علي: فقال علي الفور: هأنذا يا رسول الله، فقال له: خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك.

وكانت بعينه رمد، فبرئت ببركة ريق النبي ودعائه له، وهرول القائد أمام كتيبته ووقف أمام الحصن ونادى: أنا علي بن أبي طالب، هذا الاسم الذي يروع الأعداء سماعه، وأصابته ضربة أطاحت بترسه من يده، ووجد نفسه بلا درع أمام فرقة مسلحة من حرس الحصن، وعلى الفور أسرع نحو باب الحصن فخلعه وحمله بيديه، ونجار بالتكبير، فإذا بالمسلمين داخل الحصن، وكان الفتح، ونادى النبي ﷺ: "الله أكبر، خربت خيبر"، يقول

(١) عبقرية علي للعقاد ص ١٠.

أبو رافع مولى رسول الله - وكان ضمن كتيبة علي: لقد هممت أنا وسبعة معي أن نحرك هذا الباب من مكانه على الأرض فما استطعنا حقاً، إنها البطولة التي ضنت على بني الإنسان مثلها.

إن الذي يبهز حقاً في شجاعة الإمام عليه السلام: أنها شجاعة الفطرة، شجاعة الأصالة وليست شجاعة الخسة والندالة، لقد كانت شجاعته ومروءته صنوين لا يفترقان، فقد كان عليه السلام يتورع عن البغي، وكان سليم الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال، وقد حفظت لنا وقائع التاريخ نماذج مشرقة في مروءة الإمام علي، حتى كان يلقن المروءة دروساً على أبنائه وأصحابه، فهو لم يبدأ أحدًا بقتال وله مندوحة عنه، وكان يقول لابنه الحسن: لا تدع إلى مبارزة فإن الداعي إليها باغ مصروع، ورأيناه: حينما أراد أن ينزل عمرو بن عبد ود، دجاء أولاً إلى الإسلام، ورأيناه: حينما خرج عليه الخوارج وأجمعوا على قتاله، أشار عليه بعض أصحابه بأن يباغتهم، فقال: لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، ورأيناه: يوم صفين، حينما حبس معاوية الماء عنهم، وتفاوض معه على أن يترك الماء بين الفريقين، فرغض معاوية، واستطاع جنود الإمام أن يخلصوا الماء لهم، ومع ذلك رفض الإمام أن يمنع عنهم الماء، وقال: إنهم بغوا وقد انهزموا ببغيهم، وإنما ينتصر الإنسان بالوفاء لا بالظلم والبغي.

\* رأيناه أيضاً: في صفين أكرم ما يكون إنسان في ساحة قتال، لقد دعا الإمام علي معاوية إلى التزال حسماً للموقف وحقناً للدماء بين الطرفين، وقال له: من سلم من صاحبه كان له الأمر، وأشار معاوية على عمرو بن العاص، فقال له: عمرو، لقد أعذر إليك الرجل، فالعقل، فقال معاوية: تريد قتلي ألسنت تعلم أنه ما نازله أحد إلا قتله، فقال عمرو: أنا أعفيك منها، ونزل هو إلى الميدان، وأصبح عمرو في قبضته، وهو أخطر على الإمام من جيش بأكمله، وضربه الإمام ضربة، أردته على الأرض، وكاد الإمام أن يجهز عليه، ولكن دهاء عمرو، جعله يتكشف أمام علي ويستقبله بعورته اتقاء لضربه، فعلمها

عمرو وهو يعلم مروءة علي، وما أن رأى علي عورته حتى غض بصره، وأغمد سيفه، وتركه ينحو بجياته، يا الله! رجل أخطر على علي من جيش بأكمله، ويصبح في قبضته، وهو على الحق وهم على الباطل، ولكن البطولة ليست ضربة سيف، وإنما هي نفس كريمة ومروءة تدثر بما حتى في أحلك الظروف.

\* ناهيك: عن دستور الأخلاقي في المعارك مع خصومه فكان يقول لهم لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا سترًا، ولا تأخذوا مالا، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

وحيثما كانت وقعة الحمل زار السيدة عائشة، وأكرمها غاية ما يكرم رجل أمه، ولما أخطر عن رجلين من جنوده ينالان من السيدة عائشة، أمر بجلدهما مائة جلدة، وودع السيدة عائشة في سبيلها إلى المدينة، وسار في ركابها أميالا، وأرسل معها من يخدمها ويذود عنها في الطريق، وقيل: إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلدهن السيوف، فلما كانت بالطريق تأفقت، وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي، فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها: إنما نحن نسوة من بني عبد القيس.

هذه هي المروءة أخت الشجاعة توأمان لا ينفصلان في سلوك البطل المغوار علي بن أبي طالب.

وكما قال العقاد - رحمه الله تعالى - : "فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها علي بغير كلفة ولا مجاهدة رأي، وهي التورع من البغي، والمروءة مع الخصم قويا أو ضعيفا على السواء، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال"<sup>(١)</sup>.

(١) عبقرية علي للعقاد ص ١٠.

رحمة الله عليك يا إمام، لقد أعطيت جدك الدرس ويا ليتهم وعوه، ويا ليتنا نعي نحن إذ هم لم يعوا: لقد قلت في صفين حينما سمعت نفرًا من أصحابك يسبون أهل الشام، قلت لهم: "إني أكره أن تكونوا سبائين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقتلتم بدل سيكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به".

ولقد كان ﷺ لا يتكلف في شجاعته، أو في منازلته للرجال، فكان يخرج إلى مبارزته حاسر الرأس، بينما يكون مبارزه مقتنًا بالحديد، وكان لا يتكلف الخضاب، بل يخرج أبيض الشعر واللحية حتى يظن رائيه أنه وهن، بينما لمثل هذه المراقف يخضب الرجال شعورهم ولحاهم، إلهما في الحقيقة شجاعة فطرة، وشجاعة سجية، لا رهنق فيها للنفس، ولا تكلف في تصنعها أمام الآخرين.

### \* زهدده وورعه:

\* لقد كان ﷺ من أزهدي الناس في هذه الدنيا، بل وصفه عمر بن عبد العزيز بقوله: أزهدي الناس في الدنيا علي بن أبي طالب، وروى النضر بن منصور عن عقبة عن علقمة قال: دخلت على علي عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذنتي حموضته، وكسر يابس، فقلت يا أمير المؤمنين: أأأكل مثل هذا؟ فقال لي: "يا أبا الجنوب، كان رسول الله ﷺ يأكل أبيض من هذا، ويلبس أحسن من هذا - وأشار إلى ثيابه - فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا الحق به".

\* وقد كان الزهد سمة ملازمة له حتى بعد الخلافة، فما أن وصل إلى الكوفة، حتى دعى ليتزل في قصر الإمارة، وكان قصرًا شامخًا رحبًا، فأبى ﷺ، وقال: لا حاجة لي فيه، إن عمر بن الخطاب كان يكرهه، وأعرض عنه مدبرًا وهو يقول: قصر الخبال، لا أسكنه أبدًا.

\* وكان يرتدي بعد الخلافة جلباباً اشتراه بثلاثة دراهم، ويركب حماراً تتدلى ساقاه على جانبيه كأنه واحد من فقراء البادية، ويعزم عليه أصحابه أن يركب فرساً يليق بأمر المؤمنين، فيرفض، ويقول لهم: دعوني أهن هذه الدنيا، رضي الله عنك يا علي تقول هذا وتفعل هذا وأنت الخليفة، في الوقت الذي زر كشت الدنيا فيه لجل أصحاب النبي في مصر والشام وسائر الأمصار.

\* لقد كان يضرب المثل في زهده بالقدوة قبل الكلام، فكان يرتدي الثوب الخشن، وحينما يسأله بعض أصحابه لماذا يفعل بنفسه هذا وهو الأمير؟ فيقول: هذا الثوب يصرف عني الزهو، ويساعدني على الخشوع في صلاتي وهو قدوة صالحة للناس كي لا يسرفوا ولا يبدخوا.

لقد كان ﷺ زاهداً، والمال يفيض بين يديه، وهذا هو الزهد الحقيقي، فكانت الدنيا وراء ظهره وليس في قلبه منها شيء، ولم يستمع لنصيحة بعض أصحابه أن يُقَي منه ما يستعين به في حرب خصومه، فيتألف قلوب الناس بالمال، كما يفعل معاوية في الشام، فيرفض بشدة وإصرار ويقول: لا والله لا أبيع ديني بدنياهم أبداً، أتأمروني أن أطلب النصر بالجور، وإمعاناً منه في التخلص من علائق الدنيا يأمر بكس بيت المال وغسله بالماء، ثم يصلي فيه ركعتين، وكأنه بذلك يعلن أمام الأمة أنه ليس من طلاب الدنيا، وأن الخلافة ليست بالنسبة إليه مغنماً كما هي عند غيره، وعاش في خلافته كما عاش في صباه ورجولته مخشوشاً في سبيل الله، وصدق رسول الله ﷺ حينما قال: "أيها الناس، لا تشكوا علياً، فوالله إنه لأحسن في سبيل الله من أن يشكى" (١).

\* والزهد يتبعه التواضع، فكان ﷺ متواضعاً، يمشي في أسواق الكوفة وهو خليفة المسلمين فيرشد الضال، ويعين الضعيف، ويحمل عن الشيخ المسن حاجته، وهو يقرأ قول

(١) أخرجه الحاكم وصححه على أبي سعد الخدري - راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٧٢.

الله تعالى: ﴿ تَلِكِ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلْهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا  
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [التقصص: ٨٢].

وكان يشتري حاجات أهله من السوق ويحملها بنفسه، فإذا انعطف إليه أحد  
ليحمل منه رفض وقال: أبو العيال أحق بحمله.

لله درك أيها الإمام، لقد كنت المثل الأعلى في زهدك في وقت عز فيه الزهد، لقد  
كنت بفعلك قبل قولك البقية الباقية من عصر النبوة، في وقت كاد فيه العصر أن يدبر  
وينقضي، وأصبحت وأمسيت كالشامة البيضاء وسط خيل دهم بهم، وما أصدقها من  
كلمات، بل ما أصدقها من نصائح نطقت بها أفعالك قبل لسانك، وأنت تدعو إلى الزهد  
وترغب الناس فيما عند الله فتقول: "تعلموا العلم تعرفوا به، واعملوا تكذبوا من أهله، ألا  
وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد أتت مقبلة، ولكل واحدة منها بنون، فكونوا  
من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا وإن الزاهدين في الدنيا قد اتخذوا الأرض  
بساطاً، والتراب فراشاً، والماء طيباً، ألا وإن من اشتاق إلى الآخرة، سلا عن الشهوات،  
ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن طلب الجنة سارع إلى الطاعات، ومن زهد  
في الدنيا هانت عليه مصائبها، ألا وإن لله عبادة شروهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، أنفسهم  
عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا أياماً قليلة لعقبى راحة طويلة، إذا رأيتهم في الليل،  
رأيتهم صافين أقدامهم، تجري دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى الله في فكاك رقابهم،  
وأما نهارهم فظمأء، حلماء، بزررة أتقياء، كأهم القداح، ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى،  
وما بهم من مرض، ولكنه الأمر العظيم".

\* ولقد صلى الفجر يوماً بأصحابه في الكوفة، ثم جلس صامتاً فمهموماً، حتى  
حلعت الشمس، فنهض وصلى ركعتين ثم قال والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، فما  
أرى اليوم شيئاً يشبههم، فقد كانوا يصبحون وبين أعينهم آثار ليل باتوا فيه سجداً، يتلون

كتابه، ويتراوحون بين جباههم وأقدامهم، وإذا ذكروا الله مادوا، كما يميد الشجر في يوم  
الريح وهملت أعينهم حتى تبتل ثيابهم".

هكذا يتذكر الإمام، ويأسى على ذلك الماضي الذي ذهب، ويتلفت حوله فلا يرى  
إلا تكالبا على الدنيا، ونسيانا للآخرة.

\* خطب أصحابه يوماً فقال: "إن المضمار اليوم، وغداً السباق، ألا وإنكم في أيام  
أمل، من ورائه أجل، فمن قصر في أمه قبل حضور أجله فقد تخاب عمله، ألا فاعملوا في  
الرغبة، كما تعملون له في الرهبة، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها ولا كالنار نام هارتها،  
ألا وإن من لم ينفعه الحق ضره الباطل، ومن لم يستقم ه الهدى، حاد به الضلال، ألا وإن  
الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك  
قادر، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فإن اتباع الهوى يصد عن  
الحق، وإن طول الأمل ينسي الآخرة".

لقد كان الزهد سجيته، والتواضع شيمته، والخوف من الله رائده، يفتح قلوب  
الناس بالعظة البليغة، ويصور لهم الجنة والنار كأنهم فيها، ويفرس في أصحابه تقوى الله عز  
وجل.

فكان يقول لهم: ألا وإنكم ملاقو القوم غداً، فأطيلوا الليلة قيامكم وصلاتكم،  
وأكثروا تلاوة القرآن، وسلوا الله الصبر والعفو والعافية.

وكما يقولون: الفضل ما شهدت به الأعداء، فقد حدث أن سجلت صفحة  
خالدة، ورسمت صورة معبرة عن الإمام علي؛ أمام معاوية بن أبي سفيان فقد طلب معاوية  
من ضرار الصدائي يوماً أن يصف له علياً، فقال: اعفني يا أمير المؤمنين، قال: لتصفته،  
قال: كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من  
جوانبه، وتنطق الحكمة من نواصيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس إلى الليل  
ووحشته، وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما

خشن، كان فينا كأحدنا، يجينا إذا سألناه، ويتبنا إذا استباناه ونحن والله مع تقريه إيانا، وقربه منا، لا نكاد نكلمه هية له، يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين، ولا يطمع القوى في باطله، ولا يأس الضعيف من عدله.

وأشهد لقد رأيت في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، قابضاً على لحيته، يتململ تملل السقيم، ويكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غري غري، إلي تعرضت أم إلي تشوقت؟ هيهات هيهات، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك كبير، آه آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق، فيكي معاوية وقال: يرحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك.

### \* علمه وحكمته:

إذا كنا قد رأينا الإمام عابداً يشتهي العبادة، ويجد في القرب من الله لذته وراحته، إذا كان قد أحسن الإسلام عبادة وعملاً، فقد أحسن والله كذلك الإسلام فقهاً وعلماً، فكان بحق فقيه الأمة، وعالمها بالقرآن والسنة، وكيف لا؟ وهو الذي تربي في بيت النبوة، وكيف لا؟ وهو ربيب الوحي، وكيف لا؟ وهو الذي ادخره الله ربع قرن بعد وفاة النبي بعيداً عن مشاغل الخلافة، ليكون فقيه الأمة وقاضيها، ومرجع المشورة في كل أمر حزبها أو استعصى على خلفائها وأمرائها، ويرحم الله أبا بكر حينما كان يقول له: أفنتا يا أبا الحسن، ويرحم الله عمر حينما كان يقول: لولا عليّ لهلك عمر.

\* لقد سئل عليه السلام: ما لك أكثر أصحاب رسول الله حديثاً؟ فقال: "إني كنت إذا سألته أنبأني، وإذا سكت ابتدأني" هكذا كان الرسول يتعهد بالعلم، وكأنه يعدّه ليكون حارس الأمة بعده في أمور دينها.

وكان علمه علم الواثق المطمئن، الذي أشرب نور العلم، ونهل منه حتى الثمالة، فكان يتكلم كلام الحصيف الخبير، يقول عن نفسه: "سلوني عن كتاب الله، فوالله ما

نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت، وأين نزلت؟ وعلى من نزلت؟ وإن ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً ناطقاً" وفي رواية "ولساناً سئولاً".

لقد كان يرى نفسه أولى بالخلافة بعد رسول الله لأنه مستكمل عدتها، وعدة الخلافة في نظره، يكون على قمتها الفقه في الدين، والعدل بين الناس، ومن غيره أولى بالفقه في دين الله وتحري العدل بين الناس؟ لقد جرى حوار بينه وبين بعض الصحابة وعلى رأسهم أبي بكر وعمر فقال: "إنكم تدفعون آل محمد عن مقامه ومقامهم في الناس، وتتكرون عليهم حقهم، أما والله لنحن أحق منكم بالأمر ما دام فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنة رسول الله، المصطلع بأمر الرعية، القاسم بينهم بالسوية". وهو مع ثقته بنفسه، ورؤيته بأنه أحق الناس بهذا الأمر بعد رسول الله إلا أنه لم ينكر لأبي بكر وعمر وعثمان فضلاً، وكان بجوارهم بنصحه ومشورته وفتاويه، بل كانت فتاويه هي المرجع لهؤلاء الخلفاء الذين سبقوه.

أخرج ابن سعد عن سعيد بن المسيب قال: كان عمر بن الخطاب يتعوذ بالله من معضلة ليس فيها أبو الحسن، وأخرج أيضاً عن عائشة أن علياً ذكر عندها فقالت: أما إنه أعلم من بقي بالسنة.

وقد روى له عن رسول الله ﷺ خمسمائة وستة وثمانون حديثاً، وروى عنه بنوه الثلاثة: الحسن، والحسين، ومحمد بن الحنفية، كما روى عنه من الصحابة أيضاً ابن مسعود وابن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، وأبو موسى، وأبو سعيد، وزيد بن الأرقم، وجابر بن عبد الله، وأبو أمامة، وأبو هريرة، وخلائق من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين.

\* وذكر السيوطي في تاريخه قال: أخرج البزار، والطبراني في الأوسط عن جابر ابن عبد الله، وأخرج الترمذي، والحاكم عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ: "أنا مدينة العلم، وعلي باهما"، وقد عقب السيوطي على هذا الحديث بقوله: هذا حديث حسن على

الصواب، لا صحيح كما قال الحاكم، ولا موضوع كما قاله جماعة منهم ابن الجوزي والنووي<sup>(١)</sup>.

وكانت غزارة علمه ترجع إلى ارتباطه بالقرآن حفظاً وتدبراً، حتى وجدناه يقول: الفقيه كل الفقيه، من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخض لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره؛ لأنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فهم معه، ولا قراءة لا تدبر فيها" أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن<sup>(٢)</sup>.

\* ويوضح ذلك أكثر ما أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: عليّ مع القرآن، والقرآن مع عليّ، لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض<sup>(٣)</sup>.

فكانت ثقافته ثقافة قرآنية، كان بحق تلميذ القرآن، يعيش به ليله ونهاره، يتدبر آياته، ويستكشف أسرارها، ويأخذ منه شواهد العظمة والإبداع في حديثه عن الكون والحياة والخلق، وما أكثر ما تعلم من القرآن ووعى، حتى إذا ما تحدث عن مخلوق من مخلوقات الله كالطير، والنمل، والنحل، والطاووس، والخفاش، والأجنة في الأرحام، والزرع، والسحاب، والرعد والبرق، وغير ذلك من صنوف المخلوقات، كان حديثه عنها حديث الواعي الخبير، فأبرزها في وصفه لها كأدق ما يصف علام خبير، ويجعلها تنطق بدلائل العظمة في خلقتها، وشواهد الربوبية والوحدانية في صنعتها على هذا النحو القريد، يقول عن الخفاش: "ومن لطائف صنعته، وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء، ويسطها الظلام القابض لكل

(١) راجع هذه النقول كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٧٠، ١٧١.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٨٧.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٧١.

حي، وكيف غشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تكتدي به في مذهبها.. فسبحان من جعل لها الليل نهاراً ومعاشاً، والنهار سكناً وقراراً، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الأذان، غير ذوات ريش ولا قصب.. تطير وولدها لاصق بما لاجئ إليها، يقع إذا وقعت، ويرتفع إذا ارتفعت، لا يفارقها حتى تشتد أركانه، ويحملة للنهوض جناحه، ويعرف مذاهب عيشه، ومصالح نفسه، فسبحان الباري لكل شيء على غير مثال، خلا من غيره<sup>(١)</sup>.

لقد ارتبط الإمام بالقرآن والسنة فكان - كما ذكرنا - نابغة زمانه وفريد عصره، وبلغ من فرط ثقته في علمه، أنه كان يرى اجتهاده كافياً، وأنه يستشار ولا يستشير لأن عنده ما يكفيه، فعندما عتب عليه خصماه طلحة والزبير، في أنه ترك مشورتهم قال: نظرت في كتاب الله وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استن النبي ﷺ فاقتديته؛ فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما، ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما".

إنها ثقة العالم فيما عنده، وليست ثقة الجاهل المتغطرس، إنها ثقة العالم الذي ارتبط بالقرآن والسنة فاستغنى بهما عن سواهما، لكنه إذا جهل شيئاً فلن يتوان لحظة عن السؤال، كائنًا من كان الذي يسأله، سواء أكان طلحة والزبير أم غيرهما، وكيف لا، وهو أحرص الناس على العلم.

لقد كان - بحق - معيناً لا ينضب من المعارف والعلوم، جمع بين الفقه والسنة وبين اللغة والأدب، وبين الحكمة والقضاء، إنها العبقرية في أكمل معانيها، إنه موسوعة العصر كما وصفه العقاد في كتابه فقال: "مما يجوز لنا أن نسميه أساساً صالحاً للموسوعة

(١) فتح البلاغة ص ١٧٦، ١٧٧ للشريف الرضي، شرح الشيخ محمد عبده طبعة دار الشعب راجع فتح البلاغة لابن أبي الحديد فما أكثر ما ورد فيه من وصف دقيق للعديد من المخلوقات.

المعارف الإسلامية في جميع العصور، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الإسلامية كلها في الصدر الأول من الإسلام<sup>(١)</sup>.

\* يذكر أبو القاسم الزجاجي في أماليه عن أبي الأسود الدؤلي قال: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فرأيتَه مطرقاً مفكراً، فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعت ببلدكم هذا لحنًا، - يقصد الكوفة - فأردت أن أصنع كتاباً في أصول العربية، فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا، وبقيت فينا هذه اللغة، ثم أتيت بعد ثلاث، فألقى إلي صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، الكلمة اسم وفعل وحرف، فالاسم: ما أنبأ عن المسمّى، والقعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف: ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، ثم قال: تتبعه زد فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر، قال أبو الأسود: فجمعت منه أشياء، وعرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت فيها: إن وأن، وليت، ولعل، وكان، ولم أذكر لكن، فقال لي لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها، فقال: بل هي منها، فزدها فيها<sup>(٢)</sup>.

\* لقد ذخرت كتب التاريخ والتراجم بما يصعب حصره عن عبقرية الإمام، وريادته لصنوف المعارف والعلوم، فكان له تأويلاته الوفيرة في تفسير كتاب الله، وكان له الكثير والكثير في مسائل الفقه والفتوى، وكانت له الأقتضيات العديدة التي تنم عن عبقريته في القضاء، وكانت له البلاغة أوفر ما تكون لأحد، فنطق بالحكمة، وجمع المعاني الكثيرة في كلمات قليلة موجزة.

أخرج ابن عساکر عن علي أنه قيل له: ما السخاء؟ قال: "ما كان منه ابتداء، فأما ما كان عن مسألة فحياء وتكرم".

(١) عبقرية علي ص ١٢٧.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٨١.

وقال: "من أراد أن ينصف الناس من نفسه، فليحب لهم ما يحب لنفسه".  
وأخرج سعيد بن منصور في سننه عن علي قال: خمس خذوهن عني: لا يخافنَّ  
أحد منكم إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه، ولا يستحيي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحيي  
من لا يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم، وإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس  
من الجسد، إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان".

ومن المأثورات عنه: "كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع"،  
"نفس المرء خطاه إلى أجله"، "إذا وهبت أمراً فقع عليه، فإن شدة توقيه أعظم مما تخالف  
منه"، وكان يقول: "من نصب نفسه للناس إماماً، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره،  
وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم  
الناس ومؤدبهم"، "التقريب من قريبته المؤدبة وإن بعد نسبه، والبعيد من باعدته العداوة وإن  
قرب نسبه، ولا شيء أقرب من يد إلى جسد، وإن اليد إذا فسدت قطعت، وإذا قطعت  
رخصت" (١).

\* وكان ﷺ في القضاء أفضى أهل زمانه، ولم يكن هناك من هو أفضى منه وأقدر  
على إخراج الأحكام من القرآن والسنة، وكان عمر بن الخطاب إذا استعصت عليه  
مسألة، قال: معضلة ولا أبا حسن لها، وكان يقول: "أفضانا عمي"، وقال ابن مسعود:  
كننا نتحدث أن أفضى أهل المدينة: علي بن أبي طالب.

جاء إلى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشبهه في حملها، فاستفتى الإمام، فأفتى  
بوجوب الإبقاء عليها حتى يتبين حملها، فإذا كان، حتى تضع جنينها، وقال له: إن كان  
لك سنطان عليها فلا سلطان لك على ما في بطنها".

واتتزع المرأة من أيدي المؤكدين بإقامة الحد عليها، وسأته عمر، فقال: أما سمعت  
النبي يقول: رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن

(١) تاريخ الخلفاء لسيرافي ص ١٨٦.

المبتلي حتى يعقل، قال: بلى، قال: فهذه مبتلاة بني فلان، فلعله أتاها وهو بها، قال عمر:  
لا أدري، وأنا لا أدري فترك رجها للشك في عقلها.

وكان عليماً بأدوات الفقه كعلمه بنصوصه وأحكامه، فكان خبيراً بعلم الحساب مما  
جعلته يتصرف في معضلات الموارث وكأنه الخبير الأوحيد فيها، جاءته امرأة تشتكي  
وقالت له: إن أخي مات عن ستمائة دينار، ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد، فقال  
لها: لعله ترك زوجته وابنتين وأما واثنى عشر أخاً وأنت؟ قالت هو ذاك.

وسئل يوماً في أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين، فأجاب من فوره:  
صار ثمنها تسعاً، وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنثرية لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة.  
وفي هذه الإجابات: دليل على الذكاء وسرعة البديهة، فضلاً عن الدلالة الظاهرة  
على العلم بالموارث والحساب<sup>(١)</sup>.

هذه نبذة يسيرة نقتطفها من بين بستان كبير، امتلأت أركانها بالعلم والمعرفة، حتى  
غدا صاحبها جديراً بهذا اللقب الذي أصبح صفة ملازمة له، فإذا ما أطلق لا يتصرف إلا  
إليه، إنه "الإمام" حقاً إنه الإمام في الورع، والإمام في الزهد، والإمام في الفقه، والإمام في  
القضاء، والإمام في الأدب والكلام البليغ، والإمام في علم الموارث والحساب، إنه في  
كلمة موجزة كان موسوعة عصره، فرضي الله عنه وأرضاه.

## ثانياً: بيعة علي عليه السلام:

لقد ذكرنا فيما سبق كيف كانت فجيرة الأمة في مقتل عثمان عليه السلام وكان محل  
الفجيرة حقاً، أن يقتل عثمان محصوراً في داره، وسط أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة،  
فلم يؤخذ علي غرة كما أخذ عمر، وإنما قتل علي مسمع ومرأى من أهل المدينة، وكانت  
شواهد هذا المصير واضحة جلية أمام ولاته على الأمصار في كل مكان.

(١) عبقرية علي للعقاد ص ١٢٨، ١٢٩.

فقد خرج الثوار من مصر ومن الكوفة ومن البصرة يريدون عثمان، ولا يمكن أن يغيب ذلك عن ولاية أمصارهم - خاصة - وقد اجتمع بهم عثمان واستشازهم في كيفية دفع هذا الخطر.

لقد قتل الشيخ بأيدٍ أئيمة بلا شك، مهما كان ادعاؤها في حماية الأمة ووجوب تغيير المنكر، ومهما ليسوا من مسوح الدين والرهبانية.

ومهما كانت الأخطاء التي أدت إلى هذا المصير، سواء كانت من الخليفة نفسه، أم من ولاته على الأمصار، أم بسبب سلبية الصحابة في المدينة، أم كانت رد فعل لبعض التجاوزات التي حدثت في الأمصار، أم كانت تشفيًا لبعض الموتورين - كما أشرنا من قبل - سواء كان ذلك أم غيره، فإن الخليفة قد قتل، وهذا بدوره سابقة خطيرة في حياة الأمة الإسلامية، ومؤشر خطير ينبئ عن التغيير الذي لحق بالمجتمع الإسلامي بعد عصر النبوة.

والذي يعيننا هنا في هذا المبحث على وجه الخصوص هو ما آل إليه أمر الأمة بعد مقتل الخليفة، ومن الذي كان ينتظر هذا المصير ويشرب بعنقه يتطلع إلى هذا الأمر بعد مقتل سيدنا عثمان؟ ومن كان الذي ينتظره المجتمع ويبحث عنه ليلسلمه الراية، ويقلده منصب الخلافة؟

لا شك أن الأمر بعد عثمان، كان بين اتجاهين، أو إن شئت قلت بين رجلين: رجل يطلب الخلافة ويتطلع إليها وقد يقاتل من أجلها إذا لزم الأمر، ورجل تطلب الخلافة ويحمل عليها كارهاً، أو يقبلها مضطراً.

وأين علي من ذلك؟ هل كان يتطلع إلى الخلافة في ذلك الوقت؟ وهل كانت له مصلحة في مقتل عثمان؟ أو علي حد تعبير خصومه: هل أعان على مقتل عثمان؟ إن لم يكن السبب في ذلك؟

حاشا لله أن يكون الإمام كذلك، وهو من هو في سابقة الدين، وقمة الزهادة والورع، إننا هنا: نستنطق الروايات لتبيننا عن الحقيقة في موقف الإمام علي عليه السلام فقد جاء في رواية شداد بن أوس: أن علياً عليه السلام، خرج من منزله يومئذ معتمداً بعمامة رسول الله متقلداً سيفه، أمامه الحسن وعبد الله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار، حتى حملوا على الناس وفرقوهم، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه علي، وقال - بعد تمهيد وجيز - : لا أرى القوم إلا قاتلك، فمرنا فلنقاتل، فقال الخليفة: أنشد الله رجلاً رأى لله حقاً، وأقر أن لي عليه حقاً، أن لا يهريق في سبي ملئ محجمة من دم، أو يهريق دمه في، فأعاد علي القول، فأعاد عليه هذا الجواب، ثم خرج من عنده إلى المسجد، وحضرت الصلاة فتأدوه: يا أبا الحسن، تقدم فصل بالناس، فقال: لا أصلي بكم والإمام محصور، ولكن أصلي وحدي، ثم صلى وحده وانصرف إلى منزله، وترك ابنه مع أبناء زمرة من الصحابة في حراسة دار الخليفة.

إلا أن الثوار علموا أنهم مأخذون بالانتظار، مغلوبون بالمطاولة، فتسوروا الدار، وولعوا في دم ظهور فسفكوه.

ونقل الخبر إلى علي، فقال على الفور: تبا لكم آخر الدهر، وأسرع إلى دار الخليفة المقتول، فلطم الحسن، وضرب الحسين، وعتب على محمد بن طلحة، وعبد الله بن الزبير، وجعل يسأل ولديه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتم على الباب؟ فأجاب طلحة: لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن، لو دفع مروان ما قتل<sup>(١)</sup>.

ومرة أخرى نستمع إلى ما أخرجه ابن عساكر عن الحسن قال: لما قدم علي البصرة، قام إليه ابن الكواء، وقيس بن عباد، فقالا له: ألا تحزننا عن مسيرك هذا الذي سرت فيه، تتولى على الأمة، تضرب بعضهم ببعض؟ أعهد من رسول الله ﷺ عهده إليك؟ فحدثنا فأنت الموثوق المأمون على ما سمعت، فقال:

(١) عفرية علي ص ٤٦، ٥٣.

"أما أن يكون عندي عهد من النبي ﷺ في ذلك فلا، والله لئن كنت أول من صدق به، فلا أكون أول من كذب عليه، ولو كان عندي من النبي ﷺ عهد في ذلك ما تركت أخا بني عُمير بن مرة، وعمر بن الخطاب يقومان على منبره، ولقاتلتها بيدي، ولو لم أجد إلا بردي هذا، ولكن رسول الله ﷺ لم يُقتل قتلاً، ولم يمِت فجأة، مكث في مرضه أياماً وليال، يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس، وهو يرى مكاني، ولقد أرادت امرأة من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر، فأبرى وغضب وقال: أتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر يصلي بالناس، فلما قبض الله نبيه ﷺ، نظرنا في أمورنا فاخترنا لدنيانا من رضيه نبي الله ﷺ لدينا، وكانت الصلاة أصل الإسلام، وهي أمير الدين، وقرام الدين، فبايعنا أبا بكر، وكان لذلك أهلاً، لم يختلف عليه منا اثنان، ولم يشهد بعضنا على بعض، ولم تقطع منه البراءة، فأديت إلى أبي بكر حقه، وعرفت له طاعته وغزوت معه في جنوده، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي، فلما قبض تولها عمر، فأخذها بسنة صاحبه، وما يعرف من أمره، فبايعنا عمر ولم يختلف عليه منا اثنان، ولم يشهد بعضنا على بعض، ولم تقطع منه البراءة فأديت إلى عمر حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جيوشه، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي، فلما قبض، تذكرت في نفسي قرابتي وسابقتي وسالفتي وفضلي، وأنا أظن أن لا يعدل بي، ولكن خشى أن لا يمل الخليفة بعده ذنباً إلا لحقه في قبره، فأخرج منها نفسه وولده، ولو كانت محاباة منه لآثر بها ولده، فبرئ منها إلى رهط من قريش ستة أنا أحدهم، فلما أصيب نظرت في أمري، فإذا الخليفتان اللذان أخذاهما بعهد رسول الله ﷺ إليهما بالصلاة قد مضيا، وهذا الذي قد أخذ له الميثاق قد أصيب، فبايعني أهل الحرمين، وأهل هذين المصرين، فوثب فيها من ليس مثلي، ولا قرابته كقرابتي، ولا علمه كعلمي، ولا سابقته كسابقتي، وكنت أحق بها منه" (١).

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٧٧، ١٧٨.

إن هاتين الروایتین تجلیان لنا بوضوح موقف الإمام علي عليه السلام؛ وأنه برئ من دم عثمان براءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

وبقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان، وأميرها الغافقي بن حرب، يلتمسون من يجيئهم إلى القيام بالأمر، والمصريون يلحون على علي وهو يهرب إلى الحيطان - أي البساتين - ويطلب الكوفيون الزبير بن العوام فلا يجدونه، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيئهم، فقالوا فيما بينهم: لا نولي أحدًا من هؤلاء الثلاثة، فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص، فقالوا: إنك من أهل الشورى، فلم يقبل منهم، ثم راحوا إلى ابن عبد ربه فأي عليهم، فحاروا في أمرهم ثم قالوا: إن نحن رجعنا إلى أمصارنا يقتل عثمان من غير مرة، اختلف الناس في أمرهم، ولم نسلم، فرجعوا إلى علي فألحوا عليه وأخذ الأشر. بيده أتباعه وبايعه الناس، وكلهم يقول: - لا يصلح لها إلا علي فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر، بايعه من لم يبايعه بالأمس.

وفي رواية الطبري عن السري: أن الثوار هددوا أهل المدينة بالقتل فقالوا لهم: دونكم يا أهل المدينة فقد أجلناكم يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيراً، فغشى الناس علياً، فقالوا نيايئك، فقد ترى ما نزل بالإسلام، وما ابتلينا به (بين القرى) فقال علي: دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، فقالوا: نشدك بالله، ألا ترى ما نرى؟ ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله، فقال: قد أحببتكم لما أرى، واعلموا إن أحببتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم إلا أنني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم..<sup>(١)</sup>

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٣٤.

\* وتمت البيعة لعلي على ملأ من المهاجرين والأنصار وفي حضرة الثوار، فقد بايع أيضاً كل من طلحة والزبير، وقيل إنهما بايعا مكرهين، وكانت بيعة الإمام يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين من الهجرة النبوية الشريفة.

وكانت أول خطبة خطبها بعد الاستخلاف بعد حمد الله والثناء عليه قال: "إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يودكم إلى الجنة، إن الله حرم حراماً غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب... فإن الناس أمامكم، وإن من خلفكم الساعة تحذوكم، تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر الناس أخراهم، اتقوا الله عبادته في عبادته وبلاده، إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، أطعوا الله عز وجل ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه، ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٤١] (١).

وحينما ننظر فيمن اتجهت إليهم أنظار الثوار؛ ليعطوهم البيعة بعد مقتل الخليفة نجدهم خمسة هم: طلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وعلي ابن أبي طالب، وكان علي يعلم تطلع هؤلاء إلى الخلافة - خاصة طلحة والزبير - فاشترط لقبوله البيعة أن يبايع هذان، وقيل اشترط لقبول البيعة أن يبايعه أهل بدر، وفعلاً جاء الثوار بطلحة والزبير فبايعا بحد السيف - أي كرهاً - وقيل إنهما اشترطا إقامة الحدود، والقصاص من قتلة عثمان، فقالوا: نبايع علي إقامة كتاب الله في القريب والبعيد، والعزير والذليل فبايعهم، وامتنع قوم عن البيعة منهم عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري وغيرهم.

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٣٤.

ورغم أن الأمر في هذه الآونة كان يحركه الثوار، أو بمعنى آخر: هم الذين فرضوا الخليفة، إلا أنه بموافقة أهل المدينة من المهاجرين والأنصار على بيعة علي وهو الخليفة، فقد أصبح حتى وإن رفض البعض البيعة، أو بايعوا كرهاً، وأصبح من حقه أن يمارس أعمال خلافته، وأن يوجه سياسة الأمة كما يرى، وأن يتخذ من القرارات ما يراه محققاً لإعادة الأمن والأمان في ربوع الأمة وسائر الأمصار، فيعزل من يشاء، ويولي من يشاء، ويتصرف في بيت المال كما تتطلبه تبعات الخلافة وكما يرى هو، لا كما يحلو للناس.

وبدأ الإمام عليّ على الفور يباشر مهام خلافته، وكان أول شيء فعله هو عزل الولاة الذين كان قد ولاهم عثمان، وإحلال آخرين مكائهم، وكانت وجهة نظره في ذلك: أن هؤلاء كانوا مثار الفتنة وسبب القلاقل، ولن تستقر الأوضاع ويطمئن الناس إلى النظام الجديد إلا بعزل هؤلاء، وحينما روجع في ذلك وأشار إليه ابن عمه "عبد الله بن عباس" أن يترث في ذلك حتى تستقر الأوضاع، ويأخذ الخليفة البيعة منهم في الأمصار خاصة معاوية ثم بعد ذلك يفعل بهم ما يشاء، لكنه عليه السلام، أصر على موقفه وقال: لا والله لن يراني الله متخذ المضلين عضداً.

وأرسل عليّ الفور ولاته الجدد إلى الأمصار وهم:

عثمان بن حنيف إلى البصرة، وعمارة بن حسان إلى الكوفة، وعبيد الله بن عباس إلى اليمن، وقيس بن سعد بن عبادة إلى مصر، وسهيل بن حنيف إلى الشام، وكلهم تسلم عمله إلا سهيل بن حنيف والي الشام، فما أن وصل إلى تخوم الشام حتى استقبلته فرقة من جيش معاوية فحالت دون دخوله البلاد.

**\* وبدأ من هنا الصراع بين علي ومعاوية:**

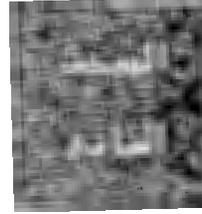
وفوجئ الخليفة كذلك بأن الذي شرد عليه ليس معاوية فقط، وإنما خرج طلحة والزبير ومعهما عائشة أم المؤمنين بجيش إلى البصرة يتبعون قتلة عثمان، بدون إذن ولا

مراعاة لأمر الخليفة فقد شردوا كذلك على الخليفة وأعلنوا العصيان، وأصبح الأمر يتطلب من الخليفة وقفة حاسمة مع هؤلاء، وإلا انتقلت الزمام من يده، وضاعت هبة السلطان وسقطت الخلافة كما فعل بعثمان، وكان لعلي مع هؤلاء ما سنوضحه فيما هو آت في مبحث الفتن التي حدثت في عهد علي بمشيئة الله تعالى.

## أسئلة التقويم الذاتي

- س ١: لعلي بن أبي طالب عليه السلام مناقب عديدة اذكر بعضاً منها.
- س ٢: كان علي بن أبي طالب عليه السلام يكنى بأكثر من كنية، اذكر ذلك.
- س ٣: لقب علي بن أبي طالب عليه السلام بلقب الإمام رغم أن ذلك اللقب لم يظهر في عصر النبوة، وضح ذلك مع بيان السبب.
- س ٤: اشتهر علي بن أبي طالب بالشجاعة والبرورة وكان ذلك واضحاً في مواقف كثيرة عدد بعضاً منها.
- س ٥: كان علم علي بن أبي طالب وحكمته من أبرز ما ظهر في شخصيته العظيمة، دلل على ذلك.
- س ٦: كانت البيعة لعلي بن أبي طالب بعد عثمان بن عفان، وضح كيف تمت البيعة له.

## أعماله في الخلافة



- أولاً: سياسة الإمام الداخلية.  
ثانياً: الاتهامات الموجهة إلى الإمام ونقدتها:
- ١- عزل معاوية.
  - ٢- معاملة طلحة والزبير.
  - ٣- عزل قيس بن سعد عن ولاية مصر.
  - ٤- عدم تسليم قتلة عثمان.
  - ٥- قبول التحكيم في صفين.
  - ٦- قبول الخلافة.

لقد جرت عادتنا عند الكتابة في مثل هذا المبحث في حياة كل خليفة مما سبق، أن نقسمه إلى قسمين: قسم ندرس فيه السياسة الخارجية، ونعني بها: أمر الجهاد مع العدو، وتأمين حدود الدولة الإسلامية، ومواصلة الفتوحات شرقاً وغرباً.

وقسم آخر ندرس فيه السياسة الداخلية، ونعني بها: بيان منهج الخليفة في سياسته مع الرعية: من تولية الولاة، وتوزيع العطاء، وتحقيق العدل، ووضع الخطط والضوابط لرعاية مصالح الأمة في دينها وفي دنياها: كمرعاة أمر الزراعة والصناعة والتجارة، ونظام الضرائب والخراج والإقطاعات وغير ذلك.

ولكن الأمر هنا في عهد الإمام علي عليه السلام يختلف عنه في العهود السابقة، فمنذ أو ولي الإمام الخلافة، وهو في صراع مع خصومه الداخليين، الذين تألبوا عليه ورفضوا البيعة له، أو نقصوا بيعتهم له، فكان شيئاً طبيعياً أن تنصرف جهود الإمام إلى توحيد الصف

الممزق، وجمع الكيان المبعثر، وتوطيد أركان خلافته، حتى تستقر الأمور، ويُتحقق الأمن الداخلي أولاً، ولهذا وجدناه لم يفرغ لمهمة القتال في الخارج ومواصلة الفتوحات، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن الأمور كانت هادئة على الحدود الخارجية، وكان أعداء الدولة الإسلامية قد أصابهم الوهن من كثرة الحروب السابقة مع المسلمين، وأحدثت بهم مخاوف الإغارة على الدولة الإسلامية أو نقض العهود معها، وربما أغرقتهم الفتنة الداخلية بين الخليفة وخصومه إلى الانتظار. وعدم استعجال النتائج، فربما أكل بعضهم بعضاً ويعنيهم ذلك من مهمة القتال الشاقة مع المسلمين.

وما كان من مناوشات في هذه الفترة على الحدود، فهي مناوشات خفيفة قامت بما الدولة الرومانية، وقابلتها معاوية أمير الشام بالجلد والأناة، وأخاضه ببعض الإتاوات ريثما تعود الأمور إلى نصابها وترسو السفينة إلى بر الأمان.

وعلى ذلك: فلا توجد في خلافة علي سياسة خارجية، فلم يكن في عهده فتوحات ولا مفاوضات، ولا جيوش تحركت هنا أو هناك عنى الحدود الخارجية، وإنما كل ما نجده في عهد الإمام هو ما كان من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه من تولية الولاية ونظامه في العطاء وفي سياسة بيت المال، وتوجيهاته لعلمائه على الخراج والضرائب وغير ذلك من التنظيمات الداخلية، التي نطلق عليها السياسة الداخلية.

ومن هنا: سيكون حديثنا في هذا المبحث قاصراً على تتبع خطا الإمام في سياسته الداخلية وما وضعه من تنظيمات وتشريعات جديدة، تميز بها عهده في الخلافة عن غيره.

## أولاً: سياسته الداخلية:

بداية نحب أن نقول: إن كل من عرف الإمام علياً، يستضئ ببساطة شديدة أن يتبين منهجه في سياسة الرعية، فماذا ينتظر من إمام زاهد عادل حازم، غير أن يحقق العدل والمساواة بين رعيته ويأضهرهم على الحق أطراً، فلا هوادة عنده في نصرة الحق، ودحض

الباطل مهما كانت قوته، ولا محاباة لقريب أو حبيب، ولا مواربة وخذاعاً في سياسته، وليس له مطمع في مال أو جاه دنيوي، وإنما غايته أن يسير بالرعية كما سار بها رسول الله وصاحبه من بعده، وأن يعود بالمجتمع إلى عصر الخلافة من جديد، بعد أن تباعد عنها في أخريات حياة عثمان رضي الله عنه، ولهذا رأيناه يبدأ على الفور في تنفيذ ما يأتي<sup>(١)</sup>:

١- رد القطنع التي وزعت قبله: أي في عهد عثمان - على المقرين والأمراء، فاتترعها من بين أيديهم، وزدها إلى مال المسلمين، ليوزعها على سنة المساواة لمن يستحقونها، وقال في حزم منقطع النظير: "والله لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الإمام لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فاجور عليه أضيقت".

٢- عزل الولاة الذين استباحوا بيت المال لأنفسهم: وتمرغوا في البذخ والإسراف، وأسخطوا بذلك سواد الناس، وأثاروا حفيظة أهل الورع والدين، فعزلهم وولى أهل الصلاح مكافئهم.

٣- رجع إلى خطة عمر في تجنب الصحابة فتنة الإمارة في الولايات: وحبسهم في المدينة، ومنعهم من الخروج منها، مخافة عليهم، وحرصاً على استقرار الأمور في الولايات، فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن، قال لهما: "بل تبقيان معي لأنس بكما"، وكان في ذلك القرار بعيد النظر فهو يعلم أن خروجهم إلى الأمصار سترتب عليه فتنة؛ لأن الناس سيجمعون حولهم ويتعصبون لهم، فيغروهم بالخروج على الإمام، ولذلك لما أشار عليه عبد الله بن عباس بتولية الزبير البصرة، وتولية طلحة الكوفة، قال له علي: "ويحك، إن العراقيين هما الرجال والأموال، ومتى تملكنا رقاب الناس يستميلان السفية بالطمع، ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوي بالسلطان، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره أو نفعه، لاستعملت معاوية على الشام، ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية، كان لي فيهما رأي".

(١) انظر في ذلك عبقرية علي للعقاد ص ١٠٦ - ١١٣.

وقد صدقت فيهما فِرَاسَة الإمام، فحينما استأذناه للخروج إلى العمرة، قال: إنما ليست بالعمرة بل الغدرة"، ذهب إلى البصرة، وكان من أمرهما ما كان.

٤- رجع إلى سياسة أبي بكر في توزيع العطاء: وجعله بالسوية بين الناس لا فرق بين أهل السبق في الإسلام وبين غيرهم، وقال: "نحن لا نحاسب على الإيمان، إنما يجازيهم الله عن سبقهم ونصرتهم للدين، وإنما نقسم بين الناس في أمور معيشتهم التي يستوي فيها الناس جميعاً"، وكان والله بعيد النظر في هذا الأمر؛ لأن التفاوت في العطاء أوجد فئة فاض المال في يدها، واتجهت إلى البذخ والإسراف، مما أثار حفيظة الفقراء وأهل الورع، فكان في ذلك القرار عود إلى تقريب الطبقات، وتحقيق المساواة بين أفراد الأمة الواحدة.

٥- محاسبته للعمال: فقد أحيا سياسة عمر في شدته مع عماله، ومحاسبتهم على كل صغيرة وكبيرة، وكان يتخذ عليهم العيون؛ ليقف على أخبارهم مع الرعية أولاً بأول، ومن وجده حاد عن الطريق عزله، بل كان من شدة تضييقه عليهم، كان بعضهم يترك ولايته ويستقيل منها كما فعل ابن عباس حين ترك البصرة، وذهب إلى مكة.

وقد بلغ من حسابه للولاة أنه كان يحاسبهم على حضور الولايم التي فيها شبهة، فكتب إلى عثمان بن حنيف الأنصاري عامله على البصرة: "أما بعد يا ابن حنيف: فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعت إليه تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم - أي فقيرهم - بحفو، وغنيهم مدعو، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما أشبه عليك فالفظه، وما أيقنت بطيب وجهه فتل منه".

وحاسب القاضي شريح، كيف يبني داراً بثمانين ديناراً، وهو يُعطى خمسمائة درهم فقط.

٦- نقل عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة إلى الكوفة: لقد كان ﷺ أول من خرج بالعاصمة من أرض الحجاز، ولعل هذا التصرف من الإمام يعد غريباً، بل يعده

البعض من أخطائه، فكيف يترك مدينة رسول الله، وفيها من فيها من أهل الحل والعقد، والخيرة الباقية من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار؟ ولعلنا إذا دققنا بعض الشيء في الظروف التي أحاطت به في تلك الفترة، لوجدنا له عذراً في ذلك.

- وأول هذه الظروف تمرد معاوية على الخلافة في أرض الشام، وتخوف علي من زحف معاوية على بقية الأمصار، وجعلها تحت قبضته فيفوت الفرصة على الإمام، فقال ﷺ حينما خاف من معاوية الغدر: "إن لأهل الشام وثبة وأحب أن أكون قريباً منها".

- وثاني هذه الظروف: أنه لم يجد في قريش نصيراً له، فقد تألبت قريش، وأصبحت شيعاً وأحزاباً، فالهاشميون لا يتفقون على بيعته وبنو تميم يميلون إلى طلحة، وبنو عدي يميلون إلى عبد الله بن عمر، وبنو أمية هم حزب معاوية وعشيرته، ومن كان سوى ذلك فقد جرفته الدنيا، وذهب إلى معاوية بالشام يرجو رفته وعطاءه، وعلى ذلك لو أقام بالمدينة فهو لا يقيم حيث المعونة والنصرة، إنما يقيم وسط أناس لا ينقطع لهم طلب ولا يضمن لهم ولاء.

- وثالث هذه الظروف: أنه وجد له في العراقيين أنصاراً أو مؤيدين، خاصة أهل الكوفة الذين بايعوه على نصرته، وأنهم حرب على من حارب، وعلى ذلك نقل على مقر خلافته من المدينة إلى الكوفة حيث الاعوان والأنصار، وحتى يكون قريباً من حيل معاوية وخطه.

٧- ترفقه بالرعية في تحصيل الضرائب والخراج، فقد كان ﷺ حريصاً أشد الحرص على أن يخفف عن الناس ويرفق بهم، فكان ينهى ولاته عن الرهق بالرعية في تحصيل الضرائب أو الخراج أو الصدقات، ويهمه من الدرجة الأولى النظر في عمارة الأرض أكثر من استجلاب الضريبة، وقد وضع دستوراً في معاملة الرعية - أشمل وأعمق دستور يضعه حاكم لرعيته، وضع منهجه ذلك في تلك الرسالة التي بعث بها إلى الأشتر

التخعي حينما ولاه على مصر، إذ يأمره فيها بتعهد الفقراء وذوي الصناعات! ويبين له كيف ينتهي بطانته وعماله... إلى غير ذلك من الأمور التي تتنظم بها شؤون الدولة<sup>(١)</sup>.

## ثانياً: الاتهامات الموجهة إلى الإمام ونقدتها:

لقد لخص المرحوم الأستاذ العقاد، نقط الاتهام التي وجهت إلى الإمام، واتخذت ذريعة للنيل منه ومن عبقريته، والحكم عليه بأنه كان غير كفاء للخلافة، أو غير كفاء لسياسة الأمة، فيما يلي:

١- عزل معاوية.

٢- معاملة طلحة والزبير.

٣- عزل قيس بن سعد عن ولاية مصر.

٤- عدم تسليم قتلة عثمان.

٥- قبول التحكيم في صفين.

٦- قبوله الخلافة في هذا الوقت.

\* أما عن عزل معاوية:

فما فعله الإمام في ذلك كان فيه على صواب لسببين:

الأول: أن علياً لا يعرف المواربة ولا المخادعة، وما أكثر أن أشار على عثمان بعزل معاوية لكثرة السخط عليه من ذوي الصلاح والورع من أصحاب رسول الله وغيرهم، فكيف يلح على غيره في عزله، ثم إذا جاء هو إلى الحكم يقيه؟ إن ذلك تناقض لا يوافق عليه أحد.

والثاني: أن الثائرين الذين بايعوا علياً بالخلافة، كانوا يرون فيه المعول الذي يهدم على أهل الترف بيوتهم، وأنه هو الذي سينزل عروشهم، وسيعود بالمجتمع إلى عصر

(١) راجع نص الرسالة في كتاب نوح البلاغة للشريف الرضي من ص ٣٣٣ - ٣٤٨ طبعة دار الشعب.

الخلافة الصحيحة، وكان علي بطبعه حريصاً على أن يقضي على هذه الفجوة التي حصلت بين أفراد المجتمع في عهد عثمان، فكيف يا ترى يكون حال الثوار إذا علموا أو الولايات باقية على حالها، وأن الاستغلال الذي شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه؟ إنه لو فعل ذلك لوضع نفسه في مأزق قد لا تحمد عقباه، فكان عزل معاوية هو الأوفق في كل الحالات، مهما كانت نصيحة الناصحين للإمام بالتريث في ذلك؛ لأن عزله جزء من لوازم الخلافة؛ ولأنه يوافق هواه، ويطفى نار الفتنة التي أقامها الثوار.

\* أما عدم توليته لطلحة والزبير فما فعله الإمام في ذلك كان فيه على صواب لنهما كانا يتطلعان للخلافة، وقد ذكرنا من قبل أنهما بايعا مكرهين، أو بايعا على الشرط وهو القصاص من قتل عثمان، فلو ولاهما الإمام لصار تحت أيديهما المال والرجال، وينكصون عهدهم للخليفة، فيتألبون عليه، فإبقاؤهما بعيدين عن الولاية هو الأوفق لاستقرار الخلافة، وقد رأينا حينما خرجا من مكة إلى البصرة، كيف تجمع الرجال حولهما، وأحدثنا الفتن والقتال مما حمل الإمام علي حربهما، وخرج من حربهما أقوى مما كان في سلمهما فقد انكشف أمرهما، وانقضى عمرهما.

أما عن عزله لقيس بن سعد من ولاية مصر فماذا ينتظر من خليفة تشكك في أمر واليه، وبلغه أنه على صلة بمعاوية؟ وتأكد ذلك حينما أمره أن يقاتل من امتنع عن البيعة لعلي من العثمانيين في مصر، فامتنع قيس وأرسل إلى علي يقول له: "متى قاتلناهم ساعدوا عليك عدوك، وهم الآن معتزلون والرأي تركهم".

ورغم ما قيل من أن فعل قيس هذا كان هو عين الصواب، وحينما ولي محمد بن أبي بكر وأراد قتالهم هزموه، وجرعوا عليه من كان يصانعه ويواليه، ورغم الخسارة في عزل قيس عن مصر، إلا أن الصواب الذي لا يختلف عليه اثنان "هو أن الحاكم الذي تشكك في واليه وأصبح لا يطمئن إليه، فالأولى عزله حتى لا يعيش في قلق من أمره، فيشغله ذلك عن تدبير أمر الأمة، وقد راجع الإمام نفسه في ذلك فقال: إن مصر لا يصلح

لها إلا أحد الرجلين هذا الذي عزلناه - يقصد قيس - والأشتر". وقد أنفذ الأشر إلى مصر ليعيدها إلى طاعته، فمات في الطريق.  
\* وأما عن عدم تسليمه لقتلة عثمان:

فكيف يطالب الإمام بوقوع القصاص على قوم لا يملكهم، ولهم من الشوكة في ذلك الوقت ما لو فكر الإمام في قتلهم لثارت القبائل كلها تعصباً لهم، وقد تحدث الإمام مرة في أمر القود من قتلة عثمان، فإذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون رماحهم ويجهرون بأهم "كلهم قتلة عثمان" فمن شاء القود فليأخذه منا أجمعين.

والعجيب في هذا الأمر: أنهم طالبوه بالقود ولم يبايعوه، مع أن القود لا يكون إلا من ولي الأمر المعترف له بإقامة الحدود، وطالبوا به أيضاً ولم يعرفوا من القتلة؟ ومن الذي يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأفراد؟

وأعجبه بهذا الطلب، مع علمهم بأنه لا يستطيع ذلك قبل أن تثوب السكينة إلى عاصمة الدولة، والأعجب من ذلك أنهم أعفوا أنفسهم منه - وهم ولاة الدم كما يقولون - يوم قبضوا على عنان الحكم، وثابت السكينة إلى جميع الأمصار، كما أشرنا فيما سبق في شأن معاوية.

أبعد ذلك: يقال إن الخليفة أخطأ، وأنه ليس كفواً لسياسة الأمة؟ إنه للبهتان بعينه.

\* أما عن قبوله التحكيم يوم صفين:

فحقيقة الأمر أن الإمام لم يقبل التحكيم وله مندوحة عنه، فكيف يفعل وقد أحجم جنوده عن الحرب، وألحوا عليه في استدعاء الأشتر، وقد كان متقدماً في صفوف العدو على أمل النصر القريب، وفي الحقيقة: إن أمر التحكيم كان مفروضاً على الإمام، ولطالما حذرهم من خدعة رفع المصاحف، ولكنهم خذلوه، بل إن مسألة التحكيم ذاتها قد فرض فيها أبو موسى الأشعري على الإمام، فقد كان الإمام يقترح أن ينوب عنه عبد الله بن

عباس أو الأشتر النخعي، ولكنهم تعصبوا لأبي موسى وقالوا للإمام نريد رجلاً لا تكون له صلوات بالطرفين.

فالمشكلة الحقيقية هنا هي: أن الإمام فقد عدته، ولم يعد له بد إلا في التزول عنى ما وافق عليه القوم، فقد ابتلي الإمام بنجبت الأجناد وشدة خلافهم.  
\* أما عن قبوله الخلافة:

فمن كان غير علي لهذا الأمر، وهل لو رفضها كان الثوار يتركونه، وقد حصل فعلاً، فقد أبي، ولكنهم ألحوا عليه في قبولها، وهل لو تركها لغيره كان سيسلم من الأذى؟ إن أي خليفة غيره سيقوم بالأمر لا يجد له قراراً إلا إذ تخلص من عليّ لأنه سيكون بمثابة الرحي التي تدور حولها الناس يتذمرون من خليفتهم له، ويلوذون به، فسيكون مصدر قلق لمن يقوم بالأمر مقامه، ولن يكون ذلك من ذاته، وإنما من التفاف الناس حوله. ولهذا: إن تُرك علي للخلافة ليس من الحكمة في شيء وما كان الإمام يفعلها؛ لأنه كان يرى نفسه أهلاً لتحمل الأمانة، فإذا ما تركها سيتهم نفسه بالتقصير في حق الأمة وحق دينه، وأنه لو تركها ما كان ليصفر له بال ولا يقر له قرار لكثرة ما يجيق به من مكر غيره إذا قام بالأمر مقامه.

\* ومن هنا وبناءً على ما تقدم:

تسقط دعوى الخصوم في اتهام علي بأنه رجل حرب وليس سياسة فقد كان للإمام عبقرية السياسية كما كان له عبقرية العسكرية، وهو لم يكن بأقل من معاوية وعمرو ابن العاص حكمه ودهاء، ولكن الظروف واكبت معاوية ومن معه، ولم تواكب الإمام، فقد كان الناس غير الناس، والزمن غير الزمن، وإن الوقت ليس وقت خلافة، وإنما وقت يستشرف الناس فيه إلى الملك، وقد كانت بلية الإمام الحقيقية: في أنه لم يجد علي الخلافة أعياناً، حتى جنده الذين آووه: خذله ولم ينصروه، وقد قال ﷺ: "والله ما معاوية بأدهى مني؛ ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر، لكنت من أدهى الناس"، أو يقول: "ولكنه

لا رأي لمن لا يطاع" يشير بذلك إلى خيبت جنوده، وشدة اختلافهم عليه، وتدخّلهم في كل أمر من أموره، وقد قال لهم مرة: لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحدا، إني أريدكم لله، وأنتم تريدونني لأنفسكم"، فالبلاء كله كان في خيبت الأجناد وشدة خلافهم عليه، ولهذا كان سر علي يعرف وسر معاوية يكتم، لأن معاوية يطاع ونيته في صدره، وعلي لا يطاع إلا إذا سئل عن نيته، وما يحل منها أو يحرم في رأي أتباعه.

\* وماذا بعد ذلك: أيعقل أن يكون الإمام الذي كان محل مشورة الخلفاء السابقين في كل أمر، بل كان هو المدخر عند كل معضلة كما قال عمر: معضلة ولا أبا حسن لها، أيعقل أن يكون الإمام غير كفؤ للخلافة، أو أنه ليست عنده الحكمة السياسية للأمة، لقد فندنا كل التهم التي عابوا على الخليفة فيها، وبيننا كيف أنه لا يصلح فيما إلا ما كان، وأظهرنا جانب الصواب في سائر شئونه وأحكامه، وأن الإمام هو الكفؤ لهذا الأمر دون سواه، وإذا كانت الظروف لم تساعد في تحقيق ما كان يرجوه فليس ذلك لعيب فيه، وإنما هو عيب الناس وعب الفترة التي قدر له أن ينوء بحملها ﷺ وأرضاه.

## أسئلة التقويم الذاتي

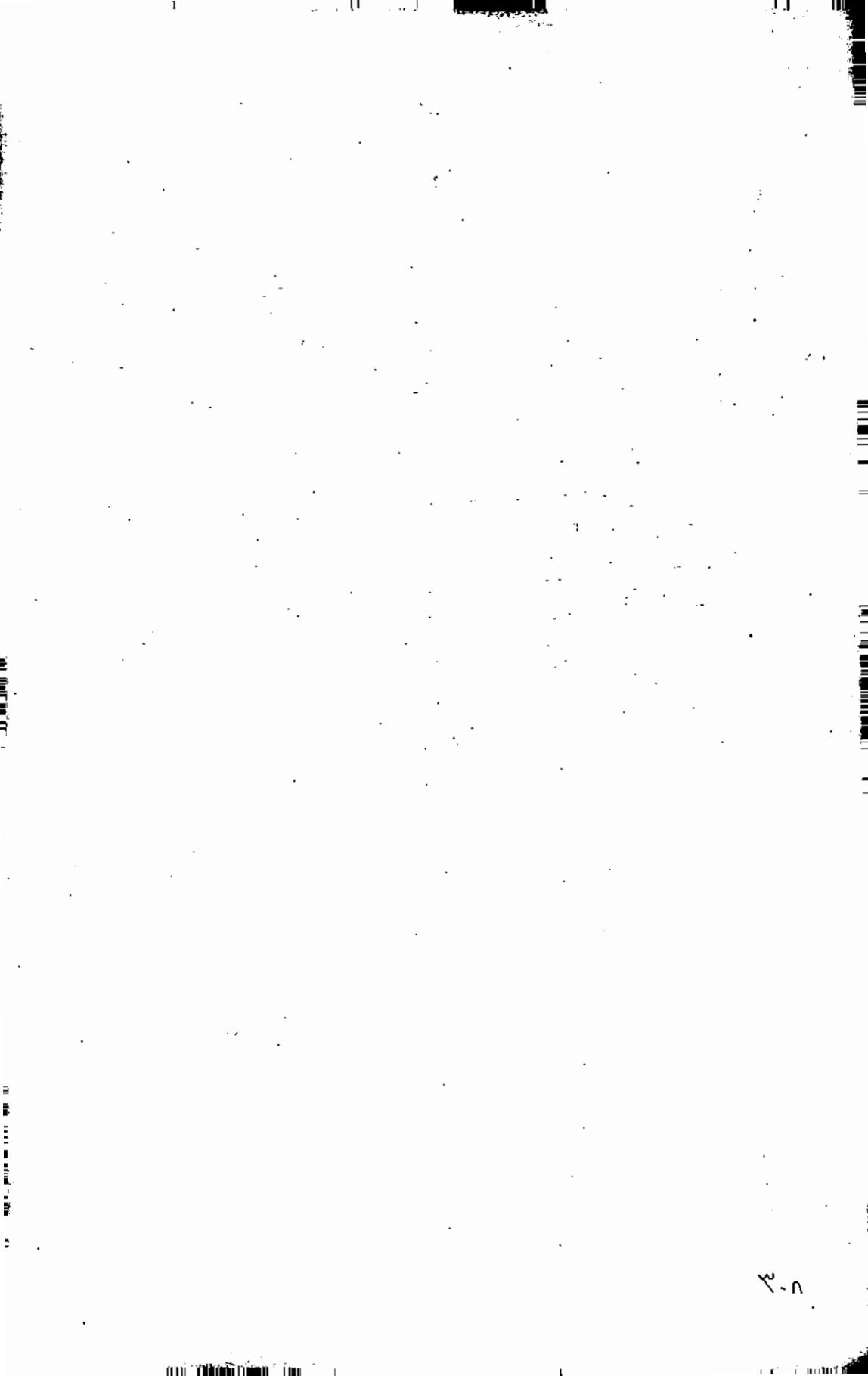
س١: انصرفت جهود الإمام ﷺ إلى الداخل ولم يكن له جهود في الخارج، فما سبب ذلك.

س٢: ضع علامة (✓) أو علامة (x) أمام العبارة:

- ( ) (أ) رد علي بن أبي طالب القطائع التي وزعت قبله.
- ( ) (ب) قام الإمام علي بعزل الولاة الذين استباحوا بيت المال لأنفسهم.
- ( ) (ج) رجع علي ﷺ إلى سياسة أبي بكر ﷺ في توزيع العطاء.
- ( ) (د) أحيى الإمام علي سياسة عمر بن الخطاب ﷺ في محاسبة الولاة.
- ( ) (هـ) نقل علي ﷺ عاصمة الخلافة من المدينة إلى الكوفة.

س٣: من الاتهامات التي أثرت حول علي بن أبي طالب ﷺ أنه رفض تسليم قتلة عثمان بن عفان ﷺ، فما الحقيقة في ذلك؟

س٤: كيف يمكن الرد على من يتهم علي بن أبي طالب ﷺ بقبول الخلافة؟



2.0

## الفتن في عهد الإمام ﷺ



إن ما حدث في عهد الإمام عليّ شيء يثير العجب، فكيف بأصحاب رسول الله ﷺ يتقاتلون هكذا؟ طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ؓ يقودون جيشاً ويذهبون به إلى البصرة ليشعلوا نار الحرب، وبين من؟ بين المسلمين، وضد من؟ ضد المسلمين ولأجل ماذا؟ للتأر من قتلة عثمان، وأين ولي الأمر الذي من خصوصياته تولى هذا الأمر؟ إنه علي ولا يؤبه له.

ومعاوية ومعه عمرو بن العاص، وفي صفه كثير من أصحاب رسول الله الذين رحلوا إلى الشام كعبد الله بن عمر وعقيل بن أبي طالب وعبد الله بن عمرو وغيرهم. يناصب معاوية علياً العدا، ويجهز جيشاً من أهل الشام ليواجه به جيش علي، ومرة ثانية يلتقي المسلمون وجهاً لوجه في حرب ضروس، من أجل ماذا؟ ولمصلحة من؟ ومن ضد من؟ وكيف يفعل هؤلاء ذلك؟ وما زال العهد بهم قريباً من رسول الله ﷺ إنه لشيء يثير العجب كما ذكرت.

ومرة ثالثة يلتقي علي بالخوارج وتحدث مجزرة هم على يد الإمام، وتبتد قوى المسلمين فيما بينهم، ويسقط في الميدان في كل معركة عشرات بل مئات من القتلى، يا الله! من الحق في ذلك؟ ومن المخطئ؟ من نعدره؟ ومن ليس له عذر؟ من كسب ومن خسر؟

\* أياً كانت الإجابة في ذلك، فالنتيجة مؤسفة؛ لأن النتيجة التي لا شك فيها هي أن الضحية كانوا هم المسلمين، وتنافسوا فيما بينهم، وسفكت دماؤهم، وتعثرت خطاهم في مواصلة الفتوحات، وكانوا حديث الأمم من حوزهم.

إن الذي ينظر في أحداث هذه الفترة يجد من أخبارها ما تنقز منه النفس، ويندى له الجحيم، وكأنهم خرجوا من طور إلى طور، خرجوا من طور النبوة الصافية والخلافة الراشدة إلى طور الملك العضوض، خرجوا من طور المحبة والألفة والتلاحم والجسد الواحد، إلى طور البغضاء والفرقة والتناحر، وكأن الناس غير الناس، والزمان غير الزمان.

\* زَمِعَ تلك النظرة المؤلمة والشعور الحزين لما حدث بين أصحاب رسول الله لا يجب أن تغيب عنا حقيقة هامة جداً، وهي أننا مأمورون شرعاً بحسن الظن بهم، وبكف اللسان عن الخوض فيهم، فهم أصحاب رسول الله ﷺ، وهم الذين قال الرسول فيهم "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" وقال: "الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي (أي هدفاً للطعن)، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم".

\* ونحن لو تعمقنا وسط هذه الأحداث المؤلمة، ودققنا في سلوك الصحابة وسط هذه الاضطرابات سنجد لهم النية الحسنة، وأنهم اجتهدوا في أحوالهم، فمنهم المصيب ومنهم المخطئ، والاجتهاد على أية حال له أجر وليس عليه ذم، بل إنه تطالعنا في كل حدث من هذه الأحداث المؤلمة حقيقة هامة، وهي تدخل الغوغائيين في مجرى الأحداث، وفرض بسيطرتهم على مجرى الأمور، فقد كانت هناك نفوس مريضة ممن دخلوا في الإسلام من أمم فارس والرومان، ومن بعض قبائل العرب، وبعضهم كان الحقد يأكل قلبه على المسلمين، والبعض الآخر كان يتطلع إلى زعامة، وينفَس على الإمام الخلافة، وقد وضع ذلك جلياً في حرب الجمل، وصفين والخوارج.

وسنحاول - ونحن نكتب عن هذه الفتن - أن نبرز هذا المعنى، وهو أن ما حدث، كان اجتهاذاً من الصحابة، وما كان بينهم إنما هو اختلاف في الرأي، وأن الغوغائيين كانوا وراء إشعال النار في كل مكان، وستبقى للصحابة مكانتهم السامية وسمعتهم المصونة، فلا نذكرهم إلا بخير، ولا نتهمهم بشيء، غير أنهم اجتهدوا، فأصابوا أو أخطأوا، أو اختلفت وجهات نظرهم للأمور.

من هذا المنطلق نبدأ حديثنا عن تلك الفترة المؤلمة في خلافة الإمام علي عليه السلام.

## \* أولاً: فتنة الجمل:

\* عندما تمت البيعة للإمام علي، وأصبح هو الخليفة الرسمي، بدأ يمارس حقوقه في الخلافة، واتخذ عدة إجراءات بينها عزل الولاة الذين ولاهم عثمان، وحبس الصحابة عن الخروج من المدينة حتى لا يفتنوا بالدنيا كما فتن غيرهم، ولهذا الغرض رفض توليتهم أو على الأقل من يرغب في الولاية.

ولما رفض معاوية أن يدخل في طاعة الخليفة، أيقن الإمام بما يريده معاوية، وغادر المدينة إلى العراق قائلاً: إن لأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريباً منها".

ولكنه وهو في طريقه إلى العراق متجهاً إلى الكوفة، جاءته الأنباء بخروج طلحة والزبير ومعهم عائشة على رأس جيش من الصحابة، وقد انضم إليهم في الطريق عدد كبير من الأعراب والقبائل يريدون البصرة، حتى يتعقبوا قتلة عثمان، ويستعينوا بصالحي أهل البصرة، وغيرهم من أهل العراق ليتم لهم ما خرجوا من أجله وهو التآمر لعثمان من قتلته في كل الأمصار.

يا الله! أهدان طلحة والزبير اللذان أذن لهما علي بالخروج للعمرة، يغادران مكة ومعهما سبعمائة إنسان جلّهم من أهل مكة والمدينة ومنهم عبد الله بن عامر، ويعلى بن أمية، وعبد الرحمن بن عتاب، وأم المؤمنين عائشة، ويتبعهم في الطريق ناس من الأعراب حتى وصل عددهم ثلاثة آلاف وعندما وصل الركب المكي إلى "ماء الحوآب" نبحتهم كلابه، فأناحت عائشة رضي الله عنها وقالت: أنا والله صاحبة كلاب الحوآب طروقاً ردوني، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه "ليت شعري أيتكن ينبحها كلاب الحوآب"، فقالوا لها: ما هو بالحوآب فسارت<sup>(١)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٥٧.

نادا يفعلان ذلك؟ أنفَسًا على الإمام خلافته؟ أنقضا عهدهما له؟ أهو الثأر من علي نفسه لأنه رفض أن يوليها؟ أم هو الثأر من قتل عثمان، وهل لهم الحق في ذلك كله؟ اللهم لا، ولكنها الفتنة.

حينما علم علي بخروجهم، ذهب إلى "الربذة" يريد أن يحول دون انطلاقهم إلى البصرة، إلا أنهم قد فاتوه، ووصل علي إلى "ذي قار" ينتظر وصول جند الأمصار: قيس ابن سعد والي مصر، وأبي موسى الأشعري والي الكوفة، وعثمان بن حنيف والي البصرة، كتب إليهم بالتهوض إلى قتال أهل الفرقة، وعسكر الإمام في ذي قار ينتظر وصول الأجناد من سائر الأمصار، فجاءه أهل الكوفة وهو في ذلك الموضع.

ولما وصل ركب مكة إلى البصرة، مال بعض البصريين إلى صف عائشة وأخرجوا والي علي من البصرة وهو ابن حنيف، عدا عليه بعض الرعاع فطردوه منها، وأصبحت البصرة تحت إمرة الركب المكي، وأنشأ حكيم بن جبلة القتال، وقتل الذين شخصوا إلى المدينة واشتركوا في حصار عثمان رضي الله عنه، ولم ينج منهم إلا "خرقوص بن زهير العبدي". ولم يكن هذا القتل ليخفف من المشكلة، بل زادت حدتها، إذ غضب بعض القبائل لمقتل بعض أبنائها ممن كانوا من الغوغائيين، ومنهم بنو عبد القيس، الذين ثاروا لمقتل حكيم بن جبلة، وكتب الركب المكي إلى بقية الأمصار أن يفعلوا فعلتهم، وأن يقتلوا من عندهم من قتل عثمان.

ونظر الإمام إلى الأحداث في البصرة، فهاله الأمر، إنها إذن الحرب الأهلية، التي كان يحاذرها الإمام، وحينما أشاروا عليه في تتبع قتل عثمان قال: إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن هؤلاء القوم مادة - أي عشيرة - وأهل بثورون لقتلهم.

\* وعلى الفور أرسل الإمام القعقاع بن عمرو التميمي إلى البصرة ليلتقي بأهـ المؤمنين عائشة والريير وطفحة. لعله يجد منهم استجابة للصلح، وينتهي هذا الموقف المتأزم، وذهب القعقاع ودار بينه وبينهم هذا الحوار:

القعقاع: يا أم المؤمنين ما جاء بك إلى هذا البلد؟ قالت: الإصلاح بين الناس  
القعقاع: وأنتما - طلحة والزبير - ما جاء بكما؟ قالوا: الإصلاح بين الناس.  
القعقاع: فأخبروني كيف يكون هذا الإصلاح؟ قالوا: يكون بالتأر لعثمان، وقتل  
قاتليه.

القعقاع: لقد قتلتم قتلته من أهل البصرة، وكنتم قبل قتلهم أصوب مُجًا منكم بعد  
قتلهم، لأنكم قتلتم ستمائة، فغضب لهم ستة آلاف، وها أنتم أولاء تطلبون أحد القتلة  
وهو "حرقوص بن زهير" - فلا تقدرتون على إدراكه، لأن ستة آلاف يشايعونه ويحمونه،  
أفلا تعذرون أمير المؤمنين عليًا إذا هو أخَّر قتل عثمان إلى أن يتمكن منهم، إن الكلمة في  
جميع أقطار الإسلام مختلفة، وإن خلقًا كثيرين من ربيعة ومضر قد تجمعوا ليُشعلوها حربًا  
ضروسًا.

أم المؤمنين عائشة: وما ترى يا قعقاع؟ قال: أرى أن تؤثروا العاقبة، وتعطوا البيعة،  
وأن تكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولاً، ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له"، وانتهى الحوار،  
واقنع الجميع برأي القعقاع، وتم الاتفاق على أن يجيء الإمام إلى البصرة ليتم الصلح.  
وسرَّ الإمام علي برغبتهم في الصلح، وتجهز للرحيل إلى البصرة قائلاً: إني مرتحل  
غداً فارتحلوا معي، ولا يرتحل معي أحد أعان على قتل عثمان ولو بشرط كلمة".

\* وهنا شعر الغوغائيون من قتلة عثمان أن الصلح سيدور عليهم، وأنه إذا عم  
ستأنهم العقوبة، وأبرموا أمرهم على أنه إذا اقترب الطرفان بعضهم من بعض أنشبووا  
القتال، وفي فجر اليوم الذي ضرب موعداً لصلح، تسلل ألفا رجل من قتلة عثمان  
يقتحمون خيام جيش البصرة الذي يقوده طلحة والزبير، وأعملوا فيهم السيف على غرة،  
ونقض الجميع إلى سيوفهم، واصطدم الجيشان، ولم يكن هناك مجال لإزالة اللبس وتفنيده  
المؤامرة، ووقعت الفتنة، بل ظن أهل البصرة أن حديث الصلح كان خدعة.

والتقى الجيشان في موقعة "الجمل" - نسبة إلى الجمل الذي كانت تركبه السيدة عائشة، واحتدم القتال، وسالت الدماء، وتقاتل الفريقان، هذا من أجل طلحة والزبير وعائشة، وذلك من أجل علي رضي الله عنه، وعلى الفور دفع علي بجواده بين الصفوف، وأراد أن يوقف هذه الحرب التي لا ناقة فيها ولا جمل إلا سفك دماء زكية من المسلمين في الطرفين، نادى علي: إلي يا طلحة، إلي يا زبير، وخرجوا إليه، فقال: يا طلحة: أخبات عرسك في البيت وحثت بعرس رسول الله تقاتل بها"، وأنت يا زبير: أتذكر يوم - كذا - عندما رأيتني مقبلاً على رسول الله فضحكت لي، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتجه يا زبير؟ فقلت: نعم، فقال لك: أما إنك لتقتلنه وأنت له ظالم"، وصاح الزبير: أجل، ولقد ذكرتني بما كنت قد نسيت"، وأغمد سيفه، وغادر هو وطلحة أرض القتال - خاصة - بعد أن علما أن "عمار بن ياسر" يقاتل في جبهة الإمام علي، وتذكرا قول الرسول لعمار: "تقتلك الفئة الباغية"<sup>(١)</sup>.

وتجمع الغوغائيون حول الجمل بعد انصراف القائدين عن القتال، ولما رأى الإمام أنهم يتخذون من الجمل كعبة لهم يلتفون حوله حتى قتل أمامه سبعون رجلاً، فأمر بعقر الجمل، وحمل السيدة عائشة بهودجها دون أن يصيبها سوء، وبعقر الجمل انفرجت المعركة، وهزم أهل البصرة، وكانت فاجعة أليمة ذهب ضحيتها كما ذكر المؤرخون - عشرة آلاف من جيش البصرة، وخمسة آلاف من جيش علي، هذا فوق قتل الزبير وطلحة، فأما الزبير فقتل غيلة، تربص به عمرو بن جرموز في الطريق فقتله، وأما طلحة فرماه مروان بن الحكم بهمم أنهى حياته.

\* والذي يعنينا هنا: ليس هو أن الحرب قد انتهت و فقط، ولكن الذي يعنينا من الدرجة الأولى هو: كيف انتهت؟ هل انتهت بنشوة النصر للإمام علي، هل انتهت بفرحة

(١) انظر كتاب العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي ص ١٥٨ - ١٦٢ مكية السنة الطبعة الخامسة

الإمام للتشفي من خصومه طلحة والزبير وعائشة؟ كلا. وإنما كما قلت: إنا لم تكن حرباً بين أعداء، ولكنها كانت خلافاً بين إخوة، أشعل بينهم الغوغائيون نار الحرب، إنا نستطيع أن نبين هذه النهاية في تلك النقاط الآتية:

١- إن خروج عائشة لم يكن للنيل من عليّ، وإنما اجتهدت في أمر قتلة عثمان، فرأت تبعهم وقد ندمت، ولم تكن مستريحة بعد الخروج لهذا العمل بدليل أنها لما سمعت كلاب الحوَّاب أرادت أن ترجع ولكنهم دلسوا عليها الأمر، ولما عاتبها عبد الله بن عباس، قالت له، هلا منعتني من الخروج.

٢- حينما دعي طلحة والزبير وعائشة إلى الصلح وبين لهم القعقاع صواب رأي الإمام في شأن قتلة عثمان، وأن التريث في شأنهم هو الحل حتى يتمكن منهم، اقتنعوا - خاصة - بعد أن حصل ما حصل من تعصب القبائل لقتلاهم، وطلبوا الإمام للصلح معه في البصرة.

٣- حينما ذكّر الإمام عليّ الزبير بما قاله رسول الله، تذكّر وندم وانسحب من المعركة، وحينما عاتب الإمام عليّ طلحة على إخراج عائشة معه، ندم وترك القتال.

٤- حينما جاء عمرو بن جرموز بسيف الزبير وحضر إلى الإمام فرحاً مزهواً، بأنه قتل خصم الإمام، وظن أن الإمام يهش له ويحسن استقباله فوجئ بأن الإمام يصرخ في وجهه قائلاً: أهذا الذي تحمله سيف الزبير؟ قال: نعم هو، سلبته منه بعد أن قتلته، فأخذه الإمام وهو يبكي، وقال: رسيك طالما فرج به صاحب الكرب عن رسول الله، ثم نظر إلى ابن جرموز وقال له: أما أنت يا قاتل ابن صفيّة فأبشر بالنار.

٥- التقى القعقاع بن عمرو أحد قادة جيش عليّ أثناء المعركة مع طلحة وهو يقاتل جريماً، فقال له: يا أبا محمد إنك جريح فحبذا لو دخلت أحد البيوتات ولكنه أبي، حتى جاء سهم فنهى حياته، أيعقل أن يرى قائد خصمه، ثم يقول له هذا الكلام، إلا إذا

كانت الحرب بينهم هي معركة بين إخوة أمة أوقع الشيطان بينهم فطاشت أحلامهم، ولم تكن معركة بين أعداء الأعداء.

٦- زار علي عائشة بعد المعركة، وضرب من تكلم عنها بسوء، وشيعها مع أخيها محمد بن أبي بكر في غرة رجب إلى المدينة، وسير في ركاها عدداً من النساء، وأعطاهما مبلغاً كبيراً من المال.

٧- طلب علي من جنوده: ألا يتبعوا مولياً، وألا يجهزوا على جريح، ولا ينيهوا مالاً، وأعلن أن من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه عليه فهو آمن.

ولما تعجب البعض من تصرفات الإمام وقالوا له: كيف يحل لنا قتالهم ولم يحل لنا سيهم وأموالهم؟

قال: ليس على الموحدن المؤمنين سيي، ولا يغنم من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه.

إن هذا الذي سبق بين لنا أن الحرب التي دارت كانت بين إخوة أوقع الشيطان بينهم، ولولا تدخل الغوغائيين، ما كانت معركة الجمل، فإنهم كانوا وراء إشعال هذه الحرب خوفاً على أنفسهم لأنهم كانوا مشتركين في قتل عثمان.

إن خروج عائشة وطلحة والزبير، كان اجتهاداً منهم، وغيره على الحق الضائع، وهو عدم القصاص من قتلة عثمان، صحيح أنهم أخطأوا، وكان الأولى أن يترك هذا الأمر لولي الأمر، وهو قد أعلن أنه لن يتخلى عن تتبع قتلة عثمان، وإنما الأمر يحتاج إلى تريث وانتظار، حتى يستتب له الأمر ويتمكن منهم، إنما لم تكن حرباً من أجل المنافسة، ولا من أجل المعارضة، ولا من أجل السلطة، وإنما كانت اجتهاداً واختلافاً في الرأي، وكلهم أصحاب رسول الله، لهم منا الإجلال وحسن الظن بهم، والدعاء لهم بالرضوان من الله عز وجل.

## ثانياً: فتنة صفين :

\* بعد معركة الجمل بثلاثة أيام، ولي علي على البصرة عبد الله بن عباس، بعد أن أعطى أهلها البيعة، وسار هو إلى الكوفة ليتهياً إلى الشام، ووصل إلى الكوفة في نهاية شهر رجب عام ٣٦هـ، ومكث فيها أربعة أشهر يعين الجند للقتال ويعد الجيش الذي سيذهب به إلى الشام.

على الطرف الآخر كان معاوية بن أبي سفيان أمير الشام منذ أيام عمر بن الخطاب، وقد طال مكثه بين أهل الشام، وخرهم وخبروه ولان لهم فأطاعوه ووصلهم فانقادوا له، ولم يريدوا غيره، وجذب القلوب إليه باللين تارة، وبالعطاء تارة، فانقاد له العامة والخاصة، ولما قتل عثمان على يد الثوراء، خرج النعمان بن بشير إلى الشام ومعه قميص عثمان مملوء بالدماء وعليه أصابع زوجه نائلة بنت الفرافصة مقطعة، وعرضه على الناس، فنار أهل الشام وبكوا وأخذهم الحمية لمقتل عثمان.

\* ووجد معاوية رضي الله عنه أن الأمور تسير في صالحه، فمعه جند الشام طائعين له، وقد أثرت حفيظتهم من أجل قتل عثمان ويطالبون بالتأثر له، واجتهد معاوية في أمره وأمر علي: فرأى أن عددًا من الصحابة لم يعطوا البيعة لعلي أمثال: سعد بن أبي وقاص وهو من رجال الشورى، وأسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة، وحسان بن ثابت، وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك وغيرهم، بل إن طلحة والزبير لم يبايعا إلا مكرهين، رأى معاوية ذلك وعلم أن الأمر لم يستقر لعلي بعد، هذا فوق ما بلغه من خروج عائشة وطلحة والزبير على رأس جيش إلى البصرة يتبعون قتلة عثمان، ولا يأبون بأمر الخليفة، كل هذه الأمور جعلت معاوية يتطلع إلى الأمر، ويتلکأ في أمر البيعة لعلي - خاصة - وأنه يعلم علم اليقين، أن عليًا ومعاوية شخصان مختلفان لا يجتمعان في قرن واحد أبدًا، فإذا ما أسلم لعلي انتهى أمره إلى الأبد، وذهب سلطانه الذي تمتع به بين أهل الشام فترة ضويلة،

وأصبح الحال بين أمرين لا ثالث لهما إما أن يكون، وإما أن لا يكون، واختار معاوية أن يكون وأن يبقى، مهما كانت الأمور، حتى ولو أدى ذلك إلى الحرب والقتال.

\* والإمام عليه السلام، يريد أن ينتهي الأمر بينه وبين معاوية بسلام، حتى لا يعرض لأرواح الناس للخطر، فالقتال بينهما ليس في صالح أحد، وإنما هو تحطيم لفرسان الأمة بعدة القتال أمام أعداء الإسلام، ورغم علم الإمام بأن معاوية اتخذ من مقتل عثمان شعاراً يستنهض به حفيظة أهل الشام ضد علي، رغم علمه بأنها كلمة حق أريد بها باطل - علي حد تعبير الإمام علي نفسه - إلا أنه سلك مع معاوية كل سبل الود والسلام، فأرسل إلى معاوية جرير بن عبد الله، ومعه كتاب من علي إلى معاوية، ولما التقى به سأله معاوية: ما وراءك يا جرير؟ فقال: لقد اجتمع لعلي أهل الحرمين - مكة والمدينة -، وأهل المصرين - طليطرة والكوفة - وأهل الحجاز، وأهل اليمن - وأهل مصر، وأهل عمان، وأهل البحرين واليمامة، ولم يبق إلا أهل هذه الحصون التي أنت فيها - الشام - لو سال عليها سيل من رديته لأغرقها، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك، ودفع إليه كتاب الإمام علي، قاذفاً فيه الدعوة الصادقة إلى السلام، وقد جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

"أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماماً، كان ذلك لله رضا، فإن خرج من أمرهم خارج بعطن، أو رغبة، ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبي قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وأن طلحة والزبير بايعاني، ثم نقضا بيعتي، وكان نقضهما كردهما، فجاهدتهما على ذلك، حتى جاء الحق وظهر أمر الله، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمور إليّ فيك العافية، إلا أن تعرض للبلاء، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت بالله عليك، وقد أكثرت في قتل عثمان، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ثم حاكم القوم إليّ

أحملهم وإياك على كتاب الله، أما تلك التي تريدها فخدعة الصبي عن اللبن، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هوك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، واعلم أنك من الطلقاء الذين أسلموا بعد الفتح وعفا الرسول عنهم، الذين لا يتبوعون الخلافة ولا يُعرض فيهم الشورى، وقد أرسلت إليك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والمهجرة، فابيع، ولا قوة إلا بالله" (١).

إن الذي ينظر في هذا الكتاب يرى أن تسامح من الإمام، وأي إنصاف منه لمعاوية، وأي حرص على حقن الدماء بين الطرفين، ويرحم الله معاوية فما كان أغناه عن هذا الذي لج فيه وتمالك عليه، وأصر على المضي فيه قدمًا حتى وإن كان ثمنه إراقة الدماء.

\* لقد رد معاوية على رسالة الإمام ردًا فيه إيغال في اتهام الخليفة بدم عثمان ويطلبه بتسليم القتلة كشرط للصالح، والحال - كما قال الإمام: لئن نظرت بعقلك دون هوك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، وما كلمة معاوية هذه إلا - كما قال الإمام أيضًا - خدعة الصبي عن اللبن -، وقد بينا فيما سبق موقف معاوية نفسه حينما آلت الأمور إليه، ماذا فعل مع قتلة عثمان، وبماذا رد على بنت عثمان حينما استصرخته بدم أبيها؟

\* ويبدو أن معاوية كان أعد للأمر عدته، وجذب إليه قلوب العامة والخاصة، وانتادت له رعيته بدون قيد ولا شرط، حتى وجدناه يقول لرجل من أنصار علي: أبلغ عليًا أني أقابله بمائة ألف رجل ليس فيهم من يفرق بين الناقة والجمال.

ومن ثم رأى الإمام: أنه لا بد منه بدّ، فزحف إلى الشام، وغادر النخيلة بالكوفة، وغادر معاوية الشام، والتقى الجمعان في "صفين" وسبق جنود معاوية إلى نهر الفرات، فقطعوا الطريق إليه على جند علي، حتى أعياهم الظمأ، وأرسل الإمام إلى معاوية يطالبه بأن يكون الماء حرًا بين الطرفين، لكن معاوية رفض، مما اضطر جند العراق إلى التزال مع

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٦١.

جند الشام حول الماء، فغلبوهم وحاز جند العراق الماء، وأرادوا أن يمنعوا منه جند الشام، كما فعلوا معهم من قبل، ولكن الإمام وهو الحريص على الرفاق والسلام، وهو ما عرفناه بشرف القتال أبي وقال: لا تحبسوا عنهم الماء، فلا يزداد عنه ذاهب، ولا يمنع عنه شارب<sup>(١)</sup>، وأقام الفريقان عدة أيام يلتقون حول الماء، وكأهم إخوة، - وهم كذلك - ولكنها الفتنة، وكان الإمام حريصاً على أن يرسل الرسل تلو الرسل إلى معاوية لعله يفيق ويرجع عن غيئه، ولكن دون جدوى، وكان القتال في بادئ الأمر بين الطرفين أشبه بمناوشات، فرقة أمام فرقة، ليس هو الهجوم الكاسح بكل الطاقة، فقد كان الكل حريصاً على عدم إضعاف المسلمين واستنزاف دمائهم فيما بينهم.

وتوقف القتال في شهر المحرم، لعل معاوية يراجع نفسه، ولكن دون جدوى، وعاد الفريقان للمناوشة طيلة النصف الأول من شهر صفر عام ٣٧هـ وأيقن علي أن التريث مع معاوية لا يفيد، فقرر الحملة العامة على جنود الشام ولكنه لم يأخذهم على غرة، بل دعاهم "شرف المقاتل الذي عرفناه به فيما سبق" ليعلمهم بالقتال غداً، ودعا الإمام "مروث بن الحارث" وأمره أن يعلو أقرب ربوة من معسكر معاوية، ويسمعهم هذه الكلمات: "يا أهل الشام: إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد استدمتكم، واستأنيت بكم لتراجعوا الحق وتثيبيوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه، فلم تتناهاوا عن طغيان، ولم تجيبوا إلى الحق، وإني قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين".

والتقى الجيشان، ودارت معارك مثيرة، وعجت الأرض بالدماء، وغطتها جثث الضحايا، وجرع الإمام لكثرة القتلى بين المسلمين، فأرسل إلى معاوية كتاباً يقول له: يا معاوية، لم تقتل الناس بيني وبينك؟ أبرز إلى فأينا يقتل صاحبه تولى الأمر من بعده"، ولكن معاوية يعلم أن علياً ما بارز أحداً إلا وصرعه، فأبى، وتقدم عمرو بن العاص ليكون مكان

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص ٥٧٢.

معاوية في مبارزة الإمام، وكاد الإمام أن يقضي عليه، إلا أنه ألقى بنفسه من على فرسه واستقبل الإمام بسوءته، فأشاح عنه وتركه ينجو بحياته.

واستمر القتال ثلاثة أيام حتى ظهرت بوادر الهزيمة على جند الشام، وما هي إلا سويعات وينتهي معاوية إلى الأبد، وأخذ معاوية يحاور عمرو بن العاص، ما المخرج؟ فقال عمرو: لقد أعددت بجيبي أمرًا ادخرته لهذا اليوم، ترفع المصاحف وتدعو إلى تحكيم القرآن، فإن قبلوا التحكيم اختلفوا، وإن ردوه اختلفوا أيضًا" أجل إنما خيلة أصابت الخنزير في جند علي، وأمر معاوية جنده أن يرفعوا المصاحف علي أسنة الرماح، وأدرك الإمام علي الفور أنها خدعة، فحذر القوم منها، لكن الأشعث بن قيس ونقرأ من القراء راحوا يقنعون الناس بضرورة الاحتكام إلى كتاب الله، فقال لهم الإمام: "أنا أحق من يجيب إلى كتاب الله، ولكنني أعرف بهم منكم، إنما كلمة حق يراد بها باطل، وإني ما قاتلتهم إلا ليدنوا بحكم القرآن، فكيف أرفض اليوم حكمه؟ إن القوم لم يرفعوا المصاحف لأهم يريدون حكم القرآن، إنما هي الخديعة والوهن والمكيدة، فأعيروني سواعدكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه".

لكن المعارضة بلغت أوجها، وتولى الأشعث بن قيس كبرها، وأجبروا عليًا قبول التحكيم، وهذه هي مصيبة المصائب في جند علي، فكانوا أصحاب نزعات شتى، وقد هبطت كفة الإمام بسبب جنده، وارتفعت كفة معاوية بسبب جنده أيضًا، وكان الأمر كما وصفه معاوية بقوله: إنه كان لا يكتم له سرا، وكان سري مكتومًا، وكان في أخبث جند وأشدهم خلافاً، وكنت أحب إلى جندي منه، فلت ما شئت"، وهكذا كانت بلية علي في جنوده - كما أوضحنا من قبل - فكان سر علي يعرف، وسر معاوية يكتم، لأن معاوية يطاع ونيته في صدره، وعليًا لا يطاع إلا إذا سئل عن نيته، وما يخل منها أو يحرم في رأي أتباعه.

فعلاً: ماذا وهى الأشعث؟، هل أمكنته الحرب، فقبل التحكيم، أم كان يعمل لحساب نفسه، ويتطلع هو إلى الزامة، أم كان ينفس على الأشر تقدمه في القتال بفرقة، حتى كاد أن يكتب النصر بشجاعته لجند العراق، قد يكون ذلك كله أو بعضه، ولكن تبقى صورة الأشعث مثلاً على بلوى الإمام في جنده، أرغموه على التحكيم قبله مضطراً، وأرغموه على أن ينوب عنه في التحكيم أبو موسى الأشعري، وما كان الإمام رافضاً أبا موسى لذاته أو لغيره فيه، ولكن الأمر أمر خدعة، ولا يصلح لها أبو موسى، إنما يصلح لها رجل أريب كعبد الله بن عباس أو الأشر النخعي ولكن الأشعث وجماعته أصروا على أبي موسى، ورأى أبو موسى بعد مشورات مع عمرو، أن يترعا الطرفين، ويتركا الأمر للمسلمين فيختاروا من يريدون بعد ذلك، وكانت الخدعة مرة ثانية من أهل الشام في شخص عمرو بن العاص.

وكان للتحكيم نتائجه السيئة وسط جند علي، فقد ضيع أولاً حق علي في استمراريته في الخلافة، وأدى ثانياً إلى التمزق في جيش علي، فقد رفض قومه التحكيم، وبالغوا في الأمر فكفروا من قبل التحكيم، وانحازوا إلى "حروراء" وأخذوا يشكلون جبهة رفض، بل جبهة مناوئة لعلي وأتباعه.

ومع هذا الخلل الذي أصاب جيش علي، فقد تقاعس فريق عن القتال، وانقلب فريقه عليه بحجة أنه قبل التحكيم، إلا أنه أصر على مواصلة القتال ضد معاوية حتى يقضي الله بينهما بالحق، وبينما هو يعي قواته من أجل المسير إلى الشام، حتى جاءته الأنباء المزعجة عن الفتنة التي رفضت التحكيم، وأنهم انطلقوا هائمين في البلاد والقرى يقتلون كل من يخالفهم الرأي، ورأى الإمام أنه مطالب بإسكات هذه الفتنة أولاً، قبل خروج إلى الشام، فرجع يتبع الخوارج، وكان له معهم ما سنوضحه فيما بعد.

\* وإذا ما ألقينا الضوء على فتنة "صفيين" فسنجد ما يأتي:

١- حرص الإمام علي طول هذه الفتنة على أن ينتهي الأمر بينه وبين معاوية

بسلام حتى لا يكون الثمن هو دماء المسلمين من الطرفين، وقد تأكد ذلك بما فعله الإمام

من إرسال الرسل والكتب إلى معاوية، يدعوه إلى قبول الحق، والدخول في البيعة للخليفة، وبما فعله من ترك الماء حراً بين الطرفين بعد أن استولى عليه جنده، وبما دعا إليه معاوية من التزال رجلاً لرجل فأيهما يقتل صاحبه كان له الأمر، حقناً لدماء المسلمين، وبما دعا إليه من الإعلان عن بدء الحرب فلم يأخذهم على غرة، وإنما أعلنها عليهم حتى يفيموا إلى أمر الله ويشوبوا إلى رشدهم، وبما أوضحه من تفنيد شبهتهم في مقتل عثمان، وتبرئته من ذلك، وبما، وبما، وبما....

٢- أن معاوية اجتهد في أمره مع علي، فرأى أن بعض شيوخ الصحابة ولم يبايعوا في المدينة، وأن طلحة والزبير وعائشة خرجوا عليه في البصرة، وأنه أمهل القود من قتلة عثمان، وأن جند العراق وأنصار علي لا تكون منهم الطاعة المطلقة، وإنما أصحاب أهواء ونوايا مغرضة، وأن علياً لو نزع من إمارته بالشام لانتهى أمره إلى الأبد، وأن كثيراً من أهل الأمصار يظالبون بدم عثمان، وأن معه كثيراً من الصحابة وأبناء الصحابة الذين نزحوا إلى الشام وغمرهم برفده وعطاياه، وأن، وأن... فقرر معاوية أن يتريث في الأمر وألا يسلمه لعلي.

٣- كانت بلوى الإمام في جند العراق كبيرة، فكان منهم الغلاة والمتزمتين في فهم الأحكام، وكان أصحاب الفتاوى يفترون على عشرين وجهة في كل حركة من حركات الإمام، وكان منهم الخائنون، الذين يشغبون عليه عند كل قرار حكيم يقود إلى النصر، ويبدو أنهم كارهون لانتصاره، أو أنهم مسخرون لعدوه، وكان أكبر مثل على ذلك الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة، وأخلفهم أن ينصر حزباً على حزب، لو خلصت نيته وبرئت طويته من الخيانة والغدر بأصحابه، فكان الأشعث هذا أول من دعا إلى قبول التحكيم، وهو الذي ثبط همة الجنود، حينما أراد علي أن يستنفرهم لحرب معاوية من جديد، بعد معركة النهروان، حتى وجدنا علياً يصف أصحابه، ويعني حظه فيهم فيقول: يا أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصم

الصلاب، وفعلكم يطعم فيكم الأعداء، ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، أعاليل بأضاليل دفاع ذي الدّين المطول، أي دار بعد دراكم تمنعون؟ ومع أي إمام بعدي تقاتلون؟ المغزور والله من غرغموه، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخبب، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق فاصل - أي السهم المكسور - أصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع في نصركم، ولا أوعد العدو بكم، وما بالكم، وما دواؤكم؟، ما طبيكم؟، أفولاً بغير علم، وغفلة من غير ورع، وطمعاً في غير حق".

٤- رغم هذه المأساة التي حدثت في صفين، إلا أننا نقول: إن علياً له الحق، أو أنه اجتهد فأصاب، ومعاوية اجتهد فأخطأ، فلو نزل على ما نزلت عليه الأمصار، لأراح الأمة، وأحمد الفتنة.

ويبدو أن الأمر في هذه الآونة قد تجاوز الخصومة بين الأفراد، إلى الخصومة بين الأجيال، وأن الصراع كان في الحقيقة بين عهدين متنافرين، أو بين نظامين متقابلين، بين خلافة يمثلها علي وتطلبها البقية الباقية من أصحاب رسول الله وأهل التقوى والورع من المسلمين، وبين مُلكٍ يمثله معاوية وتطلبه رعايا كثيرة في الشام ومصر وغيرها، ومع معاوية أهل الترف الذين انغمسوا في مباحج الحياة، وتذوقوا نعيم الدنيا، وكما قال العقاد<sup>(١)</sup>: "لم تكن المسألة خلافاً بين علي ومعاوية على شيء واحد ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا أو ذاك، ولكنها كانت خلافاً بين نظامين متقابلين، وعالمين متنافسين، أحدهما يتمرد ولا يستقر، والآخر يقبل الحكومة كما استجدت ويميل فيها إلى البقاء والاستقرار، أو هي كانت صراعاً بين الخلافة الدينية كما تمثلت في علي بن أبي طالب، والدولة الدنيوية كما تمثلت في معاوية بن أبي سفيان... ولو استسلم معاوية أو انهزم، ما كانت تغلب الهزيمة شيئاً إلا ريثماً يتجرد للدولة الدنيوية منازع آخر يحاول الغلبة من حيث الفشل السابق، فليست هي مطالب أشخاص بقدر ما هي مطالب عصر، وبقدر ما هي رياح التغيير التي

(١) عبقرية علي ص ٥٥.

طرأت على المجتمع الإسلامي، فأحدثت هذه الثورة في حياة الأمة، وإن ظهرت لنا على الساحة في صورة أشخاص.

على أية حال: يرحم الله الإمام ويغفر الله لمعاوية ورضي الله عنهما وعن سائر أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين.

### ثالثاً: فتنة النهروان:

\* لك الله يا إمام، لقد انقلب المؤمنون بك إلى أعداء لك، لقد أصبح الذين حملوا السيف معك بالأمس، يحملونه ضدك اليوم، وبعد أن كنت الإمام والقدوة لهم أصبحت في نظرهم من الكافرين.

لقد وجد الإمام نفسه بين فتنين عارمتين: فتنة في الشام تصيح: بالثأر لعثمان، وفتنة في العراق تصيح: لا حكم إلا لله.

يا للعجب: أليس جند العراق هم الذين قبلوا التحكيم، وحاول الإمام أن يمنعهم من قبوله فرفضوا؟ أليس الإمام هو الذي رغب في إيفاد عبد الله بن عباس إلى التحكيم فأصروا على أن يكون الموفد أبا موسى الأشعري أليس في الحقيقة هم الجناة؟

\* وهكذا حينما اتفق الطرفان على التحكيم، أمر علي جنوده بالرحيل إلى الكوفة، ولكن لم يدخل جيش علي كله الكوفة كما خرج منها، وإنما حازت منهم جماعة إلى "حروراء" غير راضين بالتحكيم وغاضبين لما تم في صفين، ورتبوا أمورهم على مناهضة الإمام، فجعلوا أمر الحرب بثبت بن ربيعي التميمي، وجعلوا على الصلاة عبد الله بن الكواء، وبأيتهم احتفظوا برأيهم لأنفسهم ولكنهم فرضوه على الجميع، وبدأوا يشيرون الرعب والفرع في نفوس الأمنين، وكتبوا إلى إخوانهم في البصرة ليوافوهم في النهروان، ولم يتعجل الإمام في قتالهم، بل قال: إن سكتوا تركناهم، وإن تكلموا جادلناهم، وإن أفسدوا قاتلناهم، وأرسل إليهم عبد الله بن عباس يناقشهم ويردهم إلى صوابهم، ولكن

الجهل: والحق أعماهم عن الحق، فما أجدت فيهم محاورات ولا مناظرات بل إن الإمام نفسه ناظر ابن الكواء أمام أصحابه، وأفحمه بالحجة الواضحة، ولكنه اللجج في الخصومة والتعصب المقوت لما اقتنعوا به، وأصروا على تكفير علي وأصحابه، وأن يعاملوهم في الحرب والسلم معاملة الكفار.

ولقد نفذ صبر الإمام علي - خاصة - بعد أن قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت هو وزوجته، فقد قابلوه هو وزوجته في طريق سفرهما، فسأله أن يحدثهم ببعض ما سمعه من أبيه من أحاديث رسول الله ﷺ، فقال لهم: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله يقول: ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، وسألود عن الإمام فقال فيه خيراً، فذبحوه، ثم تقدموا نحو زوجته هي الأخرى فقتلواها ونبروا بطنها، رغم استغاثتها وتوسلها إليهم قائلة: "إني حبلتي فاتقوا الله في" ولكن من يسمع؟ أولئك قوم طمس الله على قلوبهم وعقولهم.

وما أن بلغ الإمام ذلك، وأيقن أنهم عثوا في الأرض فساداً، أرسل إليهم رسولاً فقتله هو الآخر، وصاروا يسألون كل من يقابلونه رأيه في التحكيم وفي الإمام، فإن رضي بالتحكيم أو قال في الإمام قولاً حسناً قتلوه.

رأى الإمام أن قومًا بهذه الوحشية وتلك الفظاظة هم أخطر على الأمة من جند الشام ومعاوية، فترع إليهم وطلبهم بتسليم قتلة عبد الله بن خباب فأبوا وقالوا كلنا قتلته، وهجموا على جيشه وبدعوا بالقتال، فحمل عليهم علي بجنوده حملة أبادتهم جميعاً، ولم ينج منهم إلا القليل من الجرحى، وكانت هذه المعركة الفاصلة في مكان تجمعهم بالنهروان، فسميت بواقعة النهروان، فكان أكثرهم من الكوفة وقد حزن أهل الكوفة، خاصة - من كانوا بجيش علي من أهل الكوفة، على فقد أقاربهم وبنين عشيرتهم، وتألم الجميع لهذه النهاية المؤلمة بين أنصار علي.

\* وعند النظر في هذه الفتنة "فتنة النهروان" يقف الإنسان وقلبه يعتمر من الألم، يا سبحان الله، ما هذا التحول العجيب في أحوال الأمة، قوم يقاتلون بالأمس من أجل نصره عليّ فيتحولون اليوم إلى قوم يكفرون علياً أهي الحماقة، أم هو الجهل بأمور الدين، أم هي العصبية للهوى وشهوة الغضب؟ أم ماذا؟ ويا ليتهم احتفظوا بآرائهم لأنفسهم ولكنهم أصروا على فرضها على الناس بالقوة، أليس هؤلاء فعلاً أشر على المجتمع من أي شيء آخر.

يا سبحان الله: قوم يبلغ بهم الورع إلى درجة أن واحداً منهم وهم سائرون سقطت ثمرة من نخلة فلتقاها بفمه، وقبل أن يمضغها صاح به زميله: كيف تستحلها بغير إذن من صاحب النخلة، هلا طيبت مطعمك؟ فإما أن تستأذن صاحبها، وإما أن تشتريها منه، وما دمت لم تفعل شيئاً من ذلك فهي لا تحمل لك، وعلى الفور يلقيها من فمه ويندم ويستغفر ويتوب.

يا الله: قوم يبلغ بهم هذا الحد من الورع في الشيء التافه، ثم يستحلون دماء المخالفين لهم في الرأي، ويكفرون علياً ومن معه، إنه حقاً الجهل بروح الدين، والتعصب الأعمى لكل ناعق فيهم: وماذا بعد ذلك؟

هل لنا أن نقول: إنهم اجتهدوا فأخطأوا، واجتهد الإمام في إبادتهم فأصاب ليكون ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصدق الإمام في قوله: يهلك في أثنان: محب مفرط يفرطني بما ليس في - وهم الروافض - ومغمض يحمله شنآن علي أن ييهتي - وهم الخوارج - وإنا له وإنا إليه راجعون<sup>(١)</sup>.

(١) راجع فتنة النهروان تاريخ الطبري ج ٥ ص ٧٢ - ٩٣.



## فجيرة الأمة في مقتل علي



### \* الإمام علي وأهل العراق :

بعد أن أجهز الإمام علي الخوارج في النهروان، رأى أن ينتظر بالناس قليلا ليستريحوا من تعب القتال، وحتى ينسى كل واحد مصابه في النهروان، ثم أخذ يدعوهم إلى قتال معاوية ويحفزهم للنهوض معه إلى الشام، حتى يفصل الله بينه وبين معاوية، ولكن تخاذل القوم وتفرق الكثير عنه، ونهض الأشعث بن قيس كعادته ليخذل القوم عن النهوض مع الإمام، فقال يا أمير المؤمنين، نفذت نبأنا، وكلت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحتنا، فارجع بنا إلى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا، ولعل أمير المؤمنين: يزيد في عدتنا عدة من هلك منا، فإنه أوفى لنا على عدونا"، قال الأشعث ذلك، وبدأ القوم يتسللون من معسكر الإمام ويلوذون بقراهم، وأيقن الإمام أن القوم مارقون من يده، وأهم خاذلوه، فجلس يعني حظه ويخاطب أهل الكوفة، وكله حزن وحسرة على ما آل إليه حال القوم، وسجل الإمام تلك الوثيقة التي هي فصل القول في أهل العراق، فهي كلمات مجرب، اختير القوم فأعيوه، وجاءهم يرجو نصرتهم له فخذلوه، فقال لهم: "أما والله لو ددت أن الله أخرجني من بين أظهركم وقبضني إلى رحمته من بينكم، ولو ددت أني لم أركم ولم أعرفكم، فقد والله ملأتم صدري غيظاً وجرعتموني الأمرين أنفاساً، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم، هل كان فيهم رجل أشد لها مراساً وأطول مقاساة مني؟ لقد نهضت فيها ما بلغت العشرين، وهأنذا اليوم قد عدت الستين، ولكن: لا رأي لمن لا يطاع".

أجل يا أمير المؤمنين: لا رأي لمن لا يطاع، لقد خبا بجمك بين قومك، بينما علا نجم معاوية بين قومه، وأعاناه طلاب المنافع عامدين، وأعاناه الخوارج غير عامدين، فحاربوك ولم يحاربوه، وطلبوا التوبة منك ولم يطلبوها منه.

واستمر معاوية في إنفاذ البعوث والسرايا إلى كل موضع أنس منه غرة، وظن بزعمائه موجدة أو سامة، فأرسل عمرو بن العاص إلى مصر، واستطاع عمرو أن يدخل مصر، بعد مقتل محمد بن أبي بكر والي علي عليه السلام عليها، ولما علم علي بذلك أرسل إليها الأشتر النخعي ولكنه مات في الطريق، ودخل عمرو من قبل معاوية، وأصبحت ولاية مصر تتبع معاوية، وخرجت من قبضة الإمام.

وأرسل معاوية عبد الله بن عامر الحضرمي إلى البصرة، وأرسل النعمان بن بشير في ألفي رجل إلى عين التمر، وأرسل عبد الله بن مسعدة الفزاري في ألف وسبعمائة رجل إلى تيماء، وأرسل معاوية أيضاً يزيد بن شجرة الرهاوي أميراً على الموسم ليقم للناس حجهم، ولكن الناس اختاروا عثمان بن أبي طلحة أميراً للحج، وأرسل عام ٤٠ هـ بسر بن أبي أرطاة إلى الحجاز في ثلاثة آلاف رجل فدخل المدينة، وخرج منها عامل علي وهو أبو أيوب الأنصاري، وبايع أهل المدينة بسرا، ثم سار بسر إلى مكة، ثم إلى اليمن...

وهكذا علا نجم معاوية، وكانت عدته الأجناد المطيعين، يوجههم فيتوجهون حيث يريد، لا ينازعه أحد في رأي، ولا يرد له أمر، ولم تنقضي سنتان حتى كانت معه مصر ومكة والمدينة، فضلاً عن الشام، وأصبحت جيوشه تجوب الأقطار، حتى زادت أهل العراق خوفاً، وأصبحوا يتشبقون إلى مسالمة معاوية والصلح معه.

وبقى الإمام علي رايضاً في الكوفة يائساً منعزلاً عن الناس، حتى وصل به الأمر إلى أنه كان يأمر فلا يطاع من أهل الكوفة، وكذلك واليه على البصرة عبد الله بن عباس، كان يأمر فلا يجاب، وأصبح وجود علي مجرد رمز للخلافة، واستطاع معاوية أن يثبت

أركان ولايته بين الأمصار شيئاً فشيئاً، منتظراً ساعة الفصل النهائية، ليصبح هو الخليفة دون سواه.

بين هذه الأحداث المؤلة قضى الإمام علي بقية عمره، متشوقاً إلى ساعة الرحيل من هذه الدنيا راغباً فيما عند الله، وكان بين الفينة والفينة يقول: متى يأتي أشقاها؟ يشير ﷺ إلى ما أخرجه الحاكم بسند صحيح أحمد، عن عمار بن ياسر أن النبي ﷺ قال لعلي: أشقى الناس رجلان: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه - يعني قرنه - حتى تبطل منه هذه - أي لحيته.

\* وحانت ساعة الرحيل وجاء أشقاها ابن ملجم فباء بها:

ولترك المجال للطبري ليقص علينا هذه النهاية المؤلة فيقول<sup>(١)</sup>: كان من حديث ابن ملجم وأصحابه، أن ابن ملجم، والبرك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمي اجتمعوا، فتذاكروا أمر الناس، وعابوا على ولائهم، ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم، وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم، والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شربنا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة، فالتمسنا قتلهم، فأرحنا منهم البلاد، وتأرنا منهم لإخواننا، فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب وقال البرك بن عبد الله: أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان، وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص، فتعاهدوا تواتقوا بالله لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم، فسموها - أي وضعوها في السم - وتواعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يشب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجه إليه، وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه الذي يطلب... وانضم إلى ابن ملجم اثنان آخران هما: وردان بن تيم الرباب، وشبيب بن بجرة من أشجع، وأخذ الثلاثة سيوفهم، وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي لصلاة الفجر، وكان ذلك صبيحة

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ١٤٣ وما بعدها.

يوم الجمعة السابع عشر من رمضان، فلما خرج علي ضربه شبيب بالسيف فوق سيفه بعضادة الباب، وضربه ابن ملحج في قرنه بالسيف، وهرب زردان حتى دخل منزله، فدخل عليه رجل من بني أبيه فأخبره بما حدث، فعلاه بسيفه فقتله، وهرب شبيب نحو أبواب كندة، وشد الناس على ابن ملحج فأخذوه، ثم قال علي: إلي بالرجل، فأدخل عليه، فقال له: أي عدو الله، ألم أحسن إليك؟ قال: بلى، قال: فما حملك على هذا؟ قال شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه، فقال عليه السلام: لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلقه.

وأما البرك بن عبد الله، فقد قعد لمعاوية في نفس الليلة التي قتل فيها علي، فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه سيفه، فوقع السيف في إتيته، فأخذه، وأمر معاوية بقتله، وبعث معاوية إلى الساعدي - وكان طبيباً - فلما نظر إليه قال: اختر إحدى حصلتين: إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد، وتبرأ منها، فإن ضربتك مسمومة، فقال معاوية أما النار فلا صبر لي عليها، وأما انقطاع الولد فإن في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني، فسقاه تلك الشربة، فبرأ، ولم يولد له بعدها، وأمر معاوية عند ذلك بالمقصورة، وحرس الليل، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد.

وأما عمرو بن بكر، فجلس لعمر بن العاص تلك الليلة، فلم يخرج، وكان اشتكى بطنه، فأمر خارجة بن حذافة، وكان صاحب شرطته - فخرج ليصلي بالناس، فشد عليه وهو يرى أنه عمرو فضربه فقتله، فأخذه الناس، فانطلقوا به إلى عمرو يسلمون عليه بالإمرة، فقال: من هذا؟ قالوا: عمرو، قال: فمن قتلت؟ قالوا: خارجة بن حذافة، قال: أما والله يا فاستق ما ظننته غيرك، فقال عمرو: أردتني وأراد الله خارجة، وأمر بقتله.

كان الضحية إذن هو علي بن أبي طالب، لقد أراد الله له الشهادة، وبينما هو يعاني سكرات الموت دخل عليه جندب بن عبد الله وسأله: يا أمير المؤمنين إن فقدناك - ولا نتفدك - فنباع الحسن؟ فقال: ما أمركم ولا أمهاكم، أتم أبصر.

ثم أوصى بنبيه بتقوى الله وبجامع الخير، وأوصاهم بشأن ابن ملجم فقال: إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني نفساً بنفس، وإياكم والمثلة، فإن رسول الله نهي عنها ولو كانت في قلب كلب عمور، وإن بقيت رأيت فيه رأيي، يا الله، ثم يا الله من هذا الذي استباح الدم الزكي، باسم الدين، أيفعل هوس العقيدة، وضغينة الثأر بمؤلاء الحمقى، حتى يشعلوا ما فعلوا، أي حمية هذه، وأي دين هذا؟ اللهم إلا أن تكون حمية الجاهلية، ودين الحوي والشهوة.

\* ولا ينسى الإمام وهو يودع الحياة أن يلحق أولاده وأهله الدرر الأخير من سماحة الإسلام، وتعاليم الدين الصحيحة، حتى يلقي الله وقد أدى ما عليه كاملاً غير منقوص؛ فكانت وصيته<sup>(١)</sup>: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ثم إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، ثم أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهلي بتقوى الله ربكم، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، فإني سمعت أبا القاسم عليه السلام يقول: إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام، انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوهم يهون الله عنكم الحساب، الله الله في الأيتام، فلا تغنوا أفواههم ولا يضيعن بحضرتكم، والله الله في جيرانكم، فإنهم وصية نبيكم عليه السلام، ما زال يوصي به حتى ظننا أنه سيورثه، والله الله في القرآن، فلا يسبتكم في العمل به غيركم، والله الله في الصلاة، فإنها عمود دينكم، والله الله في بيت ربكم فلا تحبوا ما بقتيم، فإنه إن ترك لم يناظر، والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم. والله الله في الزكاة، فإنها تطفى غضب الرب، والله الله في ذمة نبيكم، فلا يظلمن بين أظهركم. والله الله في أصحاب نبيكم، فإن رسوا. الله أوصى بهم، والله الله في الفقراء والمساكين.

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٤٧.

فأشركوهم في معاشكم، والله الله فيما ملكت أيمانكم، الصلاة، الصلاة، لا تخافن في الله لومة لائم، يكفيكم من أرادكم وبغى عليكم، وقولوا للناس حسناً كما أمركم الله، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولي الأمر شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم، وعليكم بالتواصل والتبادل، وإياكم والتدابير والتقاطع والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب، حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ فيكم نبيكم، أستودعكم الله، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله".

ثم لم ينطق إلا بـ "لا إله إلا الله" حتى قبض ﷺ وكان ذلك في شهر رمضان سنة أربعين من هجرة النبي ﷺ، ضرب ليلة الجمعة، فمكث يوم الجمعة وليلة السبت وتوفي ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربعين وهو ابن ثلاث وستين سنة، استكمل بذلك سن الرسول وسن صاحبيه أبي بكر وعمر ﷺ أجمعين، وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، ودفن عند مسجد الجماعة في قصر الإمارة بالكوفة، وكانت مدة ولايته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر.

وهكذا أقفلت بموته صفحة الخلفاء الراشدين الذين تعاقبوا على الخلافة بعد رسول الله ﷺ، وانتهى عصر الخلافة الراشدة، ووراثة النبي ﷺ في حراسة الدين وسياسة الدنيا وفق تعاليم الدين، وبدأ بعد ذلك عصر السياسة الدنيوية أو عصر الملك الدنيوي.

يرحم الله الإمام علياً ويجزيه عما قدم للإسلام والمسلمين أفضل ما يجزي به عباده الصالحين ولا حرمننا الله أجره، وعصمنا من الفتن بعده.

وغفر الله له ولنا، وألحقنا به وبإخوانه من الخلفاء الراشدين وأصحاب رسول الله ﷺ أجمعين على خير ما يحب ويرضى.

## أمين يا رب العالمين

## أسئلة التقويم الذاتي

س١: إذا كانت هناك بعض الفتن التي حدثت في عهد الإمام علي عليه السلام فإنه يجب أن ننظر إليها بحسن الظن وأن نستظهر حسن النية لدى الصحابة كلهم، ووضح ذلك جيداً.

س٢: اذكر من الوقائع ما يؤكد أن فتنة الجمل كانت خلافاً بين إخوة في الله تعالى ولم تكن حرباً.

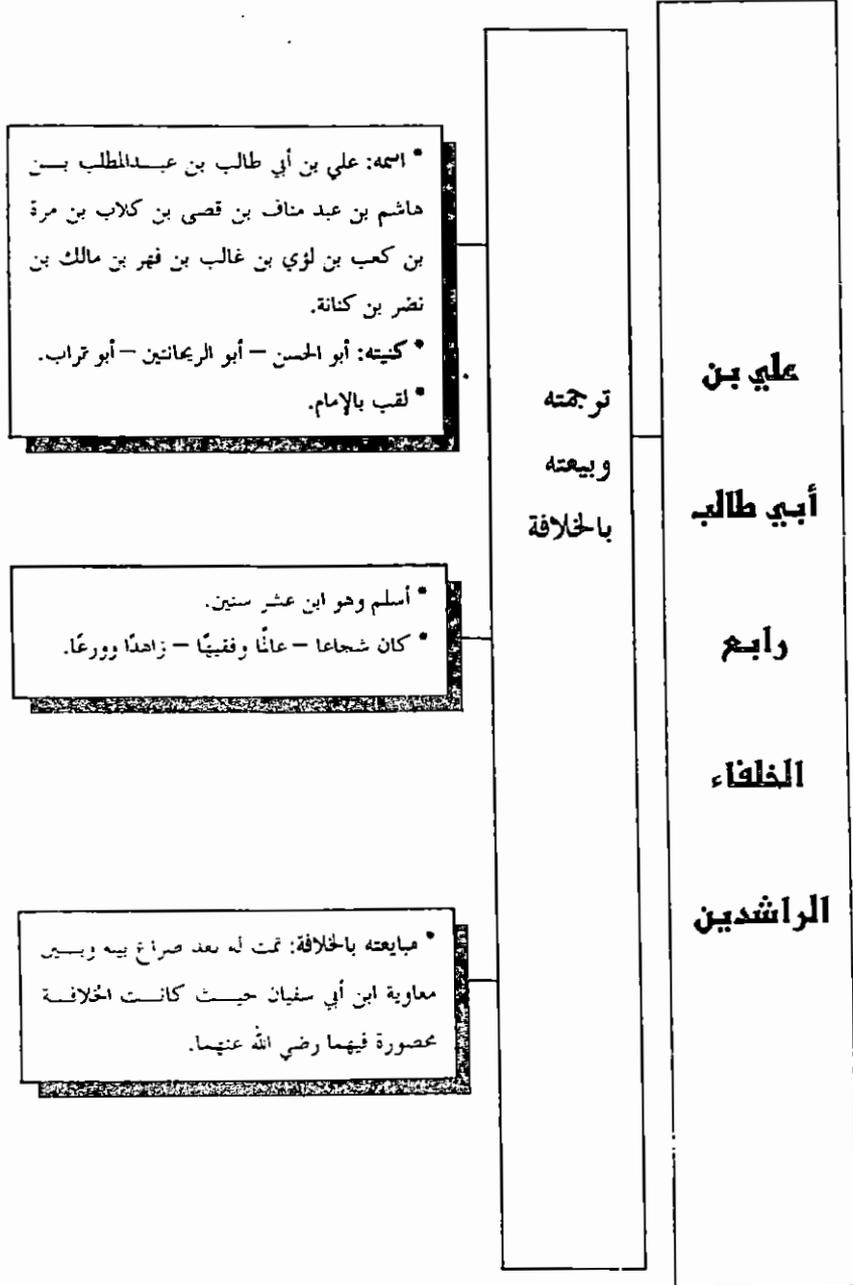
س٣: تحدث عن فتنة النهروان.

س٤: تحدث عن حادث قتل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

س٥: تحدث عن وصية الإمام علي لأولاده.



## الخلاصة



## تابع الخلافة

### \* سياسته الداخلية:

- ١- رد القطار.
- ٢- عزل الولاة الذين استباحوا بيت المال.
- ٣- تجنيد الصحابة فتنة الإمارة.
- ٤- رجوع إلى سياسة أبي بكر في توزيع العطاء.
- ٥- محاسبة العمال.
- ٦- نقل عاصمة الخلافة إلى الكوفة.
- ٧- الرفق في توزيع الخراج والضرائب.

أعماله في  
الخلافة

علي بن

أبي طالب

رابع

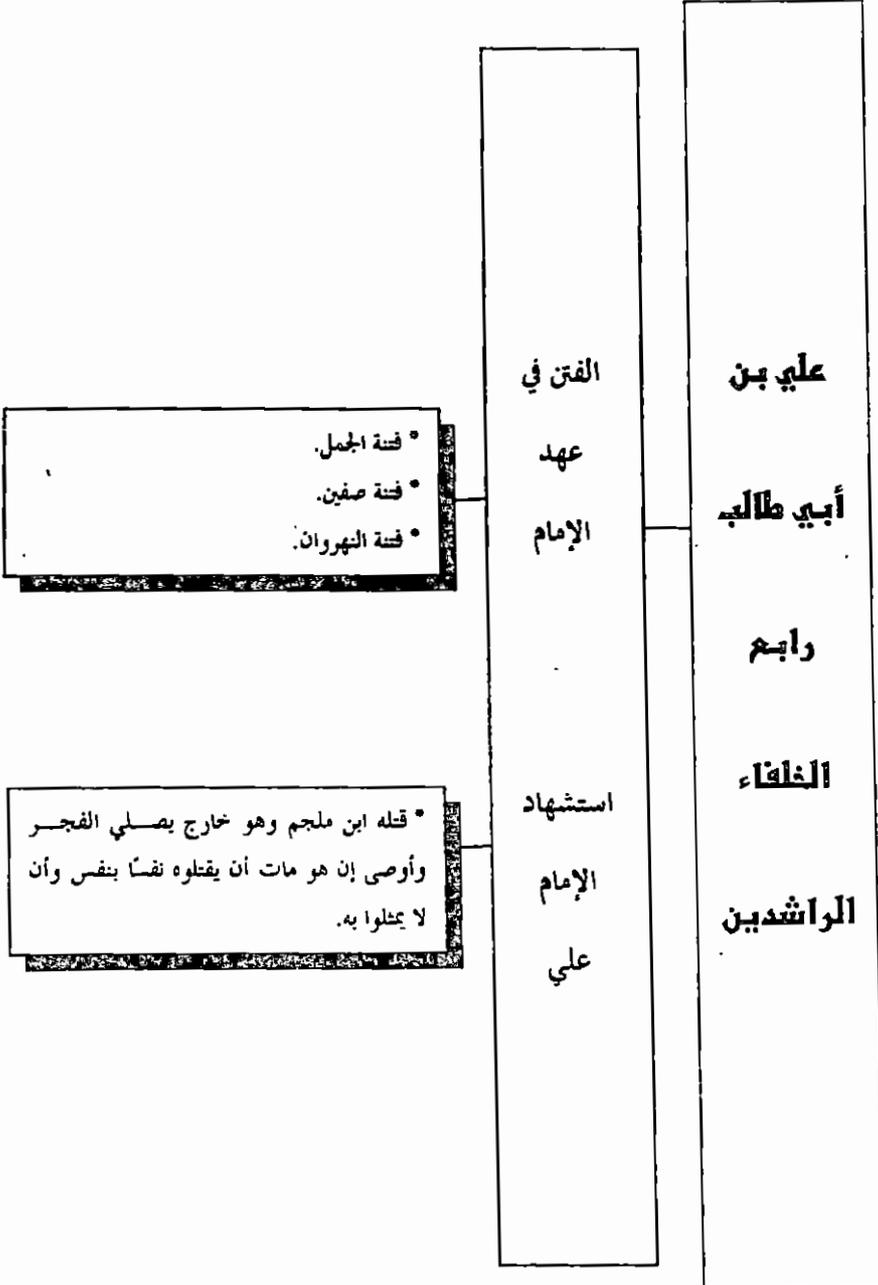
الخلافة

الراشدين

### \* الاتهامات الموجهة إليه:

- ١- عزل معاوية.. وكان ذلك لتجنب الخداع والمواربة والتفرغ للأعمال.
- ٢- عدم تولية طلحة والزبير... وكان ذلك للإبقاء على استقرار الخلافة.
- ٣- عزل قيس بن سعد من ولاية مصر.. فكان ذلك من حق الخليفة.
- ٤- عدم تسليم قتلة عثمان.. لتجنب الثورات.
- ٥- قبول التحكيم يوم صفين... كان ذلك التحكيم مفروضاً عليه.
- ٦- قبول الخلافة.. وليس فيه شيء لأن غيره سوف يقوم بها.

## تابع الخلافة



## المراجع المسأعدة

- خلفاء الرسول أ. خالد محمد خالد ص ٤٠٢.
- فتح الباري ج ١٤ ص ٣١٩.
- عبقرية علي ص ١٢٤: ١٢٧، ص ٨، ١٠، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ٤٦، ٥٣، ١٠٦، ١١٣، ٥٥.
- الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ١٦.
- تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٧٣، ١٧٠، ١٧١، ١٧٨، ١٨٦، ١٨١، ١٧٧، ١٧٨.
- فتح البلاغة ص ١٧٦، ١٧٧، ص ٣٣٣ - ٣٤٨، للشريف الراضي.
- تاريخ الطبري ج ٤، ص ٤٣٤، ٤٣٦، ٤٥٧، ٥١٦، ٥٧٢، ١٤٧، ج ٥ ص ٧٢: ٩٣، ١٤٣.
- العواصم من القواصم لأبي بكر العربي ص ١٥٨: ١٦٢.

## الاختبار البعدي للوحدة

س١: كان لعلي بن أبي طالب ؑ علم واسع وحكمة، تكلم عن ذلك تفصيلاً مع ذكر الأحداث التي تؤكد ذلك.

س٢: تكلم عن ملامح سياسة الإمام علي ؑ الداخلية.

س٣: اذكر الاتهامات التي وجهت إلى الإمام علي بن أبي طالب ؑ ثم رد عليها.

س٤: قام الإمام علي بن أبي طالب ؑ بنقل عاصمة الخلافة من المدينة إلى الكوفة، فما أسباب ذلك عنده؟

س٥: أقم البعض علي بن أبي طالب ؑ أنه لم يقم بتسليم قتلة عثمان، فما الرد على ذلك؟

س٦: يجب النظر إلى ما حدث من فتن في عهد الإمام علي بن أبي طالب ؑ في إطار حسن الظن وصدق النية لدى الصحابة، ناقش هذه العبارة.

س٧: لم يكن ما حدث في فتنة الجمل سوى خلاف بين إخوة، وضح ذلك في ضوء الأحداث التي انتهت بها هذه الفتنة.

س٨: في ضوء أحداث فتنة صفين يتضح أن الإمام علياً ؑ كان حريصاً على أن ينتهي الموقف بسلام بينه وبين معاوية وضح ذلك.

س٩: أوصى علي بن أبي طالب ؑ بقاتله، فما تلك الوصية؟

## كلمة الختام

وبعد: فهذا ما وفقني الله تعالى إليه في دراستي عن الخلفاء الراشدين الأربعة - رضي الله عنهم - وأجمعين -، وإنني لمعترف ومقر بأنني قد سبحت في بحر عظيم، لا أستطيع أن أدرك أغواره، وإنما فقط هي الرؤية المشرقة التي أحسست بها، وتسمت عبرها، وهي في الحقيقة كانت على قدر ضاقتي، وليست على قدر أئمتنا الكرام: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي - رضي الله عنهم - فالحديث عنهم، وتجليه آثارهم وبيان دورهم في خدمة الإسلام والمسلمين، هو شيء فوق طاقتي، ومن ذا يحيط بهذه البحار الزاخرة؟ إنه الله وحده، هو الذي يعلم بقدرهم العظيم، وأسأله أن يجزل لهم على قدر فضله العميم، وأن يجزيهم خيراً عما قدموا للإسلام والمسلمين، وعن صحبتهم ونصرتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أفضل ما يجزي به عباده الصالحين.

وإنني في الحقيقة: وأنا مُقَدِّمٌ على هذه الدراسة كنت أوقن في نفسي ومن أول وهلة أنني لست أهلاً لتقديرهم، أو الوفاء بحقهم، وإنما كانت غاية ما أقصده أولاً: هو أن أعيش في هذا الجور الصافي، وأن أتففس في رحابهم ذلك العبير الزكي الذي عز وجوده في زمننا هذا، وأن أنتقل بين رياحين هذه البساتين العظيمة لأقتطف بعض الزهرات التي أقدمها لأبنائي طلاب العلم، عليهم يتذوقون كما تذوقت، وينعمون بالصحة كما نعمت.

كما قصدت ثانياً: أن أقدم تلك النماذج الفذة من جيل الصحابة وأبرزها لتكون صوراً حية كأنها تعيش بيننا، وتتحرك أمام أعيننا، في عدلها، وفي رحمتها، وفي فقهها وعسنا، وفي زهدنا وورعها، وفي شجاعتها ونصرتها للحق، وفي جهادها لنشر الإسلام وفتح البلدان، وفي حكمتنا السياسية وقدراتنا الفذة على السير بالأمة وفق ما سار بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنها باختصار صورة الحاكم المسلم الذي يحلم به كل مجتمع في عصرنا هذا، وسيرة التطبيق الأمثل للإسلام على يد ثلثة من البشر نذرنا حياتهم لحماية هذا الدين ونشره بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحتى لا يتقول متحرف ويدعي بأن الإسلام لم يطبق إلا في حياة النبي، وأن دولة الإسلام لم تكن لها قائمة إلا في وجود النبي صلى الله عليه وسلم، فهذه دولة

الإسلام، في عهد الخلفاء الراشدين، كانت لها السيادة والريادة، ونشرت العدل والرحمة والعلم والنور بين الأمم كلها في ضوء تعاليم الإسلام كما بينها الرسول ﷺ قبل وفاته. ولا أنكر أن الدراسة عن الخليفتين الراشدين عثمان ذي النورين، وعلي أبي السبطين رضي الله عنهما قد أعيتني كثيراً، حيث كانت الفتن التي وقعت في عهدهما، تدع الحليم حيران، وتجعل الإنسان يقف مشدوهاً أمام الأحداث الجسام، وكأنه لا يصدق ما يجري، وما حدث من سفك الدم الزكي لعثمان وعلي، ووقوع الخلاف والحروب بين الأصحاب.

ورغم هذا الجو الملبد بالغيوم حول الخليفتين الثالث والرابع إلا أنهما كانا كالشامتين الناصعتين في غرة الدهر، لقد خرجت من دراسة الأحداث في عهدهما وكلي إجلال وإكبار لهما وقلت لنفسني: حقاً من ينوء بهذا الحمل الثقيل غيرهما، لقد كانا بطليين، واستحقا بذلك أن يكونا شهيدين، وما أحسن ما قاله العقاد:

(لقد انفتحت الدنيا على الناس في عهد عثمان، فنهلوا منها، وأسكروهم نشوتها، وبقي الخليفة مثال الزهد والتعفف عن المال العام، ووقف وحده يصارع أهل الأهواء حتى جاد بدمه وضمن بدماء الناس. وجاء عصر علي فأصبح الناس صرعى للدنيا، وأبي هو إلا أن يكون إماماً في الزهد والورع - كما كان دوماً - لم ينل من الدنيا ولم تنل منه، وعاش في عصر استعصى عليه أهله؛ لأنه يطلبهم للخلافة، وهم يطلبونه للدنيا أو الملك، وهينبات أن يجتمعا.

وقد حرص الإمام علي وحده الأمة، وجمع الكلمة، وأعطى لخصومه كل ما في جعبته من حلم وأناة، ولكن في الحزم أحياناً النجاة، فكانت فتنة الجمل وصفين والنبروان، وكانت أشبه بالجراحة التي لا بد منها ليندمل الجرح، ولكن ما حيلة الإمام؟ والعصر غير عصره، وقد آن الأوان ليرحل بعد أن أدى الأمانة وحمل الأمة - علي قدر طاقته - على سنة الخلافة، وخرج منها متوجهاً بأعظم تاج، وهو تاج الشهادة - كما

خرج سلفه عثمان، يحملان معاً لقب الشهيد وإنما حقاً لضريبة الخلافة الراشدة ضد طلاب الدنيا وأصحاب الحقد والموتورين من هنا وهناك.

لقد حرصت في هذه الدراسة على تيرئة ساحة الخلفاء الراشدين من كل لورئة ألصقها بهم المغرضون، وأن أجلى مظاهر الروراء وأبرز تلك الشامات البيضاء في تاريخ الأمة حتى تكونه دائماً - كما كانت - منارة الهدى وطريق القدوة وقد قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدُوا﴾.

لقد درست ومحصت، وحللت واستنتجت على قدر طاقتي، آملاً أن أصل إلى غايي في الروراء بمحققهم، وإبراز قدرهم، والذب عنهم ضد كل جادل وحاقد. ولست أدعي أنني قد وصلت بهم كما ينبغي لهم، فقد قدمت على قدر طاقتي وليس على قدر ما يستحقون، وكتبت على قدر جهدي وليس على قدر ما يستوجبون من الررفة والشاء.

ويعلم الله أنني قد بذلت قصارى جهدي، فإن كنت قد وفيت لهم فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وإن كنت قد أنرت بهم الطريق فذلك من فيض بركاثم وإن كانت الأخرى فعذري الوحيد أني أحبهم، فنهضت للكتابة عنهم، ورغبت في أن أفنى إلى ظلالهم، وأن أحظى بقطرة من رحيقهم، وأن أقدم لهم ولو مثقال ذرة من حق وجب على كل مسلم تجاههم.

وأسال الله تعالى أن يرضى عنهم أجمعين وعن سائر أصحاب رسول الله وأزواجه أمهات المؤمنين ومن تبعهم بإحسان. إلى يوم الدين، وأن يرضى عنا معهم برحمته آمين. كما أسأله أن يجزي بالخير عنا العلماء السابقين الذين خلفوا لنا ما أنار لنا الطريق، وساعدنا في الوصول إلى ما نريد، من المؤرخين والمحققين والمهتمين بحياة الصحابة، وكذا شيوخنا أجمعين.

كما أسأله أن يجزي بالخير العميم والدي وزوجتي وأولادي، وأن يجعل هذا العمـ  
خالصاً لوجه الكريم، نافعاً لي ولذريتي ولسائر المسلمين، وأن يجعله حجة لي، وامتداداً لـ  
الأثر بعد الرحيل.

كما أرجوك ربي، وأطمع في جودك وكرمك، وأسألك مسألة المسكين، وأتضرع  
إليك تضرع الباكي الذليل، أن تحشرنى مع نبيك الكريم وخلفائه الراشدين، وسائر صحابـ  
أجمعين.

وأسألك اللهم كما أذنت لي بصحبتهم في هذا الكتاب، ألا تحرمني رؤيتهم  
وصحبتهم، وأن تحشرنى معهم في جناتك يا رب العالمين آمين، آمين، وصى الله  
على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

العبد الفقير

حلمي عبد المنعم صابر

مصر الجديدة في شوال ١٤٢٠ هـ

=

## الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم
١٠	نتييج النقد التاريخي عند ابن خلدون
١٧	المهدف العام
١٨	الرسم التوضيحي للكتاب
	<b>الوحدة الأولى</b>
١٩	أبر بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين
١٩	الأهداف الخاصة
٢٠	الرسم التوضيحي للوحدة
٢١	التمهيد
٢١	المبحث الأول: ترجمته وبيعته بالخلافة
٢١	أولاً: اسمه ولقبه وصفاته
٢٤	أول الرجال إسلاماً
٢٥	فقهه
٢٦	فضله
٢٨	ثانياً: بيعته بالخلافة
٢٨	كثرة الخلط
٤٠	بيعة أبي بكر كانت بالإجماع
٤١	معنى البيعة وواجبات الخليفة
٤٢	سياسة أبي بكر للأمة
٤٣	أسئلة التقويم الذاتي
٤٥	المبحث الثاني: جوانب العظمة في شخصيته

٤٥	رؤية تحليلية
٤٦	أولاً: ثباته عند الاضطراب ورشده عند التحير
٤٦	أ - ثباته عند الاضطراب.
٤٨	ب- رشده عند التحير.
٤٩	ثانياً: رحمته ورقة قلبه ونماذج عليها
٤٩	أ - عتقه للعبيد.
٥١	ب- رحمته يوم أسرى بدر.
٥٢	ج- بكاؤه في الصلاة.
٥٣	ثالثاً: حزمه الشديد وصرامته في الحق (ميراث النبي)
٥٤	أ - إرث فاطمة.
٥٥	ب- إنقاذ جيش أسامة.
٥٧	ج- استبقاء أسامة على إمرة الجيش.
٥٩	د- قتال المرتدين ومانعي الزكاة.
٦٧	أسئلة التقويم الذاتي
٦٩	المبحث الثالث: جهاده في نشر الإسلام.
٦٩	أولاً: أمور هامة يجب توضيحها
٦٩	١- الغرض من الفتوحات الإسلامية.
٧٠	٢- الفتوحات التي أيدها أبو بكر.
٧١	٣- الفتوحات في بلاد فارس.
٧٢	٤- سياسة أبي بكر في هذه الفتوحات.
٧٣	٥- مسيرة المعارك مع الفرس والروم.
٧٤	٦- نية أبي بكر <small>رضي الله عنه</small> .
٧٥	ثانياً: الفتوحات في العراق.

٧٩	ثالثاً: الفترحات في الشام.
٨٧	المبحث الرابع: سياسته الداخلية وأهم أعماله.
٨٧	أولاً: سياسته وأعماله في الخارج.
٨٧	ثانياً: سياسته في الداخل.
٨٩	١- فرض نفقة لولي الأمر.
٩٠	٢- المساواة في توزيع الغنائم والقيء.
٩٠	٣- جمع القرآن الكريم.
٩٢	٤- استخلاف عمر بن الخطاب.
٩٥	المبحث الخامس: وصية أبي بكر ووفاته
٩٥	وصية أبي بكر
٩٧	علي بن أبي طالب يوم وفاة أبي بكر
٩٩	أسئلة التقويم الذاتي
١٠٠	الخلاصة
١٠٢	المراجع المساعدة
١٠٣	الاختبار البعدي للوحدة
	<b>الوحدة الثانية</b>
١٠٥	عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين.
١٠٥	الأهداف الخاصة.
١٠٦	الرسم التوضيحي للوحدة.
١٠٧	المبحث الأول: ترجمته وبعثه بالخلافة.
١٠٧	أولاً: اسمه ونسبه ولقبه.
١٠٨	ثانياً: ولادته:
١٠٨	ثالثاً: صنته.

١٠٩	رابعاً: شخصيته في الجاهلية.
١٠٩	خامساً: شخصيته في الإسلام.
١١١	إسلام عمر.
١١٢	إعلان هجرته.
١١٢	شدته على الشيطان.
١١٣	موقفه من أسرى بدر.
١١٤	رقة قلبه وخشيته لله.
١١٥	شجاعته في الحروب.
١١٦	موافقاته وإلهاماته.
١١٦	أ - أحاديث الرسول في ذلك.
١١٨	ب - موافقات عمر للقرآن.
١٢٠	ج - من إلهامات عمر.
١٢١	فقهه وجزارة علمه وحفظه للسنة.
١٢١	أ - حفظه للسنة.
١٢٢	ب - فقه عمر الواسع.
١٢٤	البيعة لعمر.
١٢٦	منهجه في الحكم.
١٢٩	عمر وما يستحله لنفسه من بيت المال.
١٣٢	أسئلة التقويم الذاتي.
١٣٣	المبحث الثاني: الفترحات الإسلامية في عهده:
١٣٣	أولاً: الجبهة الشرقية.
١٣٤	معركة النمارق.
١٣٤	معركة الجسر.

١٣٥	معركة البويب.
١٣٦	معركة القادسية.
١٣٩	فتح المدائن.
١٣٩	فتح جلولاء.
١٤٠	فتح نهاوند.
١٤١	وقفه مع الفتوحات في أرض فارس.
١٤٢	ثانياً: الجبهة الغربية.
١٤٣	معركة فحل.
١٤٣	فتح دمشق.
١٤٤	فتح حمص.
١٤٤	فتح قنسرين.
١٤٤	فتح أجنادين وبيت المقدس.
١٤٥	فتح مصر.
١٤٧	ثالثاً: مواقف فريدة في الفتوحات:
١٤٧	١- موقف لأبي عبيد بن مسعود الثقفي.
١٤٧	٢- موقف نادر في الوفاء.
١٤٨	٣- موقف لربعي بن عامر.
١٥٠	٤- شهادة حق.
١٥٠	٥- توجيهات القائد الأعلى.
١٥٣	أسئلة التقويم الذاتي.
١٥٥	المبحث الثالث: سياسة عمر الداخلية وجهوده في تنظيم الدولة
١٥٧	أولاً: التاريخ الإسلامي.
١٥٩	ثانياً: إنشاء الدواوين وتنظيم بيت المال.

١٦٦	ثالثاً: تنظيم الأمصار وتعيين الولاية.
١٧١	رابعاً: التعسس ورعاية الآداب العامة.
١٧٥	خامساً: العناية بشؤون الدين والقضاء.
١٨٣	المبحث الرابع: فجيعة المسلمين في عمر وذكر وصاياه.
١٨٣	عظيم الحادث.
١٨٧	وصاياه للخليفة من بعده.
١٨	وصاياه قبل الموت لنفسه.
١٨٨	ثناء الناس عليه.
١٩٠	أسئلة التقويم الذاتي.
١٩١	الخلاصة.
١٩٣	المراجع المساعدة.
١٩٤	الاختبار البعدي للوحدة.

### الوحدة الثالثة

١٩٥	عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين
١٩٥	الأهداف الخاصة
١٩٦	الرسم التوضيحي للوحدة
١٩٧	المبحث الأول: ترجمته وبيعته بالخلافة.
١٩٧	أولاً: ترجمة عثمان بن عفان.
٢٠٧	ثانياً: بيعته بالخلافة ودور عبد الرحمن بن عوف فيها.
٢١٨	أسئلة التقويم الذاتي.
٢١٩	المبحث الثاني: أعماله في الخلافة.
٢١٩	أولاً: تولي عثمان الخلافة.
٢٢١	ثانياً: الفتوحات في عهده.

٢٢٢	أ - الجبهة الغربية.
٢٤٢	ب - الجبهة الشرقية.
٢٢٦	ثالثاً: نظرة فاحصة للفتوحات في عهد عثمان
٢٢٨	رابعاً: أعماله في الداخل.
٢٣٥	أسئلة التقويم الذاتي.
٢٢٧	المبحث الثالث: الشبهات حول عثمان ونقدها.
٢٣٨	أولاً: الشبهات في الشخصية ونقدها.
٢٤١	ثانياً الشبهات الدينية ونقدها.
٢٤٢	ثالثاً: الشبهات السياسية ونقدها.
٢٥٠	رابعاً: رد الأمور إلى أسبابها الحقيقية.
٢٥٥	المبحث الرابع: فجيرة المسلمين في مقتل عثمان.
٢٥٩	أسئلة التقويم الذاتي.
٢٦٠	الخلاصة.
٢٦٢	المراجع المساعدة.
٢٦٣	الاختبار البعدي للوحدة.
<b>الوحدة الرابعة</b>	
٢٦٥	علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين.
٢٦٥	الأهداف الخاصة.
٢٦٦	الرسم التوضيحي للوحدة.
٢٦٧	المبحث الأول: ترجمته وبيعته بالخلافة.
٢٦٧	أولاً: ترجمة الإمام علي.
٢٨٨	ثانياً: بيعته بالخلافة.
٢٩٦	أسئلة التقويم الذاتي.